د. يوسف إدريس

مدينة الملائكة





مدينة الملائكة

الاخراج الفني : محمد قطب

د. يوسف إدريس

مدينة الملائكة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

مدينة الملائكة

في لحظة احساس باللافاعلية والضيق بالصبر وانعدام الدور والجدوى ، لحظة من تلك اللحظات التى كثيرا ما تنتاب أيا منا أمام ما يتصوره وما يجده من عقبات هائلات كأنها جبال تفاهات شامخة ، دق جرس التليفـون دقا دوليـا في العاشرة مساء :

ــ ألو ‥ صباح الخير « دهشت » ‥ أقصد مساء الخير ‥ فلان ؟!

ــ نعم ‥ صباح الخير أو مساء الخير ‥ أهلا وسهلا ‥

ــ أنا عفاف لطفي السيد ‥ الدكتورة عفاف لطفي السيد الأستاذة في جامعة لوس آنجلوس « »

ــ أهلا وسهلا ‥ عفاف لطفي السيد ؟!

ــ نعم .

ــ ابنة أستاذ الجيل ؟

ــ ابنته الروحية ولكن والدى كان سعيد لطفي السيد باشا شقيقه .

ـ أول رئيس للاذاعة المصرية ؟

ـ تماما ٠

ـ أهلا وسهلا ٠٠ أهلا وسهلا ٠٠

ـ لقد كلفتنى جامعة لوس أنجلوس بأن أعرض عليك أن تحضر الى الجـامعة كأستاذ كاتب زائر لمدة ربع عام أو عام حسبما يسمح وقتك فما رأيك ؟!

كان أول خاطر سريع أن أقبل فورا ، ففى تلك اللحظة كنت مستعدا لتلبية أى نداء قدرى يأتينى ولو بالذهاب الى واق الواق ٠

لقد كنت أختار اذا سألنى أحد السائلين عن هواياتى ، كنت أفتش حياتى فلا أجد لى هواية واحدة تصلح للذكر ، فلا أنا رياضى ولا شطرنجى ولا لى أى نشـاط اجتمـاعى أنتمى والانطـواء أحب الى كثيرا من الجلـوس فى ناد ، ولا أصطاد بالبندقية وحظى فى صيد السمك صفرا ، أخيرا جدا اكتشفت ان كثرة حبى للسفر تعد هـوايتى الحقيقية ، والعام الماضى كله تقريبا قضيته على سفر ، دعوة لحضـور مهرجان الشعر الشبابى فى العراق ، دعوة من الجمعيةالعربية السويدية لاستوكهلم ، دعوة من وزارة العلاقات الثقافيـة الخارجية لزيارة فرنسا ، دعوة من هيئة (البروهيلفيسيا) السويسرية « ما يقابل المجلس القـومى للثقـافة عندنا » لزيارة سويسرا وكان رفيقى فى الدعوة صديقى وأستاذى الدكتور لويس عوض الذى لا أمل مداعبته ولم أمل طوال الأسابيع الثلاثة التى قضيناها فى سويسرا ٠٠ وها هى الآن دعوة الى كاليفورنيا ولوس أنجلوس وجامعة عتيدة مهيبة اسمها Ucla ٠

ولكن انبثاقة الرغبة فى التلبية سرعان ما توقفت ، فقد رنت فى أذنى كلمة « أستاذ » ولو كان زائرا للجامعة ٠٠

فكل الدعوات السابقة كانت دعوات ثقافية سياحية ومقابلات مع كتاب وفنانين ومثقفين وحضور مؤتمرات ٠

تنحنحت وقلت :

ــ يا دكتورة عفاف ٠٠ تقولين أستاذا زائرا ؟

ــ نعم ٠

ــ ولكن أستاذ ماذا ؟ أستاذ لتدريس الأدب العربى ؟

ــ شيء كهذا ٠

ــ ولكن هذا التدريس لم أجربه أبدا ولا أصلح له ، لا أطيق أن أكون أستاذا أو أدرس شيئا ، فأنا كثير التغيير والتبديل فى آرائى ، والحقيقة عندى بالغة الصعوبة فى الوصول الى مرحلة اليقين فيها والأستاذ لابد أن يكون قد « وصل » الى ما يتصور انه الحقيقة ليستطيع أن « يعلمها » لغيره ٠٠ ألا تعرفون هذا فى جامعة لوس أنجلوس عنى ؟ أنا دكتور طبيب يا دكتورة ولم أنل أية دكتوراه وكنت قد تنازلت عن اللقب ككاتب وظللت ردحا طويلا أكتب اسمى فقط الى أن عيننى الأستاذ هيكل فى الأهرام ورأى أن يكتب اسمى مضافا اليه لقب دكتور ، وهكذا ذهبت مثلا ، والتصق اللقب بى وكان نبوءة المرحوم الشاعر كامل الشناوى قد تحققت ، اذ حين خلفت ابنى الأول والأكبر (سامح) ظللت طويلا حائرا فى تسميته فقد كنت أريد أن أسميه محمدا وكانت أمه قد قرأت قصة لى اسمها « لعبة البيت » وبطلها طفل اسمه سامح فأصرت على أن تسميه « سامحا » حتى لا يغضب منا اللغويون » اذ أن العائلتين مليئتان باسم محمد،

ويومها ـ وأنا حائر فى اختيـــار الاسم قال المرحوم كامل الشناوى : اسمع يا يوسف ٠٠ ما رأيك أن تسميه دكتـــور « والمرحوم كان دائم التشهير بطبى ومتطببى » بحيث ستجبر الناس على أن يقـــولوا : « دكتـــور يوسف ادريس » يقولها لسامح وان لم يقولوها لى ٠

طبعا لم أقل كل هذا للدكتورة عفاف فهى تتـــكلم من مسافة لا تقل عن سبعة عشر ألف كيلو متر والدقيقة بالشيء الفلانى ، ولكن فكرت فى كل هـــذا وفى جملة لخصت لهـــا الموقف : أنا لا أصلح أستاذ أدب أو مدرسا لتلاميذ ٠

فوجئت بها تقول : ولكننا نعرف هذا ولهذا دعوناك ٠

ـ دعوتمونى لهذا ؟!

ـ نعم ٠٠ لتعطينا وتعطى الخريجين المتخصصين وأعضاء تدريس الأدب العربى رؤيتك كمبدع فى القصة والمسرح ٠

ـ ولكن هناك فى جامعات مصر أساتذة كبار يفيدونكم أكثر ٠

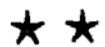
ـ فى الحقيقة نحن نتبع نظاما أصبح معمـــولا به فى أمريكا الآن وهو دعوة الروائيين والشعراء وكتاب القصـــة والمسرح كأســـاتذة زائرين يناقشـــهم الطلبـــة فى أعمالهم ويقتربون من المبدعين الخلاقين لكي يثيروا فيهم حبهم للأدب والفن ويدخلوا تيارات غير آكاديمية على عقـــولهم بحيث لا تعود الجامعات أديرة مقفلة بعيدة عن الواقع العلمى أو الفنى الحى ولهذا نحن نرحب بالكتاب ليقولوا هم نظرتهم الشخصية أو النقدية الى عملية الخلق والى آرائهم في النقـــد حتي في طريقة تدريس الفن أو الأدب ٠٠

ورغم ان الكلام كان مقنعا جدا ، الا آن فكرة أستاذ وجامعة ودراسة ظلت تدور فى عقلى وتقترب من محيط الرفض حتى وأنا أقول لها :

ـ ولكن ثلاثة أشهر مدة طويلة ٠

ـ سوف تجد انها ليست كذلك حين تأتى ٠

ـ اذن شكرا يا دكتورة على الدعوة ومبدئيا آنا أقبلها٠



سبع عشرة ساعة من الطيران المتواصل ١١ ساعة مع القاهرة لنيويورك، وانتظار ساعتين ثم ست ساعات للوصول الى لوس أنجلوس ٠

برأس دار حول نصف الكرة الأرضية فى رحلة متصلة وصلت « مدينة الملائكة » «آنجلوس بالاسبانى تعنى ملائكة» وأنا بالكاد أدرك من أنا ، وبدا لى المطار الكبير المتوهج بالأضواء وبالسلالم وبالوجوه لوحة قد اختلطت وتداخلت ، لوحةلابد رسمها تجريدى مجنون ، ولولا آنى لمحت وسطها وجها أعرفه جيدا هو زميلنا السابق فى الأهرام الدكتور ابراهيم كروان عضو مركز الدراسات بها آو هكذا خيل الى، اذ كانت قد أضيفت الى وجهه ذقن صغيرة أنيقة جعلته يبدو وكأنه جزء من اللوحة يضيع في عدم اليقين ٠

ولكنه كان هو ٠

وكان الوقت متأخرا اذ كان صباح اليوم التالى قد أشرق في القاهرة بل حل ظهره وليله ويوشك فجر يوم جديد أن يأتى ان لم يكن قد جاء فعلا ٠

لم تكن تلك أول مرة أزور فيها لوس أنجلوس فقد زرتها عام ١٩٦٦ وكنت تلك المرة مدعوا من قبل جامعة شيكاجو وقمت بجولة فى أهم المدن الامريكية ·

ولكن هذه لوس أنجلوس أخرى تماما ، عام ٦٦ كانت مدينة متوسطة الكبر والمبانى وكانت تختلف عن غيرها من المدن الأمريكية فى خلوها من ناطحات السحاب المشهورة أو ندرتها ، ولكن هذه المدينة أصبحت غابة من ناطحات السحاب المهيبة بل من مدينة واحدة تكاثرت مثل (أميبا) عمرانية مخيفة الأبعاد فأصبحت خمس أو ربما ست مدن تكاد مدينة بيفرلى هيلز « حيث هوليود » تصبح أقلها أهمية ·

فجأة وافقت على الحقيقة ، أنا فى بلد غريب تماما ، وكأن الدعوة كانت فرصة لكى أغمى عينى وأقذف نفسى فى سفرة أخرى ، وهأنذا أفيق على حقيقة انى فى مدينة رهيبة الغنى والأبعاد ، أقصر شارع فيها طوله سبعون كيلو مترا ، وعربات بوليسها واسعافها لا تكف عن النعيق، والعربات الامريكية الهائلة الحجم كثيرة كثيرة وصفوفا صفوفا تدبر حمراء وتقبل بأنوار بيضاء ساطعة ماذا أتى بى يا ربى وماذا أفعل هنا ، وماذا سأفعل فى الجامعة غدا أو على الأصح بعد أن تذهب عنى « تولة » الرحلة ؟!

أقول أغمضت عينى وقذفت بنفسى فى تلك السفرة لأسباب لا علاقة لها بأهمية الدعوة أو الجامعة بقدر ما كانت أسبابا تتعلق بى شخصيا ، كنت فى الحقيقة أريد أن أخلد الى نوع من الانفراد بالنفس وتأمل طويل لا تقطعه علاقات أو نشاطات أو زيارات لحياتى ، فمنذ عام ١٩٥٨ حين ارتبطت كتابتى بالصحافة وتركت الطب ، هدهدت خواطرى التى

اعترضت على الفكرة بقولى لنفسى : انها مجرد فترة قصيرة جدا ، أجرب فيها الكتابة للصحافة ، اذ لا منــاص لــكاتب القصة القصيرة ، وحتى المسرح من الالتحاق بالصحافة ان آجلا أو عاجلا ، فالقصة القصيرة الحديثة المكتوبة هى الابنة الشرعية للصحافة ، لولا الصحافة ما وجدت ، فكاتب القصة القصيرة لا يستطيع أن يصدر كتابا فى كل مرة يكتب فيها قصة قصيرة لابد أن ينشرها فى مجلة أو جريدة ثم يجمعها ـ أو لا يجمعها ـ فى كتاب بعد ذلك ، والمسـألة فى العادة تبدأ بنية نشر القصص القصيرة ثم يبدأ الكاتب ينزلق الى كتابة خاطره ، ثم اقتراحا ، ثم صورة قلمية وفى النهـاية يجد نفسه منغمسا تماما فى دور الكاتب الصحفى ، ذلك ان الصحافة تحمل الكاتب حملا الى مشاكل النــاس ، مشــاكل الاقتصاد والثقافة والسياسة والتعليم والاسكان والمواصلات وحتى الحب يصل أيضا الى مشاكله وليس الى قصصه ، فقط .

وأفقت لأجد نفسى قد قضيت أكثر من ربع قرن كتبت أثناءها أكثر من ثلاثة آلاف موضوع صحفى وهو كم يعادل ما كتبته فنا عدة مرات ، وقبل أن أشرع فى رحلتى الأخيرة تلك كنت قد انتهيت من مراجعة كثير من هــذه المقــالات وتنسيقها فى أربعة كتب صدر بعضها ولا يزال الآخر فى انتظار الصدور ، وحين راجعت هذا العدد المهول من المقالات اكتشفت انى ما تركت مشكلة من مشاكل الشعب المصرى أو العربى الا وكتبت عنها ونبهت اليها ، حتى تجريف الأرض الزراعية كتبت عنه منذ خمس سـنوات بعنــوان : الذين يأكلون أمهم « أى الأرض » ومن مشاكل تلوث البيئــة الى مشاكل السياسة والسياسيين والتلوث الثقــافى والتعليمى والتربوى حتى الانفجار السكانى كتبت عنه فى الخمسينات .

وهنا استوقفنى سؤال مفجع ، دعك من الأصدقاء النقاد وكاتبى المقالات الصحفية الذين سلخونى طوال السبعينات حول نهايتى ككاتب فن « وهروبى » الى الكتابة الصحفية ، فهؤلاء كنت أجيبهم بقولى : ان نهاية الأرب فى فهم الأدب هى أن يبادر الكاتب وينشىء شيئا من أجل الآخرين ، فاذا شب حريق فى دار اخوانه الآخرين هؤلاء أيترك النـاس تحرق البيت والآخرين وينزوى فى ركن يكتب عما حدث قصـة أو رواية أو مسرحية أو يتصرف كالرجال ويشمر عن ساعده وبكل ما يملك يساعد فورا فى اطفاء الحريق وبعد هـذا يكتب القصة أو لا يكتبها ، هذا شىء غير مهم بالمرة فالكاتب ليس صانعا ماهرا لكراس مذهبة أو كراسى مقاه ليس حرفى قصة وزواية ومسرحيـة ، الـكاتب روحه معلقـة بروح شعبه ، فى مشنقة واحدة أو فى باقة حرية واحدة ، الكاتب هو « أول » من يبادر وآخر من ينـكص ، الـكاتب ظاهرة اجتماعية بيولوجية قبل أن يكون ظاهرة فردية هدفها ذاتى محض ، أن يكون أكثر أهل صنعته اتقانا لحرفته أو أكثرهم امتيازا على أقرانه ..

مئات المقـالات قرأتها وأنا أراجع الـكتب الأربعـة والسؤال المفجع يقف كاللقمة فى زور الواقع ، وماذا صنعت تلك المقالات ؟!

لابد انها صنعت شـيئا ، كثيرا أو قليـلا ، غير مهم ، فصدى الصنع أجده فى كل مكان أذهب اليه ، وصحيح انها غيرت فى تفكير كثيرين ، ولكن هل غيرت حقا فى الواقع ، هل حلت فعلا مشاكل ، هل أخذت بها أى حكومة أو حتى أى مصلحة ؟!

ذلك أمر أترك الحكم عليه للناس وللتاريخ ..

ولكنى ككاتب لابد أن أراجع دورى الآن ·

فلقـد كنت أكتب فى السـبعينات فى فترة اتسـمت بغياب ـ معظم الوقت ـ للمعارضة وللرأى الآخر السياسى والاقتصادى والثقافى والاجتماعى ، والآن ومنذ نهاية عام ٨١ ونحن فى حقبة أخرى ، هناك أحزاب معارضة ، تعارض حتى رئيس الجمهورية فى قراراته ، وهناك صحف معارضة مقالاتها وكتابها السياسيون والثقـافيون والعلميون أعـلى صوتا من أعلى الأصوات التى تكتب الرأى الآخر فيما يسمى بالصحف القومية ·

هناك اذن حياة حزبية شبه كاملة ، ودور « قائم مقام » المعارضة أصبح على رأى لطفى السيد فى معاهدة ٣٦ « غير ذى موضوع » بعد أن قامت المعارضة القوية الشرعية ·· والتفـكير السـليم يدعو كلا منا لأن يعـود الى تخصصـه واختصاصه وأعظم ما أستطيع أن أفعله الآن أن أنتج قصة ، ومسرحية وفنا وفكرا ـ بالطبع غير منعزل عن الحياة العامة ـ بل بتعمقها ويضيف بعدا وجدانيا الى مقـالاتنا وخطبنـا وتصريحاتنا العقلانية ، هذا أوان الكاتب والكتاب فالضجة القائمة فى صحافتنا عربية ومصرية شديدة العلو ـ ولا نرى طحنا ـ وشعبنا حاجته ماسة الى ابداع فنى حقيقى «يكنس» العنـاكب والعقـارب والثعـالب والفيران النرويجى التى تكالبت على ضمائر الناس تنهشها وتزلزل قيمها ، ان الفن الحقيقى هـو الدفاع الوحيـد عن الضمير المصرى والعربى وضمائرنا لم تكن فى حاجة الى دفاع عنها بقدر ما هى فى حاجة اليه الآن ··

وليس بالفن وحده ندافع عن ضمائرنا ولكن بالكتابة الحقيقية الصادقة الصادرة عن تجرد كامل وعن غيرية كاملة

وليس كما هو حادث الآن مع كثير من أصحاب الأعمدة اليومية الثابتة التى أحالوها الى قطاع خاص فى أحيان كثيرة لأهداف خاصة جدا، والكتابة فى الفاضى والمليان لا لهدف الا لتثبيت ملكية « العمود واثبات وضع اليد ، لقد أطلعت وأطلع على الصحافة فى العالم كله بطوله وعرضه وشرقه وغربه ولم أجد هــذا النظام الغريب الذى تنفرد به الصحافة المصرية والعربية ، نظام العمود الثابت لسبعة أو عشرة أو أحيانا كتابا أكثر ، يكتبــون كل يوم ولا يقولون شـيئا بالمرة أو يقولون الشىء نفسه كل يوم ، كل يوم، والغريب أن معظمهم لا يتمتعون بآراء قيمة وقدرة ذائبة فى البحث عن الحقيقة وثقافة عميقة تتيح لهم معرفة موسوعيــة بحيث يعــالجون الأشياء التى يكتبونها بعمق ومن خلال وجهة نظر جــديدة ومبتكرة ومحددة ولكنهم فى مجموعهم يشكلون آراء شائعة لا جــديد فيهــا ولا ابتكار غالبا ما تكون قشرية أو أحيانا غوغائية وفى أكثر الأحيان تميل الى المحافظة وتملق الرأى الشائع أو المودة السارية ، فى حين أن كاتبا يســتطيع أن يكتب رأيا يوميا لابد أن يكون قائدا فكريا أكثر خطــورة بكثير من مارلو أو سارتر أو الحكيم بوذا أو حتى ــ بموسوعيته ــ العقاد ..

والنتيجة ضجيج غريب ، تضيع فيه الأصوات المفكرة الدارسة وتفقد الكتابة الصحفية نفســها أهميتها وتصــبح كالطنين على الأذن ، أشياء تدعو للنعاس .



أغمضت عينى وقذفت بنفسى فى آخر مدينة على غرب الدنيا وفى نيتى أن أعتزل العالم ثلاثة أشهر كاملة ، لعــل ذرات الرمال الناعمة تذهب عن عينى ، وتتضح الرؤية ،

والضجيج الذى يملأ أذانى ويسد مسام عقلى وتفكيرى يكف، فأستطيع أن أسمع صوتى الداخلى وآتلمس نوع وطبيعة ما أريد حقيقة أن أقوله وأفعله ..

ولكننى كنت أحلم .

فمدينة الملائكة التى ذهبت اليها كانت تحفل بضجيج لم أكن أتصوره وبأصوات صاروخية هذه المرة لا تعيق السمع ولكن تصم الآذان فعلا .. وكانت تجربة ..

ويالها من تجربة !

افصلونى ـ أرجوكم ـ معه !!

بعد التحية :

مقــدمه لسيادتكم الطالب محمد حامد الحمامى ، أمين اللجنة الثقافية باتحاد المعهد الفنى للفنادق ببور سعيد .

أما بعد ـ فأنا آسف اذ أبلغك بأننى فصلت من المعهد بسبب اتباعى لرأى سيادتك ، سامحك الله يا دكتور يوسف فأنت السبب فى فصـلى من المعهد ، فقـد قرأت مقالك أو مفكرتك التى تنشرها كل يوم اثنين فى جريدة الاهرام والتى كانت تتناول ايقاظ الهمة لدى الرأى العام المصرى بالطريقة الشرعية لمساندة الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة وقطاع غزة ، وقد ناشدت فى هذا المقال كل التجمعات السياسـية والعمالية والطلابية بأن تتحرك لدعم الانتفاضة وبالذات ناشدت الاتحادات الطلابية فى الجامعات والمدارس والمعاهد بأن ترسل برقيات الى الحكومة الاسرائيلية والى سكرتير عام الأمم المتحدة ومجلس الأمن والى كل الجهات المعنية تندد بأساليب القمع الدموى التى يتبعها المغتصبون الصهيونيون فى الأرض المحتلة .

وما كان منى الا أن حاولت أن أساهم فى هذا الاحتجاج بطريقتى الخاصة المشروعة بأن أقيم معرضا عن الانتفاضة وذلك بصور ومجلات حائط لتوضيح مدى رجولة الشعب الفلسطينى فى مقاومة الاحتلال وتوضيح كفاح الشعب العربى ضد اسرائيل . وما كان منى الا أن عرضت الأمر على السيد رائد الاتحاد فوافق على احضار الصور وعندما أحضرتها وشاهدها رأى ضرورة موافقة السيد عميد المعهد برغم ان السيد المسئول عن رعاية الشباب قد تحمس لى وشجعنى على المضى قدما فى نشر ذلك ، وما كان منى الا أن عرضت الأمر برمته على السيد العميد فأبدى استعداده بالموافقة على اقامة المعرض ، ولكنه قال لى : امهلنى الى الغد، فلما جاء الغد فوجئت بدلا من الموافقة بأن مباحث أمن الدولة فى بور سعيد تستدعينى وتحقق معى بأسلوب وطريقة كأننى قمت بعمل اجرامى ضد الدولة ، هذا : وناهيك عن مصادرة كل الصور والمجلات، وعند عودتى الى المعهد حاولت الاستفسار عن سبب هذا كله ، ولكن المفاجأة الكبرى اننى وجدت ان قرارا بفصلى من المعهد قد صدر ، وصدر فى أحرج وقت لأنه لم يبق على امتحانى سوى شهر واحد ، وذلك تحت زعم اننى حاولت اثارة شغب وبلبلة بين صفوف الطلاب باقامة هذا المعرض بالله عليكم هل نحن عرب اما ماذا ، وهل يرضيك ما حدث .

محمد حامد الجمامى

أمين اللجنة الثقافية بالمعهد

الفنى للفنادق ببور سعيد

ما كدت أعثر على هذا الخطاب بين أكوام رسائل القراء حتى اكتفيت به وبلغ بي الغيظ حد الكف عن قراءة بقية الرسائل ، وأعود الى منزلى فى حالة ثورة عارمة .

فخلال الأعوام القليلة الماضية ، تلك التى استشرى فيها التطرف بين الجماعات الدينية واليسارية ، والتى أخذنا فيها نحن الكتاب وأولى الرأى فى هذا البلد على عاتقنا مهمة أن نفهم الشباب انه لا العنف ولا الارهاب ولا الالتحام بقوات الشرطة والخروج فى مظاهرات تتعدى الحرم الجامعى حيث يختلط الحابل بالنابل وتسود الفوضى ، كان أقصى ما نطمح اليه أن يتعلم الشباب الجامعى الوسائل الشرعية للتعبير عن الرأى مثل عقد المؤتمرات داخل مدرجات الكلية ، وتحرير برقيات ورسائل الاحتجاج الى المسئولين أو غير المسئولين قائلين فيها رأيهم بصراحة ووضوح .

سنوات وسنوات ونحن نفعل هذا ، وحين كتبت منذ بضعة أسابيع أطالب الرأى العام المصرى بأن يظهر احتجاجه على مذابح اطلاق الرصاص وتكسير الأيدى والضرب ذلك التى يستعملها الجيش الاسرائيلى بأوامر من شامير وحكومة الليكود ، حين فعلت هذا كنت أحاول أن أناشد الشباب والمؤسسات الشعبية والنقابية أن تظهر احتجاجها بالطريقة الشرعية التى تطالبنا دائما بها الحكومة والمسئولون السياسيون ولهذا فاذا كان هذا التعبير بالطريقة الشرعية جريمة فلابد اننى أنا وليس أحد غيرى هو المتهم الأول والمحرض فيها ، وقد يقول البعض ان ما جاء بالخطاب غير صحيح ، ولكنى استبعد هذا الاحتمال اذ قد أرسله الطالب باسمه وعنوانه ويعنى هذا انه مسئول تماما عن خطابه وأقواله ولهذا فان يتفضل عميد معهد الفنادق بابلاغ مباحث

أمن الدولة ضـد هذا الطالب الذى ذهب يأخـذ منه الاذن بتعليق الصور بعدما وافق على مشروعه رائدالاتحاد ومسئول رعاية الشباب ولم يعترض العميد وانما طلب استمهاله يوما واحدا ، ذلك اليوم الذى آسرع فيـه الى ابلاغ مباحث أمن الدولة عن الجريمة البشعة التى يعتزم الطالب القيام بها نفس الجريمة التى يرتكبها تليفزيوننا كل يـوم وفى كل نشرة أخبار وترتكبها صحافتنا وارتكبتها آنا ككاتب وغيرى من عشرات الكتاب اما أن يحدث هذا فان الأمر يشكل جريمة كبرى فى حق الشعب المصرى ، بل أقولهـا علانيـة فى حق الحكومة المصرية والرئيس محمد حسنى مبارك .

★ فأولا : كيف يخدع العميد تلميذه وقد كان ممكنا أن يعترض ويرفض انما الذى طالبه هو تأجيل للغد ، وما هو بتأجيل انما هى وسيلة غير كريمة لتبليغ مبـاحث أمن الدولة من خلف ظهر الطالب المسكين الذى وثق فى عميده ومشى منذ البداية على خط مستقيم مشروع، وقد كان باستطاعة العميد أن يرفض عرض الصور والمجلة، وهذا هو حقه ـ رفضا شجاعا مباشرا ، اما أن يتظاهر بالموافقة ثم يبلغ مباحث أمن الدولة فهنا نضع أيدينـا عـلى بعض العمـداء والمديرين الذين تركوا الاشراف العلمى جانبـا وأصبحوا ممثلين لأمن الدولة ووزارة الداخليـة ليس بناء عـلى توجيهـات وزير التعليـم ولا استجابة لأوامر وزارةالداخلية وانما هكذا يجندون أنفسهم متطوعين لتلفيق التهم لأولادنا ولفلذة أكبادنا أملا فى أن ينالوا الحفاوة لدى من ؟ لست أدرى .

★ وثانيا : ما هذه العلاقة المريبة بين بعض المسئولين فى الجامعات والمعاهد وبين مباحث أمن الدولة عن طـريق

الحرس الجامعي أو غيره ، ان العميد كان يختار فى السابق على أساس مقدرته العلمية وبانتخاب أعضاء مجلس الكلية ليزاول وظيفة تعليمية سامية الا وهى رياسة معهد أو كلية ، أو جامعة ... فهل تبدل الحال وأصبحت قدرة العميد تقاس بمقدار ولائه لأمن الدولة ووزارة الداخلية ؟

★ ثالثا : هذا طالب قارىء قرأ رأيا لكاتب ، وأتبع كما أراد الكاتب الطريق العلنى المشروع ، فكانت النتيجة انه فصل قبل الامتحان بشهر أنا أعرف والقانون يعرف قانون الجامعات انه لا يمكن فصل طالب الا بعد تقديمه لمجلس تأديب فى معهده أو جامعته ، وادانة مجلس التأديب له ، واقتراح عقوبة ، قد يخففها العميد أو مدير الجامعة ، اما أن يفصل طالب دون محاكمة أو تأديب • وانما بمجرد الاتصال بمباحث أمن الدولة فهو شىء جديد حقا جديد على التقاليد الجامعية وجديد على الحكم فى مصر والأهم منه انه يحدث الآن فى عصر نقول فيه كلنا ابتداء من رئيس الجمهورية الى أصغر محرر فى جريدة معارضة أن الديمقراطية هى دعامتنا الأولى لحكم الشعب ، وان وسائل القهر والكبت والحجر على الرأى انتهت من بلادنا تماما وذهبت الى غير رجعة •

أما اذا كان العميد ـ المباحث ـ يرى فى عرض صور للمذابح الاسرائيلية ضد الفلسطينيين فى الأرض المحتلة واسرائيل هو عمل ضد الحكومة وضد الحكم وجريمة يستحق عليها الطالب الفصل من معهده فانى لأتعجب ، فاذا كان الأمر جريمة فأنا الذى كتبت فى الاهرام وأنا الذى حرضت على ارتكاب تلك (الجريمة) وبالتالى أنا أول من يستحق

العقاب . فلماذا لم يطالب سيادة العميد بفصلى أنا وحرمانى من الكتابة ، ولماذا لم تفعل مباحث آمن الدولة هذا .

انها ليست فقط مهزلة ، ولكنها وقد علمت بها من خطاب الطالب المستغيث بى ، ومحملنى ـ وعنده تمام الحق ـ المسئولية عن فصله ، لأهيب بالدكتور آحمد فتحى سرور وزير التعليم أن يطلب معاقبتى أنا آولا وعنده مجلس الشورى مالك الصحف بما فيها الاهرام وعنده رئيسه الدكتور على لطفى الذى هو فى الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للصحافة الذى يملك حق فصلى فأنا الجانى فى الأصل والمحرض ، وما الطالب سوى ضحية بريئة لما كتبت ، ولأننى لا أعرف بالضبط الجهة التى فصلت الطالب ، فاننى أطالب نفس الجهة الغامضة التى تولت هذا العمل المشين أن تفصلنى آنا أولا ، أم لأنه هو طالب ، مجرد طالب ، وأنا كاتب ، تطبق عليه هو الاجراءات الشاذة ، ولا تطبق على ؟

★ رابعا : نأتى للموضوع نفسه ، هل الاحتجاج بطريقة شرعية قانونية على الاعتداء الوحشى الواقع على اخوتنا وأشقائنا الفلسطينيين جريمة تستحق العقاب ؟

اذا كانت بعض الجهات الرسمية لمباحث أمن الدولة أو وزارة التعليم ترى فى الأمر جريمة ، فالحقيقة ان آخر المتهمين فيها هو ذلك الطالب المسكين، واذا كنت أنا المحرض، فان المتهم الأول لابد آن يكون الرئيس محمد حسنى مبارك الذى كان أول من احتج على تلك الأعمال الاجرامية وأول من أدان حكومة الليكود ورئيسها المتعصب اسحق شامير ، ويأتى بعد هذا السيد صفوت الشريف وزير الاعلام والمسئول عن الاذاعة وتعليقاتها وعن التليفزيون وصور التوحش

اللا انسانى التى نراها فى كل نشرة آخبار ، ثم كل رؤساء تحرير الصحف القومية وصحف المعارضة تلك التى أدانت جميعها هذا العدوان الصارخ والتى طالبت الشعب بالاحتجاج على هذا المنكر بأقل آنواع دفع المنكر باللسان والصورة والكلمة ٠

اذن لابد أيضا لوزير التربية ورئيس مباحث أمن الدولة أن يبادر بفصل رئيس الجمهورية وكل الكتاب ورؤساء التحرير ، لابد من فعل كل هذا قبل آن تمس شعرة واحدة من شعرات الطالب محمد حامد الحمامى فهم الفاعلون الاصليون المتآمرون الذين يحرضون الناس ضد القمع الاسرائيلى ٠

أقسم انى من لحظة آن تسلمت هذا الخطاب وأنا فى حيرة من أمرى ، هل هناك حكومتان فى مصر ، واحدة يرأسها حسنى مبارك تقف ضد العدوان الاسرائيلى الغاشم، وحكومة ثانية سرية لا يعرف أحد بالضبط هويتها ، ولا يملك الامساك بمسئوليتها ، حكومة موالية تماما لاسرائيل، وتأخذ أوامرها منها ، وتعذب وتضرب وتفصل كل من تسول له نفسه أن يحتج على القمع الاسرائيلى ، فان هذا يعد فى نظر تلك الحكومة السرية خروجا على الخط وجريمة فى حق المتعاونين مع اسرائيل ٠

والغريب فى الأمر انى حين آمعنت النظر ، وجدت ان قرارات وأحكام تلك الحكومة السرية الثانية هى التى تنفذ حين يجد الجد ، وهى المالكة لزمام الأمور ، وكانها الحكومة الفعلية الماسكة بزمام الأمور ، وكأن الحكومة الأخرى حكومة كلام وأقوال همها الهاء المواطنين ليس الا ٠

★ ★

وبعد :

انى لا أريد فتح باب النقد لحكومتنا الشرعيـة والتى أعتقد انها لا تزال شرعية ، فالملاحظ من حادثة الاعتداء على عضو مجلس الشعب ، ومن مد قانون الطـوارىء لثـلاث سنوات أخرى تبدأ من ابريل القـادم ـ ثلاثة سـنوات ـ يا للهول ولماذا لا تمد كل ثلاثة أشهر أو حتى كل ستة أشهر، لماذا نحكم على مستقبل مصر خلال السنوات الثلاث القادمة بالتكبيل وبفرض حالة الحرب على الناس ، دون حرب ، بل فى الواقع باخماد أى صوت يرتفع ضد علاقتنا باسرائيل ، شىء لم يحدث فى تاريخ العـالم قط ، فديمقراطيتنا التى لا تزال ينقصها الكثير كانت تحتاج منا الى فتح أكثر لباب الحرية ، حتى اذا انتهت فترة الأحكام العرفية نجـد شعبا منظما قد تعود على احترام الرأى والرأى الآخر ، أم أننـا سيحكم علينا بأن نظل أطفالا غير مسئولين الى الأبد ؟

الاعتداء على النائب ومد الأحكام العرفية لستة وثلاثين شهرا كاملة ، وارغام آلاف الفنانين فى مصر عـلى اجـراء انتخابات حسب القانون المشبوه الجديد «ورجلهم فوق رقبتهم» ثم تدليل شركات توظيف الأموال والغاء المسئولية الوزارية وترك أعضاء مجلس الشعب وترك الوزراء كأفراد يواجهون الأعضاء وحدهم فرادى وكأنه لا توجد هناك وزارة ورئيس وزراء ومسئولية سياسية بقيادة رئيس الوزراء باعتبـاره المسئول الأول عن أى خطأ أو انحراف أو رأى شخصى يجتهد به وزير .

حالة أحسست معها وأنا أحمل خطاب الطالب المفصول فصلا تعسفيا لابد أن يكون محل تحقيق تعلن نتيجته ويعلن اسم ووظيفة فاعله على الملأ ، حالة أحسست معها ان سياسة الدولة قد أخذت . ـ وتصبح حكومة يمين صريح لا يخجل

من نفسه وانها ماضية فى سياستها تلك ــ تصم آذانها عن صرخات الشعب ورأيه وكأنه غير موجود ، ولولا اننى سمعت تصريحات الرئيس المبارك ضدالحكومة الاسرائيلية وتلويحها بالقيام بتدمير صواريخ الدفاع التى اشترتها المملكة السعودية من الصين وقوله : ان آى اعتداء على أى جزء من الجزيرة العربية يعتبر بمثابة اعتداء على الأرض المصرية نفسها ، بما معناه ان مصر ستتصدى لهذا الاعتداء بكل ما تملك من قوة ، ثم كلماته التى تحمل الرد المفحم على المتعصب شامير وقائد قواته رابين ، انه ، اذا حدث شىء كهذا فان معناه نسف جهود وحالة السلام فى المنطقة بأسرها ونسف السلام يعنى العودة للحرب ، لولا ان جاءنى صوت الرئيس مبارك يعلن موقف مصر الحرة التى عانت طويلا من تعنت اسرائيل وعانت أكثر من تحيز الولايات المتحدة لأى سياسة عدوانية اسرائيلية جاءتنى تلك التصريحات فأفاقتنى من هول ما كنت فيه ، مثلما النشادر فى الانسان الموشك على الاغماء غما وغيظا وانعدام آية وسيلة حتى للصراخ أو الاحتجاج .

لتفهم الحكومة الاسرائيلية ولتفهم ادارة ريجان انه مهما بلغ نقدنا لحكومتنا فاننا ازاء ما يقترفون من جرائم قد بلغ غيظنا أطراف أنوفنا ، ولولا ثقتنا فى ضخامة ما تواجهه دولتنا من صعوبات وأهوال خارجية هم القائمون بها لانفجر شعبنا عن بكرة آبيه عنفا واحتجاجا اذ لم يعد فى قوس الصبر منزع ، ومستودع المتفجرات داخلنا يكفيه خطوة ، مجرد خطوة واحدة ، وفعل اجرامى واحد تقترفه حكومة شامير بدعم من الولايات المتحدة يكفيه خطوة حتى ينفجر أعتى وأقوى انفجار .

وعلى الباغى تدوز الدوائر !!

لقد تبخرت كل أحلامنا فى (علاقة خاصة) مع أمريكا وكل ما كان يأمل فيه الرئيس السادات من ربطنا بالعجلة الامريكية والاسرائيلية آثبتت السنوات والتجارب انه جاءنا بالعكس تماما ، وآن رفضنا وغيظنا من السياسة الاسرائيلية الامريكية قاطع ومستعدون معه آن نشعلها جحيما ، فخير لنا أن نتحمل التعذيب المتواصل الطويل على آيدى تلك العصابة الدولية التى ليس لها من عمل سوى قهر الشعب وبالذات قهر الشعب العربى والجائه الى الزحف على البطون والتماس الرأفة من مجرمين لا ذرة رحمة فى قلوبهم ٠

أما أنت يا صديقى محمد حامد الحمامى فانى ان شاء الله متبن قضيتك الى أن يفصلونى معك ، بل وليفعلوا بى ما هو آكثر ، آو الى أن يصدروا حكما ببراءتك وتلحق امتحانك ، فكلنا معك ، واذا كان لنا رأى كما لابد لأى كائن حى أن يكون له رآى ، فنحن والله حائرون فاذا احتججنا بفوضى سجنونا بتهمة اثارة الشعب والشغب ، واذا حاولنا ابداء الرآى بطريقة شرعية متمدينة فصلونا بتهمة الاثارة والتحريض ومعنى هذا آن الحكومة السرية الغامضة تريد منا أن نحيا كقطيع الخرفان ، لا ننطق ببنت شفة نمشى وراء الكباش الخفية هادئين مساقين ويكفينا آن لنا الحرية فى السير خلفها كما تسير القطعان ، قطعان لا تفعل الا أن تشرب وتآكل ــ هذا اذا وجد الطعام آو الشرب ــ ونقبل أيدينا ظهرا لبطن على نعمة الوجود مجرد الوجود ، كائنات بلا رأى وبلا أى حق فى ابداء الرأى ٠

انني والله لا آصدق اننا نعيش فعلا فى القرن العشرين، واننا استعدنا لانساننا حقه وحريته ، آهو كابوس مزعج ما نحن فيه ٠

أم اننا على شفا بداية جديدة لعهد جديد ٠

الضحك حتى البكاء

حين اتصــل بى صــديقى الفنان عادل امام يدعونى للانضمام لجهود اللجنة الفنية التى أنشئت لدعم الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة والتى اقترح عادل امام اقامة حفل كبير يخصص دخله لدعم الانتفاضة ٠

حين حدث الاتصال التليفونى ووضعت السماعة وجدت نفسى أضحك كما لم أضحك فى حياتى ، فصوت عادل امام وملامحه ومجرد تصورى له يضحكنى فما بالك اذا تحدث ، انه ينشر السخرية والابتسامات بتلقائية غريبة وضعها الله فيه كما وضع فى الياسمين رائحته وفى الـكروان حـلاوة صوته ، ولكن هذه المرة لم أكن أضحك من عادل امام ، كنت أضحك فى الحقيقة فيما آلت اليه أحـوال ما كان يســمى بالرأى العام المصرى عندنا ، لقد كنا خلال القرنين الأخيرين منشغلين بكل قضايا العالم من معـارك روسيا مع اليابان تلك التى ألف فيها شاعرنا الـكبير حافظ ابراهيم قصيدة مطولة ، الى أقل شرخ يحدث فى مئذنة أحد مساجد استامبول وطوال خمسين عاما نحن مشغولون بالقضية العربية الى درجة

الالتحام المسلح والقتال ، فماذا بالضبط حدث لنـا ؟ اننى متأكد وأعرف ان كل مصرى ومصرية ينتفض جسده غضبا وغيظا مما تفعله حكومة الاحتلال الاسرائيلى بسكان قطاع غزة والضفة ، وأعلم أن الجميع ـ حتى الأطفال ـ يستنزلون اللعنات على جنود الاحتلال كلما رأوا منظرا كهذا فى النشرة مع انها نشرة مخففة جدا بالقياس الى نشرات الأخبار فى التليفزيون البريطانى (الذى يملك اليهود نفـوذا كبيرا فيه) والامريكى الذى يملكونه كله ٠

وأتطلع أنا الى رد الفعل العام فى مصر فلا أكاد أجـد حتى رد الفعل الوحيد الصادر عن نقابة المحامين لم اقتنع به تمام الاقتناع ، فهو مثل بعض الحكومات العربية لا يجـد أمامه الا الحكومة المصرية يلومها ويعنفها ويوبخها ويتهمها بالخيانة ويطابها بالغاء وتجميد كامب‌ديفيد وكأن هذا الالغاء هو الذى سيوقف تكسير وضرب وقتل الفلسطينيين فى الضفة وغزة ، ولقد كانت كامب ديفيد كارثة ، على الأقل فى شقها الفلسطينى بكل معنى الكلمة ، ولكنها عندى غير مهمة بالمرة انما المهم اننا ربطنا فيها وفى العجلة الاسرائيلية علنا أما ما حدث فى السر فقد كان أدهى اذ قد ربطنا وكأنما للابد بالعجلة الامريكية الاسرائيلية أيضا ، واصبحت اليد المصرية مشلولة تماما ، أقصد اليد المصرية الرسمية ، بل أصبحت محل سخط هذه الدوائر الفاجرة الأغراض ، وما محـاولة افشال رحلة الـرئيس المصرى الى أمريكا بهـذا الفتـور الامريكى وتوريطه فى مبادرة لم يقبلوها حتى هم أنفسهم الا مثل واحد على أنه لا الأمريكان ولا الاسرائيليون يريدون لمصر أو لرئيسها أن يقوى أو أن يعود يتزعم العرب كما هو الشىء الطبيعى تماما ، وانما يريدون لمصر ولرئيسها أن

تكون دائما مكسورة الارادة والجناح ، مجرد دولة عربية أخرى مثلها مثل أصغر دولة عربية تعدادها ربع مليون ، كيف ستحل هذه التبعية القومية القمحية السلاحية النقدية، تلك هي القضية الكبرى والاولى اذا أردنا أن نعود لان نكون أو تنمحي صفحتنا من الوجود ·

ولكني هنا لا أتحدث عن مصر الرسمية ·

انما أتحدث عن مصر الشعبية ، مصر الرأى العام القوى، المسمع دائما للعالم صوته ·

أين هو هذا الرأى العام ·

كيف لا تصدر نقابة الصحفيين بيانا الى كل نقابات الصحفيين فى العالم كله تستنهضهم ضد هذه الهجمة الهمجية الشرسة على اخواننا الفلسطينيين ؟

أين هو اتحاد الكتاب ـ وفى مصر والله العظيم تنظيم اسمه اتحاد الكتاب المصريين ـ أين صوته أين اتصالاته بأتحادات الكتاب فى العالم ، أين موقفه حيال قضية وقع على شجبها خمسمائة كاتب ومثقف فرنسى ونشرت فى كبريات صحفه ، أين هذا كله ؟

نقابة الأطباء ، نقابة الصيادلة نقابة الزراعيين والمهندسين والتجاريين والاداريين ، كل نقابات مصر ، سواء على مستوى المصنع أو مستوى المؤسسة أو المستوى القومى العام ·

ان النقابات هى القنوات الشرعية لايصال صوت الشعب الى الحكومة المحلية والى العالم كله ، فأين نقابات العمال ، واتحاد عام العمال ، أين جامعاتنا ـ باسم الله ماشاء الله

عشر جامعات أو تزيد ـ لكل منها اتحاد طلبة ونادى هيئة تدريس ، ورئيس ومجلس ، ومئات المئات من المدارس الثانوية والفنية ، لو أن ناظر كل مدرسة ومدرسيها وطلبتها أرسلوا برقية للأمين العام للأمم المتحدة ولرئيس مجلس الأمن وللرئيس ريجان أو حتى لشامير يلعنون سياسته ويتوعدونه بالويل والثبور لو أن هذا قد حدث لارتجت أبدان استعمارية كثيرة ولارتعشت يد رابين وهو يوقع الأمر بالضرب فى المليان ولكن شيئا من هذا لم يحدث ٠

ذلك لأننا شعب قد أمرضنا أنفسنا وتولوا هم اضافة الجرعات لمرضنا ، أمرضنا أنفسنا حين فصلنا بين الدين وبين الوطنية وحين أصبح الصراع يدور حول من المسلم وكيف يكون الاسلام ، وكيف تكون علاقة المسلمين بغير المسلمين ٠٠ الى آخره ٠٠

وهذا كان أعظم ما يطمع اليه الطغاة والبغاة فى كرتنا الأرضية ، أن يلتهى المسلمون بفتنهم الداخلية عن أن يواجهوا أعداء أى دين وكل دين أولئك الذين لا ملة لهم ولا أمان ، وحوش القرن العشرين ٠

ثم جاءت أحزاب المعارضة حين تكونت الأحزاب لتوجه مدافعها الرشاشة والثقيلة الى وزير الداخلية وضباط وزارة الداخلية ، ومع انهم يستحقون النقد على بعض ما يقترفون ، ولكن عدونا ليس زكى بدر وليس أبو باشا ولا مكرم محمد أحمد ، عدونا هو شامير وشارون وريجان الخاضع ورابين ، أولئك هم الذين كانوا يتوجب علينا أن نوجه لهم كل مدافعنا، فنحن لا نزال فى مرحلة تحرر وطنى، وهم لا يزالون المستعمرين بلا جنود ، ولكن بلقمة العيش

وقطعة السلاح والدولار والسياح ، استعمار من نوع جديد غريب لم يرد في الكتب ولن تجده في المراجع وانما هو ذا أمامنا في الحقيقة واضح وجلي وصريح ولا يحتاج الا لذى نظر وبصر ، ولكن أنظارنا مشغولة بالتفرقة بين الدجاج الأبيض والبنى ، وبين الأجور والارتفاع الجنوني في الاسعار ، وأزمة السكن وأزمة المواصلات ، وعمرنا ، طوال عمرنا ، نعاني من مشاكل الحياة في طفولتي كنا نأكل اللحم مرة كل شهر ومع هذا كنا نقاوم ونحارب ونتظاهر ضد الاستعمار والاحتلال غير محتجين أبدا بالفقر أو بالديون أو بالحاجة فقد كانت روح مصر لا تزال حالة في جسدها ولا تزال تغذينا بموتور من الطاقة الروحية على المقاومة ·

ولست أعني باستصراخي للمدارس والجامعات والنقابات أن أدعو الى مظاهرات تجأر وتملأ الشوارع وتتيح الفرصة للمتربصين بها وبنا لكي يعيثوا فسادا في الارض ، انما أدعو الى مؤتمرات تعقد في المعاهد العلمية والنقابات لها كل الجلال والخطورة تناقش وضع اخواننا الفلسطينيين الذين تتقطع لهم قلوب الناس في آمريكا نفسها وحتى في اسرائيل مؤتمرات، ليست موجهة ضد حكومتنا لكن تشتبك في صراع داخلي لا يفيد أحدا ، وانما باشراك رجال حزب الحكومة أنفسهم في تلك المؤتمرات وبالاشتراك في تلك المعارك السياسية ، حتما ستقل الفجوة ، فجوة العداء الى حد البطش من ناحية ولاستنكار الصارم من ناحية أخرى ، وبتقليل تلك الفجوة يمكن فعلا آن نتحدث بعد هذا عن حوار بين المعارضة والحكومة وعن حلول قومية حقا ·

أما أن تتطوح مصر الـ ٥٢ مليونا ويحمل الفنان عادل امام وحده ومن تلقاء نفسه ومعه مجموعة صغيرة جدا من

الفنانين عبء التعبير عن غضبة شعب مصرى يبصق فى وجهه دم كل يوم من قبل أعدائه ، ولا يصنع شيئا ، فذلك هو ما جعلنى أغرق فى الضحك حتى البكاء .

قطعة من ضمير مصر الحى

من بين الخطابات الكثيرة ، حين قرأت هذا الخطاب (طب) قلبى ، رعبا ، أو فرحا أو شعورا غامضيا لم أحس به من قبل ، لا أعرف ، أخذت الخطاب وطبقته بعناية ومعه الظرف والى أن عدت الى منزلى بعد ساعات طويلة كنت دائم الاحساس بوجود الخطاب فى جيبى يتحول ، من كلمات غريبة وكأنها رسوم الأراميين على معابدهم ، الى ما يشبه التعويذة ، الى شيء دافيء حميم وأنه قطعة من ضمير مصر تكورت داخل جيبى .

وقبل أى شيء آخر سأعرض لكم الخطاب ، وكنت أفضل لو كنت طبعته بالزنكوغراف لتروا كيف كتب ، لولا علمى ان كثيرين منكم لن يستطيعوا فهمه ربما لرداءة الخط أو اللغة أو حتى الهجاء ، ولهذا آثرت أن أتعب نفسى فى حل ألغازه ، وأنشره ، بنفس لغته .

الكاتب الحقانى يوسف ادريس .

باكتب لحضرتك الجواب ده ومعلش آنا ابتدائية قديمة وبافهم كلامك فى الجرنان لأنه سهل وحقانى وعلشان كده أسمع حكيتى (حكايتى) بيقولوا مين شاف منكر لازم يغيره بأيديه ولو مقدرش بلسانه ولو مقدرش بقلبه وده أضعف الايمان ، مش كده ، طيب ، آنا ممرضة وعندى بنتين

بيشتغلوا فى الشركة المصرية (... لا تؤاخذونى لم أذكر اسم الشركة لأنى أخاف على صاحبة الخطاب من الانتقامات الجبانة) بنتين ماجدة متجوزة ومبسوطة والثانية لسه مخطوبة واحنا ناس على أد حالنا ورأس مالنا جمال البنات وشرفهم وبعدين بنتى الصغيرة مرة جت تعيط وتقول بأن زميلتها اللى بتشتغل فى قسم الهندسة وان مهندس كهربا فضل يعاكسها وهى تصده لغاية ما ضحك عليها وهى متجوزة من مدة بسيطة وأخذها يوصلها لبيتها لأنها سكرتيرة معاه وراح جنينة (....) وهناك هجم عليها وصدفة شفهم البوليس وهى بتصرخ وبقت قضية ، البنت اترفدت وطلقها جوزها وهى كانت بتصرف على أمها لأنها يتيمة اتظلمت أما اللى ضحك عليها فادارة الشركة نقلته لحتة تانيه فى المخازن وبعدين جه مدير عام صاحبه قوى أول حاجة عملها انه بالرشاوى والهدايا رجعه مدير زى ماكان وعشان البنات بيشتغلوا بعقد ٦ شهور بس يتجدد لو وافق مدير عام الهندسة الاثنين يستغلوا الفرصة من غير ضمير مع البنات ضد الأصول والدين والقانون وبعدين جه خطيب بنتى وهو مهندس كبير بالمراكب وكان غلبان زى حالنا وبعدين لقيته بيجيب هدايا بهبالة وكثير قوى وبعدين اشترى عربية بلونور (بولونيز) قلت منين الفلوس دى كلها ضحك وقال شيلنى واشيلك فقلت له يعنى ايه ، مخدرات ؟ ضحك وقال لا أنا باشتغل فى مراكب البحر الأحمر ومفتش هندسى (...) مريض بالفلوس وكل حاجة النص بالنص وكل الهدايا لما بطلبها بيكون جايبنها وكل الاصلاحات أو أى حاجة عايز أشتريها من بره وكله بثمنه قلت له مش فاهمه قال مدير عام الهندسة جاهز وبيوافق على اللعب مادام شيلنى وأشيلك فقلت : بس ده مال حرام ده مال حرام والمراكب والناس اللى

فيها ممكن يجرا لهم حاجة ضحك وقال ، هو حد حاسس أو شايف ما هو المراكب بتتعطل وأدى مركب الطقم محبوس فى ألمانيا علشان الحاجات لما ركبوها كانت خسرانة والسرقات شغالة على ودنه هو آنا بس تعالى شوفى زمايلى عندهم عربيات وفلوس وعمارات زى الرز والبركة فى المدير الجديد ·
وحضرتك يا دكتور هل يرضيك قلة الشرف والنصب ده وفين المباحث والوزير، أنا ح أفك خطوبة بنتى لأن ده مال حرامى بس ما أقدرش أخليها تسيب الشغل لانها بتصرف علينا وأبوها ميت ، بس هى خايفة ليجبرها على الرذيلة أو يضحكوا عليها وتبقى فضيحة أرجوك احمينا قبل ماتقع الفاس فى الراس السلام ·

الحاجة أم هاشم
بلوك المساكن الشعبية (.....)

انى آسف انى أخفيت عن عمد بعض التفاصيل والأسماء ولكن الخطاب عندى وتحت تصرف السيد سليمان متولى وزير النقل والمواصلات ·

ولكن حتى وزير النقل لن يستطيع حمايتك يا سيدتى فالفساد قد استشرى فى بعض القطاعات الى درجة يعجز أى وزير بشرى عن ايقافه ·

بل وأنا أرفع هذه الكلمة الى الرئيس محمد حسنى مبارك لا أرفعها نيابة عنك وانما أرفعها نيابة عن كل سكان البلوكات والعرب والقرى والشقق عن كل الذين لم يدخلوا بعد فى (اللعبة) عن الذين لا يزالون يصرون أن يعيشوا بشرف وفى شرف ، عن الخائفين على أولادهم وبناتهم من عصر قادم يأكل الناس فيه بعضهم بعضا ويتحولون الى ذئاب بشرية لا ترحم أحدا ·

نعم الفساد يا سيادة الرئيس موجود بشكل ويأتى فى الادارة الحكومية والقطاع العام وحتى الخاص وهو فساد لست أنت صانعه ، انما بلاء حتى فى ظل الثورة وحكم الرئيس جمال عبد الناصر ، فلقد سمعته مرة فى خطاب عام يقول ، اننى حينما أضع ميزانية لمشروع أعرف ان ١٠٪ على الأقل منه ستذهب سمسرة وسرقات ، ولقد روعتنى الكلمات حقا أن يصرح رئيس الجمهورية بانه غير قادر على ايقاف السرقات وأى رئيس جمهورية ، وجاء عصر ما بعد عبد الناصر لتزيد الـ ١٠٪ أضعافا مضاعفة ٠

ولكن قلب مصر الحقيقى يا سيادة الرئيس لا يزال سليما وضميرها لم يدخله الغش بعد ، والحاجة أم هاشم ليست سوى قطعة مجهولة من ذلك الضمير الذى أعلم انه موجود وانه حى وانه قادر نعم ان الخير لا يزال فى مصر أكثر بكثير من الشر ، كل ما فى الأمر أن الخير ضعيف جدا لأنه خير الذين لا صوت لهم ولا مال ، والشر عال مشهور لأنه شر المزودين بالمال والمشترين للذمم تصور يا سيادة الرئيس ان المرأة القادرة الحديدية لا تزال تحيا فى مصر ، وتذهب الى أى سوبر ماركت وتشترى وينحنى لها كل الموظفين مع انها مطلوب القبض عليها ومقدمة للمحاكمة وهاربة انها تستطيع وقادرة أن تشترى حريتها حتى لو حكم عليها بالسجن المؤبد لأنها تملك المليارات ٠

وفى خطبك يا سيادة الرئيس توجه نقدك اللاذع لصحف المعارضة ، والمعارضة السياسية لبعض خطواتك ، ولكننى أرجوك يا سيادة الرئيس ولو من أجل أولادك الذين سيحيون فى هذه الذات المصرية أن ترى العين الحمراء مرة لهذا السرطان المستشرى فى الآلة الحاكمة المصرية أن تتحرك

أجهزة التفتيش والقبض والتقديم للمحاكمة أن يعاقب كل مختلس أو تعاقب ادارة بنك أقرضت بغير مستندات أن يحدث شيء أي شيء يوقف هذا الزحف الشيطاني الكاسح .

والى أن يحدث هذه فيا سيدتي الحاجة أم هاشم حسن ما فعلت بفسخ خطبة ابنتك ، وثقي انها لم تمس، بشعرة . ولو حدث ، فسأحمل أنا بنفسي القضية الى السيد وزير النقل وربما الى النائب العام .

بلا سبب واضح آحسست ان روحى قد بلغت الحلقوم، ولا يتسرع القارىء ويتصور انها حالة سببها الأحوال العامة التى تجتاح مصر هذه الأيام ، فأنا آعرف انها أحوال عارضة تماما ، وان سببها آيضا مثل السبب عندى يرجع الى حالة من الزهقــان الغــريب » التى قد تدفــع لأى تصرف ، من اطلاق الرصاص ، الى اطلاق السباب ومن الحكومة والمعارضة على حد سواء ٠

وليست هذه الحالة وليدة اليوم آو هذا الأسبوع ، بل انها كانت تنتابنى وأنا فى طريقى للاجتماع الذى عقــده الرئيس حسنى مبارك مع الكتــاب والاعلاميين ، والحق ان الرئيس حسنى مبــارك فاجأنى ، كما لابد فاجأ الحاضرين جميعا فيومها صباحا آو فجرا ، كان خبر اطلاق الرصاص على صديقنا العزيز مكرم محمد آحمد قد استفزنا جميعا ، نحن الذين لا نملك سلاحا للدفاع آو الهجوم الا أقلام حبر متواضعة ٠٠ وكنت آتصور ان الاجتماع سيكون محوره هو هذا الحادث الفريد فى تاريخ مصر ، وآن الرئيس سيكون فى روح معنوية مكتئبة لابد ٠٠ ولكن الرئيس بدأ كلامه

معنا وهو فى روح معنوية عالية لدرجة انى وجدت نفسى أول الأمر فى حالة استغراب كامل ، وقلت : ربما الرئيس يريد أن يزيح عن عيوننا ووعينا هذه السحابة الداكنة ·· ولكنه لم يكن يفعل هذا ، كان فعلا يتحدث حديث مصرى ابن بلد ، يرى المشاكل فى حجمها الطبيعى أو حتى حجمها المصغر حتى يحس انه أكبر منها ، ويرى المستقبل أكيدا وقادما ·· ومزدهرا ولا ريب فيه ولا شك والحق ان حديثه هذا عدانا فما لبثنا أن أجلنا انفعالنا بما وقع وانخرطنا فى نقاش حول مشاكل مصر الكبرى معه ·· ولقد تخيلت وأنا أستمع وأناقش ان هذا الرجل هو بالضبط ما تحتاجه مصر ليقودها فى هذه الأيام حمدا لله انه ليس فى عصبية هذا أو عدوانية ذاك ، وان باله طويل طويل ، وأعرف ان هناك مثلا شعبيا يقول : طول العمر ينيل الأمانى ، ويبدو أن الأمر كذلك أيضا فى مسألة طول البال فربما طول البال هو الذى سيضع الجسر الذى تعبر عليه مصر من أزماتها ، ولكنى ـ وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من هذه الصراحة ـ أحس ان طول بال الرئيس أطول كثيرا مما يجب أحيانا ، على الأقل أطول من استطاعتنا نحن كشعب وككتاب على طول البال ، وربما هذا هو الخلاف الوحيد بين بعضنا وبين الرئيس مبارك ـ خلاف « كمى » فى طول البال ، وأبدا ليس خلافا « كيفيا » على حل المشاكل ·

أقول ـ وجدت نفسى فى الأسبوع الماضى فى تلك الحالة التى ذكرتها لكم عن « الزهق » ، « بالصدفة » المحضة كنت أقرأ مقالة صديقى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد فى الوفد فوجدته يتحدث عن نفس الحالة من الزهق ، وانها ألجأته الى التاريخ ، وبالتحديد الى قصيدة شوقى فى رثاء أدهم باشا

التركى ، كانت تغريبة اذن تغريبة تاريخيـة ليتخلص من حالة الزهق ولكن لأن التاريخ يزيدنى زهقا على زهق ، فقد آثرت أن تكون تغريبتى جغرافية ٠

وهـكذا ركبت العربة ومعى العـائلة وانطلقت شمالا ، ولم أذهب الى الاسكندرية هذه المرة ، اندفعت غربا الى ما بعد الاسكندرية ، كانت جغرافية مصر الشمالية تنتهى عندى حول العجمى والمكس والدخيلة ، هذه المرة قلت لنفسى سأظل أسير فى هذا الطريق المزدوج الجميل الى أبعـد مدى ممكن أن أصله ٠٠ وفعلا هو طريق مزدوج ـ وجميل فالى سنين قليلة ربما الى العام الماضى فقط كان طريقا من أسوأ الطرق فى مصر ضيقا مكدسا بعربات النقل هائلة الضخامة والكارو والمارة والصيادين وفناطيس الغاز وكل ما يخطر على قلب بشر ٠٠ هذه المرة وجدت اتجاهين حديثين جدا ، ربما انتهى منهما هذا العام فقط ، وكنت أتصور ان مجلس اسكندرية المحلى هو الذى فعل هذا ، لكن عرفت من الأستاذ عبد الله محمود رئيس مشروعات الشاطىء الشمالى آن وزارة الاسكان والمجتمعات الجديدة هى التى قامت بانشاء هذا الطريق والحق انى كنت أسمع كثيرا عن وزارة الاسكان ٠٠ والمجتمعات الجديدة ولكن ، ربما لأنى كنت أحيا فى القاهرة المخنـوقة المزدحمة كنت أحس انها وزارة تكاد تكون وهمية أو نظرية عـلى الأقل ولـكن حبى للسـفر جعلنى أبدا أرى آثار تلك الوزارة وذلك الوزير النشيط المهندس حسب الله الكفراوى من مدينة ٦ أكتوبر الى العاشر من رمضان الى السـلام الى الصالحية الى المشروعات الجديدة فى تلك التى وجدت محافظا عسكرى القدرة على التخيل والتنفيذ اللواء يوسف عفيفى بمشروعاته السياحية فى منطقة البحر الأحمر ناهيك عن

المشروعات فى محافظتى شمال وجنوب سيناء ، هذه كلهـا جعلتنى أعتقد اننا انكفأنا على مدننا القـديمة ومشـاكلها بطريقة جعلتنا لا نكاد نرى العمران الذى يحدث فى أماكن من مصر لم نلتفت لها قبلا وكأننا لا نعتبرها جزءا من مصر أو انها ملكنا .

هـذا السـاحل الشـمالى مثلا صـحيح ان الأجانب والدبلوماسيين هم الذين اكتشفوا فكرة مصيف العجمى حيث يستطيع الانسـان أن يتحرر تماما من ملابس المدن ونفاق المدن ويترك نفسه للشمس والبحر والهواء الجميل والطبيعة وسواحل هى أجمل ، أجمل شـواطىء العالم ـ وقد زرتها كلهـا من ميـامى بيتش الى بلاجات تايلاند ، وكابـرى ونيس .. هذا النوع من الرمال ، هذا الانحدار التدريجى نحو الماء ، هذا اللون الأزرق الفستقى لمياه البحر ، هـذا كله لا يمكن أن نجده الا فى شواطىء البحر الأبيض الجنوبية وأجملها جميعا الشواطىء المصرية من مرسى مطروح الى أن تبدأ ضواحى الاسكندرية .. ومن المضحك هنا ان نذكر ان شاطئا رائعا كشاطىء مرسى مطروح لم نكتشفه الا عن طريق السينما وعن طريق فيلم ليلى مراد الشهير شاطىء الغرام .. ولولا هذا الفيلم ، ولولا السينما ، والآن لولا التليفزيون لما زادت معلوماتنا عن بلادنا عما كنا قد قرآناه عنها فى كتب الجغرافيا .

المهم ـ بدأت الرحلة زهقان كما قلت ويا للأثر الساحر للطبيعة فى تغيير معنويات الانسـان ومزاجه ، كان أحـد أسباب زهقى لابد هو ضيق الفتحة التى نرى منها حاضر مصر ومستقبلها وواقعها .. ونحن نرى هذا كله من خلال وسائل اعلامنا ، ولأن تلك الوسائل قد ضاقت نظرتها هى الأخـرى

حتى ليكاد الانســان يحفظ ماذا ســتحتويه كل صفحة من صفحات الجريدة ، وماذا سيكون عليه البرنامج فى كل ليلة وفى كل قناة من قنوات التليفزيون ، حتى برنامج « خمسة سياحة » رغم جمال فكرته وتنفيذه وتقديمه الا آن هــذا البرنامج لا يجعلنى « آعيش » المنطقة التى يتحدث عنها ، وأشمها وأفتح صدرى لهوائها وتاريخها وأستنشقه ، لماذا يكون « خمســة » أى خمس دقائق كل يــوم لا تكفى حتى ليتعرف الانســان على كنه المكان ، لماذا لا يكون برنامجــا أسبوعيا معدا اعدادا جيدا وحافلا بالمعلومات وبالاخراج المتقن للطبيعة وللناس وللآثار ان وجدت ‥ هذا الساحل الشمالى ، بودى لو كان معى كاميرا فيــديو لأصنع للنــاس شريطا كاملا « للخروج » ، الخروج من الوادى الضيق والمدن المكدسة والأحياء الشعبية المعلبة بسردية البشر، هؤلاء الناس جميعا لو رأوا بلادهم على حقيقتها آو على اتساعها ، لو رأوا كم تمتد شواطئها كم ونوع الحياة الكامنة حتى فى صحرائها، لو رأوا مشروعات الوزارة فى واحة سيوة مثلا ، هل عندنا فيلم تسجيلى كامل لكل واحة من واحاتنا ؟ ، فيلم « فنى » يقوم به مخرج كبير كصلاح أبو سيف آو على بدرخان آو على عبد الخالق أو العظيم يوسف شاهين ‥ ؟

أجل ــ الخروج ليس من الأزمة ولكن من الوادى الضيق للأزمة ، ذلك الذى طالما نحن محشــورون فيه فاننــا أبدا لا يمــكن أن نرى الحــل من خــلال نظرتنا التى ضاقت به وضاق بها ٠

لقد رحت أحلم والعربة تنســاب فوق الطريق الطويل لا أحلم فقط بمستقبل القرى الســياحية من مارابيللا الى مارينا لماذا هذه الأسماء الايطالية ؟ الى مدينة وزارة الخارجية

الى المشاريع الخاصة ـ بالمناسبة هناك مدينة سياحية للصحفيين موجودة فى مكان ما على الشاطىء الشمالى وحصلوا من كل منا ألف جنيه وزيادة كوبون ، ولا يوجد لها من أثر لا فى الحقيقة ولا فى الخريطة ـ أقول ، رحت أحلم بشىء كالذى صنعته اليونان بشواطئها الصخرية الناتئة فلقد عقدت اليونان صفقات رابحة مع شركات عالمية لانشاء سلسلة من أجمل الفنادق والمنتجعات على جزرها المتعددة ، وايراد اليونان من هذه المشروعات هائل الضخامة ، فقد كنت فى جزيرة صغيرة من جزر اليونان اسمها « كورفو » وعددت ٨٥ رحلة طيران فى الليلة الواحدة منها واليها ، وشواطىء هذه الجزيرة « مصنوعة » أى أن الرمال منقولة لها من قاع البحر فما بالك برمالنا وشمسنا ومياهنا الفستقية الطبيعية ؟!

أني أرجو أن يكون مشروعا أساسيا من مشروعات مصر للمستقبل العاجل والقريب أن ترصد ما لا يقل عن المليار جنيه لمشروعات الساحل الشمالى لتزويده بشبكة أدق من الطرق والكهرباء والمياه والمطارات وانى متأكد من ان هذا المليار الواحد يستطيع على مدى السنوات العشر القادمة أن يسدد عشرين مليارا من ديون مصر الخارجية وأن يحيى «بلدا» كاملا من جغرافية مصر المهملة اسمه الساحل الشمالى .. شكرا لهذا الوزير الذى أنشأ ميناء دمياط وأحيا الساحل الشمالى وعمل المثير فى صمت ودون اعلانات مدفوعة الأجر أو غير مدفوعة ولا أشكره فقط على هذه الأعمال الكبيرة ولكنى أريد أن أشكره لسبب شخصى ذاتى محض فقد خرجت من القاهرة متجها شمالا وروحى قد بلغت الحلقوم وعدت اليها وقد ردت الى الروح رغم انى لم أمكث فى الرحلة كلها أكثر من أربع وعشرين ساعة .

أستاذى وصديقى ومعلمى فى الوطنية والفنية والتقدمية مدحت عاصم .. نعم كما قلت لقد كان شرفا أن ألقاك طالب طب يخجل من خياله ، وانت الموسيقار المشهور ملء السمع والبصر ، وأخذت أستمع لك فى منزلك فى العباسية وانت تعزف سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن ثم قطعة موسيقية لك وكنت أول مرة أستمع فيها الى موسيقار كبير مصرى يعزف على البيانو من يومها وتلك العلاقة الفنية الوثيقة التى بنيت على أسس وطنية وثورية وألفة شخصية تثرى حياتى وتجعلنى كلما رأيتك أرى ان مصر لا تزال بخير .

قرأت لك ما كتبته ردا على « نقدى » للتليفزيون ، واعتبارك ان ما قلته كان تحاملا منى على برامجه وعلى الجهود الكبيرة التى يبذلها الكثير من أبنائه مع رئيسته ومسئولى قنواته .

وأذكر لك أيها الصديق العزيز انى أستطيع أن أزعم ـ فى هذه النقطة بالذات ـ انى أكثر منك اتصالا بالعمل اليومى فى التليفزيون ، وما يتطلبه من جهود خارقة ويقظة وانتباه لنملة الخطأ اذا حدثت .

ولكنك ظلمتنى وأعتقد انك ظلمت التليفزيون أيضا .. فانا لم أكتب « لأنقد » برامج التليفزيون ، صحيح انى قلت ان معظمها « هلس » وكنت أعنى بالهلس هنا اللعب على تسلية الجمهور ونفاق طلباته من مسرحيات معادة وكوميديات لا تضحك .. الا الابله أو المتخلف عقليا وآخرها مسرحيات عبقرى العباقرة محمد نجم ذلك الذى ظللت ـ والله ـ أتفرج

لمدة نصف ساعة عليه وهو يحاول استدرار الضحك من جمهور غلبان مسكين فرض عليه فرضا وأنا مذهول كيف يمكن أن يسمح التليفزيون بعرض هذا التخلف على الناس. وأيضا أنا هنا لا أنقد ، فهكذا هي الحركة المسرحية للقطاع الخاص وهذا هو المسرح في نظر البعض ٠

انى انما كنت في الواقع أتحدث عن التليفزيون «كجهاز» أصبح دوره في كل أنحاء العالم هو الارتفاع بمستوى تفكير وذوق وأحلام الانسان العادى ٠٠ فزمان كانت الثقافة لا توجد الا في الكتب وكانت هي التي ترفع الذوق والمعرفة والذكاء ثم انتقل هذا الدور الى الصحف ثم الاذاعة وأخيرا هذا الوحش الاعلامي الثقافي العلمي الترفيهي التليفزيون ٠

واذا كان التليفزيون كوسيلة تعليم واعلام مهم جدا في بلاد العالم الأول فهو قد أصبح بالنسبة للعالم الثالث الذى نحن منه مسألة حياة أو موت بمعنى أدق مسألة حياة روح هذه الشعوب أو قتلها واستعمارها ثقافيا وفكريا وحضاريا ٠

ولهذا كنت حريصا في كلمتى عن التليفزيون على القول انى لا أنقد برامج هذه الأيام ولا دور التليفزيون هذه الأيام وانما أنا أذكر دوره منذ انشائه وقيامه والى الآن ، وهو دور كان ولا يزال الى حد كبير يمثل دور « البلياتشو » الذى يزغزغ الناس ويرفه عنهم ويضحكهم وكنت أريده الى جانب هذا أن يقوم بدور المعلم ، المعلم لا بالتلقين وانما بالامتاع ودور المثقف ليس فقط ببرامج الأستاذ فاروق شوشة المتخصصة الشيقة وانما ببرامج كلها ثقافة ولكنها لا تخيف الناس بقولها انها برامج ثقافية ، واذا أردت أن تعرف ما أعنى بالضبط فاني أرجو من التليفزيون ــ ان استطاع ــ أن يسجل يوما بأكمله من ارسال التليفزيون البريطاني ،

أو حتى الهندى ، وأن يذيعه علينا مترجما لنرى الفارق ٠

نعم ٠٠ ان التليفزيون هو أخطر وسيلة اكتشفتها البشرية الى الآن فى صناعة وصياغة الرأى العام وحتى المواطن الخاص ، والتعامل مع هذا الجهاز يجب أن يتم من منطلق الادراك التام لخطورته الشديدة فنحن مثلا لو كنا قد عملنا تحقيقا تليفزيونيا صريحا عن حالات الغش الجماعي ومع الأساتذة الذين طعنوا بالمطاوى ، ومع الطلبة ، لاجتثثنا هذا المرض بأكمله دون أن نذكر نصيحة واحدة ٠٠ اذ هكذا يستعمل التليفزيون فى المجتمعات الأكثر ذكاء فى استعمال التليفزيون والمدركة لخطورته وأهميته ، والتى تستخدمه كوسيلة عظمى للترقى والتمدن والتحضر ، ولهذا كنت أنقده منذ انشائه ٠

ولأنى وجدته لم يصنع شيئا طوال أكثر من خمسة وعشرين عاما الا انه رفه عنا قليلا وفى المقابل فرض علينا فكرا متخلفا وخرافات وديماجوجية ، أرأيت الى هذا العالم الذى قال منذ أسبوع مضى ، اذا رأيت حلما سيئا فابصق ثلاث مرات الى اليسار حين تصحو من النوم ، واذا رأيت حلما حسنا فابصق ثلاث مرات الى اليمين لدى صحوك من النوم ، أى ثقافة تلك بربك ، أى مفهومات للحياة يرسيها هذا الجهاز، أى كارثة يتعلمها الطفل والمراهق والشاب الذى يأخذ ما يشاهده فى التليفزيون على انه قول لا يناقش ولا يمكن أن يشك فى صحته ٠

ولهذا أيضا فنحن أمام هذا الجهاز بعد ربع قرن من انشائه فى حاجة الى وقفة لابد تنتهى بعد نقاشنا حولها الى وضع سياسة اعلامية تليفزيونية ثابتة يكون الهدف منها أن

نرتفع بمستوى الشعب ثقافيا وصحيا وعلميا وتعليميا خلال السنوات الخمس القادمة بمقدار لا يقل عن ٥٠ فى المائة زيادة على مستوانا الآن ٠

أيها الصـــديق العزيز ألازلت تختلف معى وتقول ان قلمى قد (شطـ) ؟

انـنا نختنق .. نختنق

الساعة الثالثة بعد الظهر ، نقطة التلاقى بين شــارع الجلاء الذى توجد به الاهرام وبين شارع ٢٦ يوليــو نقطة عبثية تماما وكأنها منتزعة من فيلم تسجيلى عن يوم القيامة، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، أو بالمعنى المعاصر يوم يفر راكب الدراجة من راكب الموتوسيكل من السائر هائما على وجهه من ديناصورات النقل الـكبيرة و « التريللات » الساحبة وراءها مركبة لا تقل عنهــا ضــخامة من عربات السوزوكى والتيوتا ورمسيس وعربات الأوتوبيس والعربات الخاصة وأبدا لا يتوقف المرور فى الاتجاهين معا ، والشاطر هو الذى « يدخل » على الثانى وقيادة الســيارات بالدراع وبأعلى « سارينة » وبالخبط فى الجنب أو فى الاكصدامات ، ويا ويل العابر على قدميه أو راكب الدراجة فحياته ممكن لو لم يستعمل كل بهلوانيته وسرعتــه ، لو كان مريضا أو كبير السن ، لو كانت سيدة بدينة ممكن أن ترتفع الى بارئها فى لحظة ، والغريب انه لم تقع حادثة دموية واحدة فى هذا التقاطع طوال السنوات العشر التى استعمله فيها عائدا الى

منزلى ، وليس هذا بالطبع لحسن ادارة عسكرى المرور المسكين القادم لتوه من التجنيد الاجبارى، وانما لأننا نحن القاهريين قد علمتنا سنوات التدفق السكانى والازدحام غير البشرى ، أنماطا كثيرة للسلوك البهلوانى والاتكالية والضرب عرض الحائط بمخاطر عبور الشوارع والميادين، ناهيك عن القدرة على النفاذ بين عربتى نقل مخيفتين أو عربتى أوتوبيس تكادان تتلاصقان بحمولتيهما البشرية الضخمة المهم انى لا أكتب هذا انتقادا لحركة المرور فى هذا التقاطع فقد كان مفروضا أن تحل من زمن كبير ، وكان مفروضا أن يكون أول نفق تحت الأرض ينشأ فى مصر ان ينشأ فى ميدان الاسعاف ويشمل بالتالى تقاطع الجلاء مع ٢٦ يوليو فتلك المساحة ، أو اللامساحة ، هى أكثف حركة مرور فى القاهرة كلها .

ولكن بما ان القاهرة الجديدة كلها قد نشأت عشوائية بلا أى استعانة بعلم تخطيط المدن « وهو من أهم العلوم الهندسية ، وموجود فى كلياتنا ولكن كل خريجيه بلا استثناء يهاجرون الى البلاد التى تخطط مدنها فعلا لدرجة انى قابلت مرة ثلاثة مهندسين حاملين للدكتوراه فى تخطيط المدن يعملون في مدينة بوسطن الامريكية ، واحدة من أجمل مدن العالم تخطيطا ، بينما قاهرتهم فى مجاعة شديدة لهذا النوع من المهندسين ، ولكن شئوننا البلدية والقروية لم تكن تحفل بالتخطيط وحين انتقل الأمر الى محافظة القاهرة والى رؤساء الأحياء فسدت الأمور أكثر وأكثر ، ولولا ان قيض الله أخيرا للقاهرة محافظا واسع الأفق والتفكير ، عارفا وقادرا على عمله بلا أى كلل أو تقاعس هو اللواء يوسف صبرى أبو طالب ، وبدأ يذيقنا بلمساته معنى أن تكون المدينة

مخططة ، وأن يكون لكل حى حديقته ولم يبق الا أن يعـود لكل شارع أرصفته ولكل عمارة أمكنة انتظارها .

أقول لا اكتب هذا انتقادا لحركة المـرور فى تقـاطع الجلاء ـ ٢٦ يوليو، ولكنى أكتبه للمنظر الذى رأيته وشممته واختنقت به ، ولا أزال أفعل كل يوم الساعة الثالثة كمـا سبق وقلت ، وحركة المرور على أشدها ، موظفون عائدون راكبين وراجلين وأوتوبيسات سردينيـة المحتوى هرقليـة الحجم والجثير وعربات نقل .. الى آخره ، كنت واقفـا فى اشارة المرور ، احتراما للاشـارة التى لا يريد أحـد أن يحترمها ، أحاول أن أرى من خلال زجاج السيارة ان كانت الاشارة فتحت أم لاتزال حمراء ، وفجأة تبينت ان هنـاك ما يشبه العاصفة الرملية أو الترابية بالكاد أستطيع أن أرى من خلالها ، وفتحت زجاج السيارة لأرى المنظر على حقيقته، وكم روعنى ما رأيت ، فلا يوجـد ماسـورة عادم لعـربة أوتوبيس أو نقل أو ميكروباص أو تاكسى قديم الا وهى تنفث نافورة أفقية من الدخان نتيجة اختلاط كيروسـينها بزيتها أو بديزلها ، دخان دخان دخان ، لا يملأ الجو فقط ، ولكنه يخنق التنفس ، ويثير مع التراب الكثير الذى يحفل به الشارع سحبا متجمعة متضاربة منتشرة الى الجوانب والى أعلى واصلة الى كل حلق وفتحة عين .

يا الهى ، لكأننى فى قاعة فرن فلاحى قد سدت منافذها وأغلق بابها وقد امتلأت بدخان الحطب المندى .

ربما الذى دفعنى للاحساس بذلك المشهد المهول الذى لا يمكن أن يحتمله أحد هو اننى كنت عائدا لتوى ، ليس من لندن أو باريس ، وانما من قلب أفريقيا ، كينيا ، وتنزانيا،

والصومال ، وأفريقيا بلاد أفقر منا بكثير ، ومعظم شوارع ممباسا أو دار السلام ليست مرصوفة وانما هى مسواة على حالها الترابى ، ولكن ليس هناك تلوث بمثل هذه الكثافة الخانقة ، أذكر انى كنت فى نيروبى ، وكنت فى طريقى لاتحاد الكتاب الكينيين وكنت أستقل عربة تاكسى ، وكان سائقى اسمه ايليا ، وكان مسلما ، ولما سألته عن هذه المعادلة الغريبة ، قال لى : فى عهد الاستعمار لم يكن يسمح بدخول المدارس الا للمسيحيين فقط ، ولهذا كان كثير من المسلمين يسمون أولادهم بأسماء مسيحية ، كاثولوكية فى الغالب ، ليمكنهم دخول المدارس ، وانه بعد جلاء الاستعمار بدأت كثرة من تلك العائلات فى العودة الى تسمية أبنائها بأسماء اسلامية ٠

لا أريد أن أطيل ، فأثناء دردشتى مع السائق بدأت العصبية وكثير من الغضب يحفل بهما صوته، ثم نطقها وقال: هذا السائق الملعون ، ونظرت فرأيت أمامنا سائق عربة نقل ، وكانت العربة هى الوحيدة التى « يفوت » موتورها وينفث دخانا نتيجة اختلاط الزيت بالبنزين داخل المحرك، تلفت حولى فاذا بنا نسير داخل غابة خضراء يانعة يقطعها هذا الطريق الرفيع ، والغابة كما نعرف تولد الاكسجين ، ومعظم كينيا وشرق أفريقيا غابات خضراء شاسعة ، ومع هذا ونظرا لاحتمال زحف التصحر ، من الصحراء ، مع سنوات الجفاف الطويلة ، فقد بدأت كينيا منذ ثلاث سنوات مشروعا اسمه مشروع الشجرة ، اذ يزرعون كل يوم مائة شجرة جديدة ، داخل بلاد تحفل بغابات وغابات من الاشجار كل هذا خوفا على البلاد والمدن من تلوث الهواء ٠

وصل الغضب بايليا أقصاه ، وبدأ محاولات خطرة

مستميتة لكى « يعدى » عربة النقل التى تنفث دخان الزيت وهو يصرخ ، تلوث .. تلوث ..

.. هذا السائق البسيط يرعبه هذا التلوث ، ويعرف معناه بالانجليزية فى بلاد لا تكاد تحفل بأية آثار للتلوث ؟! المضحك انى عرفت من سفيرنا فى كينيا الصديق محمود عثمان ان فى كينيا بعثة لدراسة البيئة والتلوث يرأسها الدكتور مصطفى ، واحد من أعظم خبراء البيئة والتلوث فى العالم ، وموفد هو والبعثة لدراسة التلوث فى حديقة أفريقيا .. كينيا .

أليس هذا ظلما يا الهى ما بعده ظلم ، يعنى ننتج نحن الشعب المصرى أكبر خبراء العالم فى التلوث ، وتحفل قاهرتنا الحبيبة بأعلى نسبة للتلوث فى العالم الى درجة انها وصلت فى بعض الأحياء ، وبالطبع لابد انها كذلك فى تقاطع ٢٦ يوليو مع الجلاء ، وصلت الى درجة ألف فى المائة من الحد الأعلى للتسمم التلوثى .

كل هذا ونحن نتنفس التلوث ونبتلع الذرات الخانقة ، وتمتلىء رئتنا بعادم النقل والأتوبيس ، والمرور لا يفتش أبدا على العادم ، يكفيه البوية ورقم الشاسية والموتور ، ويتم الكشف على المركبة . بينما العادم يترك ليضخ فى شوارعنا وصدورنا ملايين الأمتار المكعبة من الزيت العادم ناهيك عن التراب وبقية ما تثيره الرياح من قاذورات ، كل هذا وثمة مؤتمر للبيئة ، مؤتمر عظيم مهول آسفت تماما اننى لم أتابعه بنفسى شخصيا انعقد خلال بضعة الأسابيع الماضية لدراسة التلوث البيئى فى مصر ، وتلوث مياه النيل، والتلوث الصوتى الناتج عن استعمال الميكروفونات وبقية الضجات الصادرة من الشارع المصرى بطريقة لا يمكن أن

تحتملها أى أذن بشرية ، واذا احتملتها فلابد أن تصيب العقل الذى يسمعها بالصمم أحيانا ، وبارتباك الوظائف وبالانعدام التام للقدرة على التركيز أو انجاز النشاطات العقلية الواجب القيام بها .

لهذا انت ترى المواطن فى شارع القاهرة ثائرا يلهث من قلة الأوكسجين تائه الوجهة والتركيز من ضجة الأصوات والميكروفونات سريعا ما يصيبه الكلل والتعب ، نافذ الصبر، بطىء الحركة ، مصابا بما أسميته (التولة) غالبا ما ينتهى أمره الى كلفتة عمله ، أو الانهيار جلوسا على قهوة ، أو أمام مكتب وارم القلب والعقل يلهث بلا تعب ويعرق بلا أى مجهود ، ويقصر عمره ويزداد وزنه من قلة الحركة والنشاط فهو يعيش فى جهنم مليئة بالتلوث ، والدخان ، والغبار ، والضجة الخرافية تحاصره ولا حفنة من هواء نقى ، أو هدوء ، يستطيع معها أن يلتقط أنفاسه أو أنفاس عقله ويعود كائنا بشريا يصلح بما يصلح له أى كائن بشرى فى أى مكان آخر من العالم .

لقد أصبحت الحياة فى قاهرتنا الحبيبة مع كل ما تحفل به من تلوث فى الجو وفى الماء وفى الأصوات ، أصبحت ، معجزة العالم الثامنة لابد ، فانى لأكتب هذا وأتساءل : كيف بالله مازلنا نحيا ؟

وأعقبه بتساؤل آخر موجه الى حكومتنا : كيف تحكمين الناس والبلاد وهى تحفل بهذا الكم من التلوث ؟

لماذا الطب مقدس ؟

حسن جدا بادرت بفعله نقابة أطباء القاهرة والنقابة العامة للأطباء من احالة الدكتور أحمد شفيق الى مجلس تأديب لخروجه على المادة الثامنة من آداب مزاولة مهنة الطب . ذلك أن مهنة الطب لها وضعها الخاص بين مختلف المهن التى يزاولها الانسان . فالطبيب ليس مجرد مهنى آخر يزاول مهنة أخرى كالهندسة أو التدريس . الطبيب مهنته صيانة روح وجسد الانسان . وانت حين تذهب للطبيب تسلم نفسك تماما له ، بحيث تؤمن تماما بما يقول ، وتستسلم لمبضعه اذا شاء ان يجرى لك عملية جراحية ، ممكن فى أثنائها أن يصنع بجسدك ما يشاء . كذلك اذا ذهبت الى طبيب نفسى ، انت تدلى له بكل الأسرار التى لا تستطيع أن تدلى بها لأخيك أو لصديقك أو الى أعز الناس وأقربهم منك . اذ أنت تعتبره الأمين أمانة عظمى على كل هذه الأسرار ولذلك فكل المهن من قديم الزمان كان ممكنا أن تزاولها بمجرد الحصول على مؤهلاتها ماعدا الطب ، فلابد أن يقسم قسم أبوقراط أبو الطب فى مزاولة عمله بمنتهى الأمانة والمسئولية والصدق والمحافظة على مريضه والعمل بكل ما يملك على شفائه . قسم أبوقراط هذا شىء رمزى محض يرمز الى جعل الطبيب الشاب يحس بأهمية وخطورة المهنة التى سيبدأ فى مزاولتها ، بل يحس تجاهها بنوع من القداسة والتبجيل . وأذكر ونحن فى المدارس الابتدائية انه كان مقررا علينا فى كتاب المحفوظات قطعة تتحدث عن الطبيب مازلت أذكر الى الآن منها هذه الفقرات : رعاك الله يا رسول الرحمة ، ومنقذ المرضى ، وملجأ الملهوف . آن يدك التى تطيب المريض ليست كأيدينا ، ومشرطك الذى يعالجه ليس مبضعا وانما هو اصبع ملاك حارس يجتث العلة .. الخ ..

من أجل هذا تحاط مهنة مزاولة الطب بكل الاحتياطات التى تمنع بعض الأطباء الشاذين ـ وليس كل الناس أسوياء ـ من استغلال جهل المريض أو عدم ادراكه حقيقة مرضه أو « النصب » عليه أو الاحتيال أو اساءة استعمال أسراره وأذكر فى هذا القبيل أحد (الزملاء) الأطبـاء ، زمان ، كان يعمل فى قرية وكانت لديه ثلاجة تضىء اذا فتح بابها كالعادة ، فكان يقول للمريض : تعال ٠٠ أعملك اشاعة ٠٠ ويوقفه أمام الثلاجة فتضىء ثم يغلقه ويقـول للمريض : خلاص ، عملنا الاشاعة ويتقاضى منه خمسة جنيهات اضافية مقابل تلك الاشاعة ، وكثيرة هى آمثلة النصب والاحتيال ، ولـكن المهنة فى مجموعها والأطباء فى مجموعهم ، وحسب خبرتى حتى كمريض ، أناس يحتلون أعلى المقامات بالذمة والأمانة والانضباط ٠

ولهذا يحاط أيضا ، إستعمال أى عقار جديد ، بضمانات شديدة الدقة خاضعة تماما للأصول العلمية ، حتى لا تنقلب المسألة الى فوضى ويصبح أى طبيب حرا فى أن يجرب عـلى مرضاه كل ما يخطر على باله من أدوية يخترعها أو يدعى انها جديدة ٠ لابد من اقرار أى دواء جديد بواسطة الجهات العلميـة المختصـة ثم بعـد هـذا ، ترخص وزارة الصحة باستعماله ويعطى رقم ترخيص ٠ وأى طبيب يسـتعمل عقارات أو كيماويات غير مرخص باستعمالها عقوبته السجن ، وليس مجرد الانذار أو التأديب ٠

اما أن يؤدى هذا الى تثبيط همم الأطباء الذين يريدون أن يخترعوا أو يبتكروا فهذا قول ساذج تماما وغير صحيح بالمرة فباب الاجتهاد والاختراع مفتوح على مصراعيه ولكن ،

ومهم جدا كلمة ولكن هذه ، هناك ضـوابط علميـة دقيقة موضوعة كلها لمصلحة المريض ، اذا على الطبيب الذى يكتشف أو يخترع أن يتقدم الى الجهة العلمية المختصة باكتشافه . ويطلب الاذن بالتجريب على الحيوانات ، ومئات الجداول ، ومتطلبات أخرى كثيرة تتأكد الجهة العلمية من فاعلية الدواء ومن تركيبه الكيمياوى ومن أضراره الجانبيـة أو عـدم وجودها ، ومن تعارضه مع أدوية أخرى أو عدم تعارضه . بعد هذا تأذن الجهـة العلمية بالترخيص للطبيب باستعمال الدواء الجديد على المرضى ـ وأيضـا تحت اشراف علمى دقيق ـ حتى اذا نجحت التجارب على المرضى ، يعتمد الدواء ، ويسمح بالنشر عنه فى مؤتمرات الطب والدوريات العلمية ويصرح لمعامل الأدوية بتصنيعه حينذاك فقط .

اما أن تواجه وسـائل الاعلام ، من خلف كل الجهـات العلمية ، بدواء جديد فلو حدث ذلك فى اى بلد فى العـالم لشطب اسم الطبيب من قـائمة المزاولين لمهنة الطب وقدم للمحاكمة فورا ، فالمسائل ليست فوضى ابدا ، بل ان هناك فى انجلترا قواعد دقيقة لكتابة اللافتة التى تحمل اسم الطبيب بحيث لا يزيد عن العشرة سنتيمترات بأى حال ، بل ان هناك مادة فى قانـون مزاولة المهنـة فى انجلترا تمنع الجـرائد والمجلات من نشر أى شكر للطبيب المعالج على صفحاتها ، فاذا حدث وقبل الطبيب أن ينشر شكره فان اسمه يشطب فورا من النقابة أو بتعبير الانجليز أنفسهم « أى يكشط كشطا » من قائمة الأطباء ...

فمـا بالك بعقـد المؤتمرات والظهور والسهرات فى الاذاعة والتليفزيونات ؟! ان عودة نقابة الأطباء الى احكام قبضتها على اخـلاقيات مزاولة مهنة الطب فى ظل الفوضى الأخلاقية والذممية التى تحيا فيها ، لعمل عظيم وجاد وآن أوانه بعد ما كاد أن يفلت الذمام ٠

خطاب من راكبة أتوبيس

سلامى تحياتى

رجاء أن أحيط سيادتكم علما بالآتى ، نحن صنف المرأة نعانى الأمرين فى المواصلات ـ الزحام شديد جدا والاختلاط فيه لايليق مطلقا ، يعلم الله المواصلات بالنسبة لنا رعب ـ وركوب الاتوبيس بالنسبة لى آنا بالذات جهنم الحمراء كتبت لحضرتك بالذات لانك تستطيع ان تقدر مدى الاهانة النفسية والالم لمجرد اتخاذ الاحتياط والدفاع عن النفس ..

فى اعتقادى هذه الجريمة تعتبر ، زنا واغتيالا لشرفى وذينى وجنسى ، يعز على اننا فى بلد بكل هذه الحضارة والتقدم والعلم والدين ولا يفكر فينا مسئول أو مسئولة لأن حضراتكم طبعا بعيدون جدا عن هذا .

يعز على انكم تفكرون فى بنات غزة اللاتى يرشقن بسهام فى ظهورهن ونحن هنا نرشق بأمر من السهام ، من كل جهة يوجد مجرم لعين ـ آسفة ـ ويستوى فى ذلك الكبير والعجوز والطفل ؟! سنة فاكثر ـ المتعلم الجاهل ـ النظيف والوجيه والقذر وكل طبقات الشعب بلا استثناء .

صورة لا تليق بمصر ولا توصف بكلمات أو عبارات ٠

لذلك ارجو أن تتكرم سيادتك وتتخذ الاجراءات مع كل من يهمه الأمر ، فتفصل بيننا وبينهم فى المواصلات بكل الطرق أى ان تخصص أتوبيسات للنساء ، فقط هذه الاتوبيسات تسرى عليها أبونيهات الطالبات والموظفات أى للفئات التى لا تستطيع استعمال الميكروباص اذ انه يكلفنا جنيها أو اكثر فى اليوم ٠ واسمح لى ان اقدم لك وللمسئولين اقتراحا ، لقد قرأت أن هناك ثلاثمائة أتوبيس جديد نازلة تغذى الخطوط من أول مارس أن شاء الله بمعدل ٦٠ أتوبيس كل شهر ٠

فهل من الممكن تخصيص ٦٠ أتوبيس فقط للنساء ، تعمل بالذات على خطوط ميدان رمسيس ــ جيزه ــ شبرا ــ روكسى ــ ميدان التحرير ــ الجيزة ــ شبرا ــ العتبة ٠

ولخدمة وسط البلد المزدحم حيث الاشارات كثيرة ــ والفرامل كثيرة وكل فرملة من السائق الأرعن يحدث الالتصاق الهمجى الذى نتألم له كثيرا ٠ لو جلست كل ست لانحلت المسألة ٠ ولكن حتى هذا الجلوس لا يكفى لأنه فى النزول والطلوع والسير داخل كتلة الرجال اشياء لاتليق ٠

صدقنى اننى أنزل من الأتوبيس ومن كثرة الفرامل والرج والاحتكاك أجد مفاصلى مخلعة وجسدى أشلاء وكرامتى تنزف حتى انى احيانا أبكى ٠

رجائى ان ينظر فى امرنا كلنا من اجل حفظ كرامة المرأة المصرية ٠

ولسيادتكم جزيـل الشكر مع رجـاء عذرى للأخطـاء النحوية واللغوية فأنا آسفة آنا مرهقة واعصابى متعبة .

مقدمتــــه

سعاد فهيم منصـــور

مهندسة زراعيــة

١٥ شارع الشبينى بالعباسيــة

السن ٥١ ســنه

والكاتب ناشر هذا الخطاب يتقدم الى رئيس هيئة النقل العام وأساسا الى الوزير الحاسم المهندس سليمان متولى بهذه الشكوى وبهذا الاقتراح الذى أؤيده مع كل قلبى .

ربما نحن لا نزال بعد لا ندرك قيمة حضارتنا فى نظر العالم .

أى انبهار كان يحدث للشخص حين ألقاه وأقدم اليه نفسى ويعرف أنى مصرى عربى فيعود يشد على يدى ويقول: انى سعيد جدا أن أقابل ممثلا لأعرق وأول حضارة على سطح الأرض .

ولقد سألت عالما هنديا عما يعنيه بالضبط بتلك العبارة . فقال : ليست حضارتكم حضارة ومعمار ولغة وعلوم فقط ولكنها الحضارة التى أحدثت فى العالم القديم ثورة حضارية لا تقل عن الثورة التى أحدثتها الصناعة واكتشاف البخار والكهرباء والذرة والتكنولوجيا فى عصرنا الحاضر .

انتم اكتشفتم الزراعة . اكتشفتم أن باستطاعة الانسان أن يتحكم فى المملكة النباتية والحيوانية بحيث كفت عن النمو التلقائى الذى لا ضابط له ، فأصبحت تزرع المساحات الشاسعة من الأرض بارادة الانسان وبالتحكم فى البذور والمياه واختراع أدوات للرى والزراعة ..

كنتم أول من تحكم فى الطبيعة وسخرها فى خدمة الانسان ومن هنا ، لم تكن حضارتكم هى الأولى فقط ، ولكنها بداية تحكم الانسان فى الجماد والحيوان ٠٠ مما كان لابد أن يؤدى تلقائيا الى اختراع الآلة وتطور العقلية والعلوم، ثم مراحل المدنية التى أوصلتنا الى ما نحن فيه الآن٠

ثم ابتسم وقال :

ـ ولو لم يتحكم الكهنة ورجال الدين فى تفكيركم بحيث يوجهون اهتمامكم الأكبر لا لتطوير ما اكتشفتموه وانما للتوقف عنده والتوجه كلية الى الحياة الأخرى ومشاكل الخلود ٠٠ لو أعطيتم نصف اهتمامكم بالموت وما وراء الموت الى الحياة وما يدور فى الحياة ؟

لكنتم وصلتم الى العلوم الحديثة من أحقاب وأحقاب ؟ ولكان الانسان قد اختصر من رحلة حضارته مئات السنين ٠ ولقد أرقنى قوله كثيرا ، ولا يزال يؤرقنى ٠٠ اذ ونحن الآن نحاول استعادة ما فاتنا ، ونحاول الوصول الى أسرار الثورة التكنولوجية الحديثة ، فلا تزال مشكلتنا الكبرى ، كما كانت فى الماضى ، هى مشكلة الهدف لأى هدف نتعلم ، ونستحوذ، وتصنع ، وتثور ثورتنا الحضارية التالية ، هل نستعملها لنفكر فى الموت وما وراء الموت والنظر الى ما فات وعبادة الأمس واحيائه واعطاء الظهر للحاضر وآفاق المستقبل ؟

اذا لم نكن نبغى التحضر لنسبق الزمن ونعوض ما فات ٠٠ اذا لم نكن نقاتل لنستعيد ذواتنا وأنفسنا لنمضى الى الامام ٠

اذا لم نكن قد أدركنا اننا تأخرنا لأننا كنا دائما نحيا فى عصر حى بأجسامنا كى نتفرغ للحياة فى الزمن الذى مضى بعقولنا وأحلامنا ٠

اذا لم يكن هذا كله هو رائدنا ؟! فأبدا سنظل غرباء كتماثيل المتاحف فى عصر حى ، ستظل عقولنا تجرى الى الأمام لتأخذ من الحياة كل ما تستطيع ٠

ما غايتنا ؟

وهنا الفيصل ٠٠

هنا لابد أن نتوقف ونسأل :

نحن نريد التحرر لنتحضر ونتمدن نريد الكهرباء لنصنع ، نريد العلم لنخترع ولكن كل هذه وسائل ٠٠ اذ تبقى الغاية ، فما غايتنا من هذا كله ؟

والسؤال مهم ، والتساؤل محتم ، فلقد اخترعنا التليفزيون وعممناه لننشر ثقافة هز البطن ومجالس الخلفاء والندماء ، أو بالكثير لنعرض فيه أفلاما قديمة لعقلية قديمة ولأهداف بالغة التأخر ٠

والسينما استعملناها لنروج لأسف وأحط القيم ٠

وصناعة السيارات بذلنا فيها دم القلب لتتكدس تاكسيات يملكها القادرون ٠

ووزارة الثقافة استعملناها لننتج كتبا ميتة ومسرحيات هابطة ٠

السؤال مهم ٠٠

فما لم يكن هدفنا واضحا نرتضيه ونجمع عليه ونوزع أدواره على كل منا ٠٠

ما لم يكن وراء التحرر، والحرب أو السلام ، والاشتراكية أو التصنيع ، والتنظيم السياسى أو تحرير الملكية ، ما لم تكن هذه كلها أجزاء تابعة ومنتهية الى هدف أكبر وأعظم

يصبح الهدف المقدس فى حياتنا ، وتقديسه نابع من تقديس كل منا له واختياره اياه • فاننا لن نصــل لتحقيق هــذه المفردات فقط ولكننا ربما نحققها بطريقة مثيرة للضحك تماما ، اذ نحققها لنصل بطريقة تقدميــة جدا الى هــدف متخلف جدا ، أو بالأصح نصبح عباقرة الاسراع الى الخلف فى عالم نكاد نستطيع اللحاق به لو أسرعنا الى الامام •

وفقط حين رأيت الآخرين ، الأفقر منا بكثير ، الأقل منا عمرا الذين يروننــا الأعــرق والأخلــد ، بدأت أكتشف نفسى ، أقصد نفوسنا ، وأجد كل نفس لدينا قد أصبحت قارة ، أحاطت نفسها بستار ، ترفض كل شيء ، وتهزأ بأى حدث ، وتعيش مثلما غيرنا يعيش ، وكأننا كنا فى انتظار نكسة ٦٧ أو أى كارثة عربية لنقول : بركة يا جامع ! وما الفائدة ؟ لنقول : ولسه ح نرجع نعافر تانى ؟

وكل عشــمى ألا نكون قد خرجنا من هــذا كله وقــد أضيئت معالم الانسان الآسيوى فى عيوننا ؟ عشمى الأكبر أن يكون كل منا قد خرج بضوء قد تسرب لنفسـه هــو ؟ وحتى بلا ضغينة يراها ؟ وبلا تأنيب كثير للذات يحادثها ؟ وبحديثه يكشف طاقة أمل ، مهما صغرت ، فهى البداية •

فلنعجل بالبدء

المشكلة أن نعجل بأن نبدأ ، فكل ثانية من الزمن تمر تموت من أعمارنا ثانية ولا تعود تحيا آبدا ، وكل ثانيــة زمن تموت •• تموت معهــا ثانيــة ارادة • واذا كان فى نيتنا أن نموت فلا شيء يدعو حينئذ للتعجل أو اليقظة ، أما

اذا كان فى نيتنا آن نحيا ، فمن المستحيل ما دمنا قد اخترنا أن نحيا أن نؤجل الحياة • والحياة ليست مجرد اشعاع أمل ، أو احساس بضرورتها ، أو اعجاب بها • الحياة حركة اذا أردنا أن نكون فلنتحرك ، بل حتى لو قررنا المـوت فلنمت كما يموت الأحياء • فلنمت حركة ، فلنمت عملا ، ميتـة أخرى غير التمدد فاغرى الأفواه مفتوحى الأعين نتفرج ؟ حتى على آلامنا نتفرج ، وكأن ما يحدث يحدث لغيرنا ؟ وكأن الألم لا يكوينا ، وكأنما ارادتنا جميعا سرقها لص ووضعها فى صندوق وألقى الصندوق فى البحر ، وكل مشكلتنا آن نظل نتساءل أين مفتاح الصندوق ؟ آحيانا نظنه مع ريغان ، وأحيانا مع الدول الكبرى ، وآحيانا لابد أن أحدا قد دفنه فى رمال سيناء •

والمفتاح ــ أيها الأعزاء ــ لم يضع والصندوق والارادة داخلنا لم تسرق ، ولم تضع ، مع أنفاسـنا تتردد ، ورهن اشارتنا تكون ، والمسؤولية مسؤوليتنا •

وعلى أنفسنا نحن باستمرار نتفرج ، والنكتة نرويها دائما عن الغير وكأن الغير بطلها ، فى حين ان راويها لا يعرف انه البطل ، والمسألة طالت وطالت ، والأحاسـيس كثرت وتشعبت •• كل ما فى الأمر آننا فقدنا احساسا لا نزال لم نشعر به ، ونتجنب أن نشعر به ، هو احساسنا بالخجل •

خاتمـــة

أن ينتهى الكلام عن آسيا ، كأن ينتهى الكلام عن الجنس البشرى والانسان ، مسألة لا يتصورها عقل •• هى ليست قارة فقط ، ولكنها آكثر من ثلثى العالم ، وبين كل ثلاثة

من سكان الأرض تجد اثنين منهم آسيويين ٠٠ فهى أضخم القارات عددا ، وأكثر التناقضات تناقضا ، ومن الرأسمالية بأبشع صورها الآسيوية فى اليابان وتايلاند وفورموزا وغيرها ، الى الاشتراكية بأروع صورها الشيوعية فى الصين وكوريا وفيتنام ومن بلاد محايدة وعلى شفا الحياد ، الى تجارب من الديمقراطية الاشتراكية المعتدلة فى الهند ، الى دكتاتوريات عسكرية ؟ الى شعوب يحكمها الاستعمار ومخابراته ، وشعوب انتزعت حريتها ، الى انسان لا يزال يعبد الأصنام ، وآخرين أخذوا الماركسية العلمية عبادة ، من نساء على هيئة جبشا ، الى مقاتلات تخصصن فى اسقاط الطائرات ، من حالة الكفاف الى دون الكفاف ، من الاباطرة الى الرقاق ، ومن بلاد لا ينمو فيها القتاد الى أغنى البلاد٠٠

انها العالم مركزا ومزدحما وواصلا الى أقصى درجات تناقضاته ٠

البلد الذى خلب لبى

ومع كل ما رأيت ، فان البلد الذى خلب لبى فى آسيا هو الهند ٠٠ الشعب ، والحضارة ٠ ومن البطولات ليس أعلى من فيتنام ، فى التحلل هناك تايلاند وهونج كونج ٠ فى الطموح المخيف نرى اليابان ٠ فى آى مكان لابد أن تعثر على نموذج ، والنموذج صارخ ، وفى كل مكان نلحظ حركة من حركات التاريخ سادرة وسريعة ، لا يوقفها شىء ٠٠٠ من الواقع أيا كان ، ومهما درت فى أفلاكه ، فى الشرق والجنوب والشمال ، فانى تذهب ستشعر حتما آن لهذا الكون مركزا ، ثقله من ثقل الشمس ، ومكانه الطين ٠٠ هناك

هى الحقيقة الكبرى ، ودائما هى فى الطريق لتصبح الحقيقة الأكبر ·

***

وآجلا أم عاجلا ، شاءت أميركا أم أبت ؟ فمصير آسيا للصين لا للاستعمار الصينى ، فالماوتسية لا تستعمر ، وانما للاشعاع العقائدى ، والمذهبى والثقافى والسياسى الصينى ·

ومن الآن ترى الاشعاع يتجسد ، والأحزاب الشيوعية الصينية النمط تتكاثر وتصبح الأقوى ، وتملك المنطق الذى لا يقاوم، الثورة المسلحةالتى لا بديل عنها ولا محيص ·

بل أكثر من هذا ، سمحت لنفسى ـ ولست سياسيا ـ أن أتصور الغد الآسيوى ، وهو غد يكاد يكون مفاجأة ·· لقد حاولت أمريكا أن تبنى اليابان قاعدة رأسمالية تقود القارة الى معسكر الرأسمال ·· ومنذ نهاية الحرب واليابان تبدو لأمريكا وكأنها أطوع لها من بنانها فى هذا الاتجاه . ولكن المسائل بدأت تتكشف ، ومع ازدياد القوة الاقتصادية اليابانية بدأت اتجاهاتها ، أو رياح اتجاهاتها المستقلة تهب ·· واذا كانت أميركا قد بذلت المستحيل لتصنع من اليابان والصين اسفينا يبقى العداوة بينهما الى الأبد ، فان تقديرى الشخصى أن الاسفين سيتحول ـ بطريقة لم يحلم بها أحد ـ ومنذ الآن تضع اليابان خططها لتتكامل اقتصاديا مع العملاق الأحمر المجاور ، وبالصين واليابان معا ، بآسيا الاشتراكية والرأسماليةالتى بدأت تعود لتصبح وطنية بعد أن استنزفت ما استطاعت استنزافه من رأس المال الاميركى ، بهما معا ، فى القريب ، ستنشأ كتلة أو معسكر متكامل متناسق أخذ من الغرب كل علمه وأسراره الرأسمالية ومن الشرق كل

خلاصة تجاربه الاشتراكية ، وبدأ ، وسيبدأ يحقق لآسيا وجودا لم يكن لها في يوم من الأيام ٠٠٪ ومثلما خيل لبعض ـ المعلقين ان احتمال حدوث الحرب بين أميركا وروسيا أقل من حدوثها بين الصين وروسيا ، فالاحتمال الذى سيكشف عنه المستقبل ، ان آسيا بغربها وشرقها بصينها ويابانها ، ستقف وجها لوجه أمام الاتحاد السوفياتي باشتراكيته ، والغرب برأسماله ٠

★★★

واذا كان هذان القطبان الآسيويان في مركز أقل ، وليسا الدولتين الأعظم بعد ، فان الانفجار الاقتصادى والصناعى فى الصين واليابان يتطور بسرعة مخيفة ، وعلى يد العقلية الآسيوية الدائبة المتقشفة الظامئة الى الوجود والتفوق من زمن طويل ، سيصل الى آفاق لا يمكن أن يتصورها أحد ٠

عصر آسيا

نحن مقبلون اذن على عصر آسيا ٠٠٠

والصراع الآن على أشده ٠

اليابان تحاول أن تسحب من الرأسمالية الأوروبية والاميركية ، وتصبح هى موردة الصناعة والصناعات لبقية البلاد المرتبطة بالرأسمالية ٠

والصين تحاول أن تحل محل الاتحاد السوفياتى فى قيادة الثورة ضد الاستعمار والنفوذ الاستعمارى بكافة أشكاله فى البلدان التى تبغى التحرر ٠

واذا انقسم العالم فى بحر السنوات المقبلة ، فانما سينقسم الى حضارة رأسمالية نامية مكتسحة ، وحضارة غربية تحاول الدفاع عن النفس والوقوف في وجه ثلثى سكان العالم وقد امتلكوا أخطر أسلحة العصر : العلم والتكنولوجيا .. وفوق هذا كله ، قوة النمو المتفجرةالدامغة بعد طول صبر وطول مقاومة .

وسيكون الحياد حينئذ ، حياد بقية أوروبا أو بقية آسيا وأفريقيا ، حيادا من نوع آخر ، ليس فقط حيادا بين المذاهب ، ولا بين الاشتراكية والرأسمالية ، وانما حياد بين آسيويين لا نهائى العدد ، (أميركيون أوروبيون) انتهت خلافاتهم المذهبية والنظامية يقتلهم الرعب من الخطر « الأصفر » الذى طالما تخيلوا بتنبؤاتهم وجوده . ولكن مع هذا ، أتمنى أن يحدث شىء آخر .

أتمنى أن يكون وقوف الانسان الآسيوى على قدميه . ووقوف الانسان الأفريقى على قدميه ، فرصة أمام الواقفين على أقدامهم فعلا ، لا لكى يقاوموا هذا الوقوف من الجانب الآخر أو يعتبروه الخطر الساحق ، وانما بداية لعالم آخر جديد ، وقانون آخر يسود هذا العالم .. قانون المساواة ، قانون العالم الأنضج الاقوى ، قانون لا يعود يسمح بقوة وحيدة ما ، أو حضارة واحدة ما ، أو منتصر واحد ما ، يسود ويخضع له الباقون وانما تبلغ بعقولنا حد الاعتراف ان السيادة المفردة ولت أيامها وان العصر عصر تعاون السادة ، عصر التشارك وليس عصر التفرد ، عصر التقاسم وليس عصر الاحتكار ، عصر التنوع وليس عصر النموذج الواحد ، عصر مساهمة الحضارات أجمع فى رقى

العالم أجمع ، وليس عصر املاء الحضارة الواحدة على العالم كله .

نعم ... أتمنى مثلما أدى التوازن الذرى والنووى الى الغاء الحروب الشاملة ، أن يحدث نفس الشيء حين يوجد التوازن الحضارى والفكرى ، بحيث ينتهى جشع كل قومية لاحتلال أرفع مكانة ، وكل كتلة لسحق الأخرى والانفراد بالزعامة ، أتمنى أن ينتهى الصراع بين الرأسمالية دون حرب بين بعضهم البعض ، والصراع بين الاشتراكية دون سفك دماء ، وفي النهاية أتمنى زوال الرأسمالية كنظام استغلال دون ثمن باهظ دون حرب ضحيتها رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، حياة أى فرد منهم أثمن عندى من أى شعار ، فالمذاهب لا توجد لتسود بالقتل والمهلكات ، واذا كانت الاشتراكية قد قامت لتمنع استغلال الانسان للانسان، أى قامت بسبب نبيل تماما وشريف وانسانى ، فلا يمكن ولا يعقل أن يكون الطريق لتحقيقها طريقا تسيل فيه الدماء نفس هذا الانسان التى قامت لتمنع عنه مجرد الاستغلال .

ولكن المؤسف حقا ان الدماء تسيل لأن المستغلين يقاومون زوال الاستغلال بضراوة ، المؤسف انهم يستعملون نفس الذين يسومونهم ويستغلونهم فى الدفاع عنهم وعن عالمهم تحت أزهى وأبهى الشعارات .

المؤسف ان الخداع مادام قائما ، ومادام هناك مخدوعون فالصدام حتمى ، وانهار الدماء حتمية ، والوحشية فى جنسنا حية لا تزال .

ولا سبيل لانهاء الخداع الا بتحديد الموقف ، ليس فقط على كل دولة أن تحدد موقفها من الصراع فى العالم ، ولا على

كل شعب ولا علينا كهيئات وأحزاب وتنظيمات ، انما حتى على كل منها كشخص ٠

وذات يوم قالها الفيلسوف ، أنا أفكر فأنا موجـود ، ومنذ قالها تغير العالم ، ولم يعد التفكير يحدث لمجرد التفكير، وانت لابد أن تفكر اليوم لتتخذ في النهاية موقفا ، وعـلى ذلك فلتصبح الكلمة : أنا لى موقف فأنا موجود ٠

★★★

محال أن يسمح العقل الصحيح لصاحبه أن يكون حيـا عائشا في آسيا أو في أفريقيا أو في أميركا اللاتينيـة أو أميركا نفسها وأوروبا ، ولا يكون له موقف في هذا الصراع الدموى الدائر أمام عينيه ٠٠ صراع حتى الموقف السلبى منه لا يجدى ، فالموقف السلبى يخدم في النهاية الاستعمار والمستغلين ٠

وبعد جولة في آسيا الرأسـمالية وأوروبا ٠٠ وقبلهـا أميركا ٠٠ لم يعد أمامى الا أن أعلنها صريحة لشعبنا ولـكل شريف في هذا العالم ٠

نعبث نحن اذا راودنا أمل ، مجرد أمل ، في أى نظام رأسمالى ٠ نعبث نحن اذا راودنا أمل ، مجـرد أمل ، في تناقض يحدث بين الرأسماليين هنا أو هناك ، فالرأسمالية الآن تعلمت ونضجت وعرفت قبلنا نحن معنى الوحدة وأهمية التماسك والتكاتف ٠ ولا تصدقوا أن تناقضـا يقـوم بين كروب وجنرال منتورز ٠٠ ولا بين سونى وجروتدنج ٠

نحن نعيش في ظل رأسمالية شديدة الذكاء والتكييف والخبث ، بارعة القدرة في التنكر ، قوية غنية ، ليس في جعبتها أى خير أو استعداد لنصرتنا ٠

التليفزيون

نعم ، هى ظاهرة استرعت انتباهى حقا ، وذكرتها فى مرور عابر على كلمتى السابقة،ولكن،لأن الموضوع هام وخطير ولا يلتفت اليه الكثيرون فقد رأيت أن أعود اليها ، متوسعا فيها ، واصلا الى اسبانيا وربما أيضا طرق علاجها .

ذلك الموضوع هو اننا قبل قيام التنظيمات التى تحمل شعار الاسلام وتدعو له ، وتكفر كل من لا يؤمن بطرقهـا ووسائلها ، وسريان العدوى الى خطباء المساجد ومؤذنيهـا بحيث تستحيل مدننا وقرانا الى مظاهرات ، ميكروفونية ، رهيبة ساعة الأذان للصلاة بما فى ذلك آذان الفجر وتسبيحاته واذاعة الصلوات نفسها من داخل المساجد ضـاربين عرض الحائط بالآية الكريمة التى تقـول : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخـافت بها » ، فالصـلاة نوع من العبادة المتأملة التى تستدعى بالضرورة أن يتأمل الانسان كلام خالقه ، وحكمة ركوعه وسجوده ، بل ويتأمل معانى الفـاتحة التى يقرؤها والتحيات التى ينهى بها ركعاته .

أقول قبل أن تعرف مصر هذه الظاهرة التى أحالت الدين الاسلامى خاتم الرسالات الى ضوضاء وأصــوات تغلظ من حناجرها وتوجه التهم ـ والسباب أحيانا ـ من فوق منابر مساجدنا ، كنا نؤدى طقوس ديننا فى جلال وخشوع ورهبة لأننا كنا نحس اننا ـ فى الصلاة ـ لا نواجه بعضنا البعض، ولا نتخذ الصلاة وسيلة لاظهار براعة علو أصواتنا ولكننــا كنا فيها نواجه المولى سبحانه ونناجيه ونسترحمه ونستغفره نتوب اليه هو وحده .

الظاهرة التى استرعت انتباهى هى انه مع هذا العلو فى الأصوات الى درجة الغلظة والتعــذيب ، خفت صــوت الضمير الاسلامى ، وانتشرت الأهوال فى مجتمعنا الى درجة ان أولياء أمور طلبة الحسينية استعملوا تلك الميــكرفونات نفسها فى تغشيش أولادهم وتعليمهم ان الانسان ينجح فى حياته لا بالجهد والعــرق والــكدح وانما بالغش والتزوير والتدليس ، وكأن أولياء الأمور هــؤلاء ليســوا هم الذين يستيقظون كل يوم لأداء صــلاة الفجر ، وكأن الدين شىء والأخلاق الحميدة شىء آخر ، وكأن ليست الرسالة العظمى للدين هى أن يرفع من تصرفات الانسان ومواقفه وأحكامه الى أعلى مستوى ليصبح الانسان حقاً وصــدقا ظل الله على أرض الله سبحانه الكامل فى صفاته .

لماذا حدث هذا الانفصام ؟

ولماذا أدى هذا الانفصام الى أن يبرر بعض أعضــاء جماعات التكفير لأنفسهم أن يطلقوا النار عــلى رجــل دين مريض جاوز السبعين وهو موثوق بالحبال ، ويضعوا فوهة المسدس فى عينه اليسرى ، ويطلقوا عليه النار ويقتلوه ، مع انهم يفعلون هذا رافعين راية العودة للمجد الاســلامى

التليد ، وكأن هذه الفعلة نفسها وكأن اطلاق النار وحرق الكنائس ـ تلك التى نهى عنها الاسلام تماما وجرمها هى نفسها الوسيلة للوصول للحكم الاسلامى الحق ، وهل ممكن أن تؤدى الوسائل المجرمة السفاحة الى اقرار مبادىء العدل والتسامح والايمان ورعاية سابع جار وحتى عدم ايذاء القطط والحيوانات أو تركها حتى تموت من الجوع ٠

هل الاسلام ،ذلك الذى أوصى المؤمنين به حتى برعاية الحيوان ممكن أن تكون طريقة الوصـول اليـه هى بقتل المسلمين دون محاكمة ودون اتهام محـدد ودون اجراءات قضائية اسلامية محددة تضمن للمتهم حقـه فى الدفاع عن نفسه بل وأحيانا يوقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اقامة الحد على السارق اذا وجد ان السرقة حدثت بسبب الجوع أو المجاعة ٠



وأيضا ليس هـذا هو موضوعنا ، فهو موضوع الذين خلقوه أو اختلقوه ، موضوع هدم هذا المجتمع واقامة مجتمع يخضع تماما لديكتاتورية أفكارهم ويتصرفون فيه وكأنهم رسل العناية الالهية لاقامة الحكومة الاسلامية الدينية عـلى الأرض ولو بافراغ الرصاص فى عيون المشايخ أو اطلاق النار على العزل وحرق المحلات والكنـائس واذكاء عداوة طائفية مصطنعة لابد فى النهاية أن تؤدى الى حرب دينيـة طائفية وفى المقـابل لا أسـتطيع أن أناقش الحـكومة فى رسائلها فهى مشغولة بواجب المحافظة على الدولة وعلى أرواح المواطنين ، بل ان أخوض فى هذه (الهوجة) الاعلاميـة القائمة حول الجماعات الاسلامية وتطبيق الشريعة والحل هو

الاسلام وكل تلك الضجة التى يفرحون لها تماما ويريدون لها أن تستمر حتى لا يصبح لا عمل للناس الا الحديث عنهم صباح مساء سواء معهم أو ضدهم ، والحديث معناه الرواج الشعبى والرواج الشعبى هو ركيزة من ركائز الوصول الى هدفهم وهو الحكم ٠

انى انما أناقش هنا موقف الحكومة وليست حكومة اليوم فقط كما قد يعتقد البعض ، ولكن موقف الحكومات المصرية المتتالية منذ قيام الثورة والى الآن ٠

فلأمر ما تصورت الحكومة فى الخمسينات الستينات انها تستطيع أن تضرب الوطنيين والحزبيين واليساريين بتملق العواطف الدينية لدى جماهير شعبنا المؤمن حقا وبالسليقة ٠ والمصريون معروفون بتدينهم الحكيم ، حتى الشعوب العربية نفسها ومنها شعب المملكة العربية السعودية حيث الكعبة وقبر النبى عليه الصلاة والسلام يعترفون بأن الشعب المصرى وأزهره الشريف كانا هما الدعامة الرئيسية التى ارتكزت عليها الدعوة الاسلامية منذ انحلال الدولة الأموية والعباسية ٠

وهكذا فى الوقت الذى تبنت فيه حكومة الرئيس عبد الناصر قضايا التحرر الوطنى فى كل انحاء الوطن العربى وأفريقيا وآسيا وحتى آمريكا اللاتينية بدأت البرامج الدينية تأخذ طريقها الى الاذاعة والصحافة ولم يكن التليفزيون قد أنشىء بعد ٠

ولقد كنت أتابع كثيرا من تلك الأحاديث وأتعجب ، ذلك ان الاسلام موضوع كبير جدا لا يمكن آن ينتهى الحديث عنه بينما تلك الأحاديث كانت تركز على نقطة تكاد تكون واحدة لا تتغير وهى أشعار الشعب وأفراد الشعب بنواقصهم الدينية

وبأنهم لا يعبدون الله كما يجب بحيث يتناسى أفراد الشعب مشكلتهم كمجتمع مع الدولة أو الحكومة وانعدام الديمقراطية فى الحكم أو حتى الشورى وتصبح مشكلة الواحد منهم هى احساسه بالنقص فى كم ونوع تدينه ، وليست المشكلة أبدا هى حكم الفرد المطلق واستئثاره الكامل بالسلطة ، واستئثاره أيضا بقرارات خطيرة مثل قرارات أعلان الحرب أو ايقاف القتال أو ارسال الجيش المصرى الى اليمن أو الكونغو ٠

وأنا آسف حقا وأنا أقول هذا فأنا أكن لعبد النـاصر الزعيم كما وافرا من الاحترام والتقدير اذ يكفى انه كحاكم لم يخن أبدا قضيتنا الوطنية ولم يساوم أبدا عليها ٠

ونأتى لعصر الرئيس السادات ذلك الذى رفع شـعار المنابر ثم حولها الى أحزاب وديمقراطية ساداتية استأثر فيها أيضا بالقرار وبتغيير السياسة المصرية ١٨٠ درجة هنا أيضا لم يكتف الرئيس السادات بتكثيف الجرعة الدينية فى وسائل الاعلام بل وبتقوية المنظمات الشبابية الدينية لضرب الطلبة اليساريين ولكنه رفع نفسه أيضا من رئيس دولة الى الرئيس المؤمن ، أى الى مصاف الرسل ، وكان التليفزيون قد تربع على عرش الأسرة المصرية والشعب كله ، ذلك الجهاز الغريب الذى تفتقت عنه العبقرية الصناعية الغربية ويمثل أحدث وأخطر الوسائل لمخاطبة الرأى العام ٠

واذا كنت هنا أذكر التليفزيون بشكل خاص فلأن أثره لا يعادل آثار كل وسائل الاعلام مجتمعة من صحافة وكتب واذاعة فقط ولـكن أثره يعادل مئات بل آلاف المرات تلك الوسائل ٠٠ أن متوسط عدد المشاهدين للتليفزيون فى مصر لا يقل عن الثـلاثين مليـونا بينما مستمعو الاذاعة وقراء الصحف والكتب يقلون بكثير جـدا عن هذا العدد وليست

المسألة أعدادا فقط ولكن القراءة شيء والاستماع شيء والرؤية شيء آخر تماما فالتليفزيون يحرك ويوقظ كل حواس الانسان : وفي نفس الوقت لا يتطلب منه أى مجهود بالمرة ، فهو يستلقى أمامه سلبية مطلقة تاركا لمواده وكلماته أن تفعل فعلها فيه دون أى مقاومة تذكر خاصة وأن ٨٠٪ من مشاهديه من الأميين ٠

ولذلك فالمجتمعات الأوروبية بالذات تستعمل هذا السلاح الخطير بقدر محكوم ولقد فوجئت مثلا وآنا فى السويد بأن التليفزيون لا يذيع الا ثلاث ساعات كل يوم ومعظمها اما مواد تعليمية واما ارشادات للزراع أو للعمل واما موضوعات ثقافية ترفع من وعى المواطنين وقدراتهم على استيعاب مجتمعهم وعيوبه ٠٠ واستيعاب العصر كله ٠٠ وكذلك التليفزيون البريطانى ٠٠ انى آتعمد كلما ذهبت الى لندن أن أذهب اليها يوم جمعة لكى يتاح لى آن آبقى يومى السبت والأحد رابضا أمام التليفزيون آتعلم ، آجل أتعلم ، وبالذات من جامعة الهواء التى يتفننون فى تحويل الرياضة البحتة مثلا والرياضة الحديثة وقوانين الكهرباء المعقدة الى صور ونماذج متحركة تثير شهيتك الى المعرفة والتعلم ٠٠ أما فى برامج المساء فالحديث هو حوار مفتوح حول مشاكل المجتمع البريطانى الخارجية والداخلية وبالذات مشاكل التعليم والمدارس والصحة وكل هذا بأسلوب رائع جميل لا يمكنك معه أن تغلق القناة أو تتحول الى أخرى ٠

هنا فى مصر حين آدخلنا التليفزيون آدخلناه لأسباب حكومية محضة فهو ارسال الحكومة الى الشعب يحمل أوامرها ونواهيها ، آما ما يقوله الشعب وما يريد ايصاله للمسئولين فسلكه مقطوع تماما حتى نشرة الأخبار ، يقوم حادث جلل

فى العالم مثل الحـرب بين العراق وايران ولـكن لان نشرة الاخبار هى نشرة الدولة فلابد من مقابلات الرئيس أولا ثم مقابلات رئيس الوزراء ثم رئيسى مجلسى الشعب والشورى والوزراء وأخيرا يأتى الخبر الذى يحتـل الصـفحات الأولى لصحف العالم ونشرات أخباره ٠

وأيضا ليس هذا موضوعنا ولا أريد بهذا الـكلام أن أنقد أى مسئول تليفزيونى أو اعلامى سـابق أو حالى فأنا أعرف والكل يعرف انهم اناس ينفذون أوامر ٠

ومن ضمن هذه الأوامر تعلق جماهير مسلمينا باغراقهم بفيض من الأحاديث التى لا يكاد يتابعهـا المتفقه فى أمور الدين والتى لا تتصل من قريب أو بعيد بمشاكل المواطنين الدنيوية الهائلة ٠٠ فى برنامج اسمه حديث الروح استمعت الى حلقة اسمها قضاء حاجات المسلمين وفرحت بالاسم وبكل ما أملك رحت أنصت فهو موضـوع يهم المسـلمين وقضاء حاجاتهم من الوصايا الاسلامية العظمى فاذا بالشيخ الجليل يحدثنا عن آداب دخول المرحاض فى الاسلام وكيف لابد أن تدخل المرحاض بقدمك اليسرى وأن تجلس وانت غير مواجه الكعبة الشريفة ٠٠ وكدت أصعق ولكن لا غرابة فما أكثر الأحاديث التى سمعتها بعد هذا وما كان أبعدها جميعـا ــ الا قلة نادرة ــ فى البعد ليس فقط عن هموم الناس ومشاكلها وانما عن الحقيقة أيضـا ٠٠ وذات مرة استمعت الى شـيخ جليل آخـر مفسرا للآية الـكريمة : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وقدم الشيخ الجليل تفسيرا بعيدا عن منطوق الآية وعن مفهومها البسيط اذ فوجئت به يقول ان معنى الآية ان الله سبحانه ينزل المطر على الجبال فتحمل المياه المنحدرة الطمى وتذهب به الى الأنهار ويستعمل الانسان ماء الأنهار

الى الرى فيخصب الطمى الأرض وينتج عنهـا الرزق وفى الجزيرة العربية التى نزل فيها قرآننا الكريم لا توجد أنهار ولا طمى ولم يكن العرب البدو الذين نزل القرآن الـكريم لهدايتهم يعرفون حكاية الأمطار التى تسقط على جبال الحبشة وتحمل معها مياه الطمى الى وادى النيـل ·· الأمثلة كثيرة وليس هذا مجال تعدادها ·· ولكننى أردت أن أوضح الى أى مدى أسىء استعمال التليفزيون : صوت الحكومة من ناحيـة ومن ناحية أخرى نفاق صارخ لنـوع غريب من الاسـلام فرضه علينا التليفزيون فرضا ·

أما النفاق الآخر لجماهير الشعب فهو ذلك الترفيه الأبله الغريب الذى تحفل به قنوات التليفزيون ومنذ انشائه الى الآن : مسرحيات هلس . أفلام هلس ، برامج هلس فى هلس، لا يكاد يستثنى الا بعض البرامج القليلة جدا التى تبـدو عارية تماما وسط ذئاب الهلس وكلابه النابحة ·

ولهذا لم يعد غريبا أن ينتقـل الهلس والتفريط فى القيم والاسلام الخالى من المحتوى الحقيقى لرسالة الاسـلام العظيمة ، أن ينتقل كل هذا من الشاشة الى الحياة ·· وأن تصبح حياتنا فى معظمها ، هلس فى هلس، وأن تبلغ انتاجية العامل والموظف ٢٧ دقيقة فى اليوم كأننا تحولنا الى متفرجين على الحياة فى عالم جاد يأخذ حياته وأموره بجدية ولا يخجل أبدا من نواقصه وعيوبه بل يفضها ويناقشها ويعالجها ·

ظاهرة الذين يأخذون الملايين من البنـوك ويهربون أو يعلنون افلاسهم كيف لا يناقشها التليفزيون : الغش الجماعى، الارهاب ، غلو الأسعار وجشع التجار ، التعليم الخاص الذى أصبح مهزلة والعلاج الخـاص الذى أصبح أكثر ربحـا من تجارة المخدرات ، سياستنا الخارجية ، قطاعنا العام ، قوانين

الانتخاب ، أحكام القضاء ، ألف قضية وقضية كان من الممكن أن يخوض فيها التليفزيون دون أن تسقط ــ لا قدر الله ــ الدولة أو تحدث ثورة فالثورات والسقوط تحدث حين يتجاهل الحكام ما تحفل به صدور الناس وما تختنق به حلوقهم من غيظ مكبوت ، أما المناقشة ــ وهى الديمقراطية الحقيقية ــ فهى التى لا تجعل انسانا يمسك ببندقية آلية ويقتل غيره وفى نفس الوقت يعرض نفسه للقتل أو للاعدام .

وبصراحة أقل : ان سبب هذا كله هو عدم وجود سياسة اعلامية ، سواء فى جرائدنا أو اذاعتنا وبالذات فى تليفزيوننا ــ نظرا لأهميته القصوى ــ لقد اشترى الشعب المصرى تليفزيونات بمليارات الجنيهات ويصرف على ال ٢٦ ألف موظف فى مبنى الاذاعة والتليفزيون الملايين والملايين، وكل هذا لنرفه عن أنفسنا بعد يوم لم نعمل فيه لنتعب سوى نصف ساعة .. ووجود سياسة اعلامية يحتم لابد أن يكون هناك مشروع قومى لمصر الآن .. صنع فى مصر شعار جميل ولكنه شعار الانتاج أيضا شعار أن ننتج غذاءنا شعار أيضا ، ولكن المشروع القومى هو شىء آخر هو « كل » يشمل هذه الأجزاء وغيرها ، ماذا نريد أن نصنعه خلال السنوات العشر القادمة ؟ وكيف نصنعه ؟ ماذا فى مجتمعنا من عيوب تدفعنا الى الاستدانة وكيف نخرج من المأزق ؟ .. ان أخطر أمور حياتنا متروكة للاتكال وللشطارة الفردية التى أصبحت وسيلة كل مصرى للحصول على قوت يومه وتأمين حياته وكأننا كشعب قد انفكت حزمتنا القومية وتحولنا كلنا الى أكل عيش ومستهلكين بطريقة أصبح معها من يفكر فى مصلحة الشعب مثارا للسخرية والتهكم .. ولا شك ان هناك خطة معادية وراء فك الشعب المصرى ولكنها خطة تعتمد فى تنفيذها علينا نحن كشعب وعلى اذكاء روح الاتكال والاهمال

وتكريه بعضنا فى بعضنا الآخر وقسمتنا الى مسلمين وغير مسلمين وجنود الله وجنودالشيطان واقامة بعض منا لأنفسهم مقام المولى سبحانه وتعالى فى محاسبة خلقه ليس فقط عما يفعل أو يرتكب وانما حتى على ما يحتويه مكنون ضميره والحكم عليه واتباع الحكم بالتنفيذ المدعوم المعجل .

واذا كنت أصر على التليفزيون دون سواه فلاننا نؤمن ايمانا لا شك فيه أن هذا الجهاز بما يمتلكه من شعبية وتأثير كفيل بأن يغير تماما من موقف الانسان المصرى وسلوكه وطموحه ويحل الجماعية القومية محل الفردية الانتهازية ويوقظ الضمائر التى ماتت أو فى طريقها الى الموت ويخفض من صوت الميكروفونات العالية التى تصم آذاننا عن أن نسمع أصوات ضمائرنا وأن نتأمل فى هدوء سلوكنا على ضوء تعاليم اسلامنا أو مسيحيتنا .

فى عالم واحد ـ وأكاد أقسم ـ يستطيع التليفزيون بسياسة اعلامية ديمقراطية حقيقية أن يغير تماما من وجه مصر والمصريين ، ذلك الوجه الذى أصبح مثار شكوانا بل وثورتنا بل والباعث الحقيقى الكامن وراء عمليات القتل ومحاولاته والتعصب الأعمى والارهاب .

فى عام واحد يستطيع التليفزيون أن يعلمنا الكثير ليس على نسق دروس المواد التعليمية وانما باستخدام كل طاقاتنا وذكائنا من أجل أن نبتكر طرقا لمخاطبة شعبنا مخاطبة تعلمه وتمتعه ومنها يصعد الى المستوى الذى يصبح التعليم والتثقيف والادراك والوعى ـ فى حد ذاتها ـ متعة لا تقارن بكل متع الأرض .



الشعب القوى
هو الذى يغير

لنؤجل أى موضوع آخر الى حين ، فاليوم الاثنين ــ يوم هام ، اليوم يوم الاستفتاء ، وقد يكون الموضوع المطروح هو نعم أو لا للرئيس حسنى مبارك ، ولكننى أرى الموضوع من زاوية أخرى فالاستفتاء الحقيقى فى رأيى هو الاستفتاء حول (وجود أو غياب) الشعب المصرى والارادة الشعبية المصرية،، فكلنا نعلم أن هناك شبه اجماع على اعادة انتخاب الرئيس وانه سينجح فى الاستفتاء ، سينجح فى الاستفتاء ، ما أهمية رأيى اذن ، مادام كــل شيء يدور وســوف يدور أردت أم لم أرد ؟ ٠

والواقع ان هذا الموقف الذى درجنا على قوله وسماعه والعــودة الى قوله وعودة الاســتماع اليه ، ليس فقط قولا مغلوطا ، ولكنه أصبح يمثل لى مرضا أصاب الرأى العــام المصرى لابد من علاجه واستئصاله فحتى لو كان يمثل بعض الحقيقة فان الاعتراف به والاستسلام له هــو اذعان الذين على صواب للذين على خطأ واحباط ، ومفيش فايده وكله فاسد ولا أمل فى أى شيء ٠

ان أى شعب فى الدنيا يستقر على هـذه الشـعارات الفاسدة هو شعب مريض يريد آن يمرض نفسـه آكثر • فالرجل الرجل ، والمرأة المرأة حين ينتهى أو تنتهى الى انه ليس هناك من فائدة وليس هناك مطلقا آمل ، فلابد ، اذا كان انسانا صادقا مع نفسـه آن ينتحر لأن الحيـاة فى ظل احساس كهذا هى شىء أبشع من الموت وآكثر جبنا وخسة من الانتحار ، اذ هى حياة شائكة وحشرات وليست حياة آدميين، ان الانسان انسان لأنه قادرا آن يفرض ارادته ونفسه وأن يدافع عن كيانه ووجوده ، آما الاستسلام المريض للواقع أو لمنطق الكسل القطيعى فهو أمر غير وارد فى الصفات البشرية الى الآن ، ولكنه للأسف ساد أكثر من اللازم فى مجتمعنا وآن الأوان أن يزول •

لقـد كبرنا عـلى هـذا المنطق ونحن لا ندرى والذى ساعدنا كثيرا لنكبر هو ست سنوات مضت من حكم الرئيس مبارك •

فأهم ميزات تلك الأعوام ليست هى المنجـزات الضخمة التى حدثت فى الصناعة والكهرباء والمواصلات والأنفاق ، انما أهم ميزاتها ان الانسان المصرى أصبح « آكبر » ، آكبر من التطرف باسم الدين من اضراب مؤسسة الأمن المركزى، أكبر من أن يحكم حكما ديكتاتوريا آو يغتصب السلطة عقيد أو نقيب ، آكبر حتى من آحـزابه التى تدعى انهـا تنطق باسمه ، آكبر من الفسـاد آكبر من الأجهزة والاشـخاص المرتشين واللصوص اذ يكتشفهم آكبر من آن يرى الظلم أو الجريمة ويتستر أو يقول : وأنا مالى •

نعم لقد كبرنا كشعب •

لقد أزالت ثورة ٢٣ يوليو طبقة حكمت منذ ثورة ١٩ بأجنحتها المختلفة والى قيام الثورة وقامت الثورة بمبادىء ستة آخرها كان اقامة حياة ديمقراطية سليمة أى حكم الشعب بالشعب وللشعب وطردت الثورة الاستعمار القديم وقالت : لا للاستعمار الجديد ، وحاولت أن تصنع لمصر ارادة قومية عليا ، ونجحت فى هذا تماما ، ولكنها لم تنجح بالشعب ولا قويت بالشعب ، ولكنها حققت هذا كله بأجهزة الدولة ، فقويت الدولة ، ولو كان قائد الثورة قد استخلص درس وقوف الشعب كله معه فى اللحظات التى اهتزت فيها الدولة بمختلف أجهزتها لكان قد عرف ان قوته الحقيقية لن تتأتى الا بقوة شعبه وتقوية شعبه ، وجاءت السبعينيات والثمانينات بدولة تضعضعت أجهزتها بفعل الهزيمة، ورغم هذا وبالشعب المقاتل المتحمس وقواته المسلحة كان انتصار أكتوبر ذلك الذى انتظرنا بعده أن يعم الرخاء . فعم ، ولكن على فئة خبيثة أفسدت أجهزة الحكم المضعضعة أصلا ، ولم تضف كثيرا الى قوة الشعب ، بل خفت صوت الشعب لترتفع أصوات غليظة غوغائية جعلتنا نقف حائرين مذهولين ، أمام هذا الحادث باسمنا .

وجاء مبارك ، بارادة شعبية ، فقد وضع الشعب فى لحظة اختيار بين الفوضى والهوس أو بين استمرار الدولة كدولة واختيار رئيس لها ، فالدولة فى مصر هامة جدا ، للشعب وللمواطنين ، لآلاف السنين والشعب المصرى يحيا على هيئة دولة الى أن أصبحت الدولة جزءا لا يتجزأ من وجوده ، حتى لو كانت دولة ظالمة أو يحكمها أجنبى يحتملها الشعب لأنه لا يستطيع أن يعود الى حياته كقبائل أو قرى أو أقطار وما دام قد أخذ صفة المواطنة منذ خمسة آلاف عام ، فان قبيلته وقريته أصبحت هى مصر كلها ، وأصبحت الدولة

جزءا لا يتجزأ من كيانه ونحن نقاوم التطرف باسم الدين أساسا لأنه يهدد وجودنا ككيان وكدولة ويريد أن يعود بنا القهقرى الى حكم الطوائف والنحل ٠

وقد جاء مبارك كما يعرف الجميع على أجهزة دولة شبه فاسدة ، وعلى شعب فاقد الثقة تماما فيما يمكن أن تصنعه تلك الدولة ٠

والحقيقة ان هناك شبه أكذوبة قيلت لنا وصدقناها أكذوبة ان الدولة هى المسئولة الأولى والأخيرة عنا ، وبالتالى فان رئيس الدولة عليه أن يقوم بكل العمل ، هكذا كان الأجانب يحكمون ولكان الأتراك والمماليك والالبانيون والمصريون الذين حكموه الملك أو الرئيس أو السلطان هو الذى عليه أن يحقق لنا ما نطمع فيه أو نحلم به ، فاذا لم يفعل انتقدناه وشنعنا عليه وأطلقنا حوله النكات ، ونادرا نادرا ما نثور عليه ٠

وكان مبارك أول رئيس لجمهورية مصر يدخل فى اطار وظيفة الرئيس ، فلم يحاول ـ بحكم تكوينه وطبيعته ، أن يكون زعيما ، أو محققا لكل شىء ومنجزا وحده للمعجزات كان على هذا الرئيس أن يبدأ من تحت الصفر ويحاول أن يعيد النظام الى دولة تخربت والمشكلة انه كان يحاول أن يعيد هذا النظام بنفس الجهاز المخرب ، فهو لا يستطيع فى يوم وليلة أن يجد جهازا آخر ، أو حتى اناسا آخرين ٠

وقد فعل ٠

ولا أستطيع أن أقول انه ، حتى الآن ، قد أصلح تماما من أجهزة الدولة ولا من اقتصادها ولا من مستوى الحياة فيها ٠

ولكن الذى أستطيع أن أقوله ، انه حتى بهذا الحد من الديمقراطية الذى نحيا فى ظله استطاع شعبنا أن (يكبر)٠

أجل ـ ان شعبنا اكبر بكثير مما كان عليه عام ١٩٨١ قارن بين ما يكتب اليوم ـ وان شابه فى كثير مما كان يكتب ويعلن فى ذلك الحين ، ـ وبين ما يكتب اليـوم فى صـحف المعارضة بالذات ، قارن بين موقف حـزب التجمع الذى لم يملك الا أن يجسد نشاطه احتجاجا آيامها وبين حزب التجمع الآن وهو يعلنها على الملأ ويحرض الناس عـلى أن يقولوا ، لا لمبارك ، قارن بين حزب الوفد الذى حل نفسـه أيامهـا وموقف الوفد الآن وهو يجهر بأن الاستفتاءات طريقة غير دستورية للحكم ٠

قارن بين صحف التحالف الآن وهى ترسل مندوبيها الى ايران الخومينى ـ ويعودون سالمين ويكتبـون دعاية لنظام الخومينى على الملأ وفى صحف تأخذ ورقا مدعوما من قبـل الحكومة ٠

قارن بين ضرب نقابة المحامين ، ونقيب المحامين وبين صوت النقيب والنقابة الآن قارن بين اضراب عمال السكك الحديدية وابراء القضاء لهم وبين الكبت المفروض على كل النقابات والفئات ٠

قارن بين ما كنا نحن نستطيع كتابته آيامها ، وما نكتبه الآن ، دون أى تدخل من رئيس التحرير آو الدولة ودون فصل أو امتهان ودون اتهـامات بالرذالة والصـفاقة وقلة الأدب ٠

قارن بين النقد الصريح الواضح الذى تجد كل مصرى يقوله بأعـلى صوته فى الاجتمـاعات وفى النـدوات وفى

الصحف الى درجة تكاد مصر تتحول الى خمسين مليون ناقد للحكومة، قارن هذا الصمت المخيم أيامها، صمت النرجسية ٠

ليست هذه كلها من معالم حكم مبـارك وطريقته فى الحكم ، ولكنها وهذا هو الأهم ، علامات أن شعبنا قد كبر وأزاح أثقال الحديد الجاثمة فوق ظهره ، وبدأ يتكلم ويقول رأيه وبدأ أيضا يتحرك وينتج ، ويعتز بانتاجه وبأنه مصرى بل ويحلم أحيانا بأنه ممكن ان يغير الكثير فى واقعه ، وأن يصبح أحسن وأحسن ٠

ان الزعامة القوية أو المستقوية تضعف شعبها ما فى ذلك شك والشعب القوى فى حاجة الى رئيس فقط وأبدا ليس فى حاجة لزعيم ٠٠ فان المغير الحقيقى هو الشعب وليس أبدا الحاكم مهما رفع الحاكم من شعارات ، والشعب الضعيف أمام الزعيم لا يغير شيئا ، ولهـذا لا يتغير أى شىء واحـد مآسى هزيمة ٦٧ انها كشفت لنا وقد كنا نتصور أن كل شىء يتحقق لنا ، ان شيئا لم يتحقق ، حتى داخل أقوى الأجهزة ، قواتنا المسلحة ، وحين أدرك شعبنا انه وحده المسئول عن حمايتنا واسترداد أرضنا ، كان انتصار أكتوبر المجيد ٠

★★★

ان أهم ما تحقق خلال السنوات الست الماضية أن شعبنا بدأ يمسك زمامه بيده ، وبدأ يقـوى ويرفع عنـه أيدى الأوصياء بالقوة ، وبدأ يدرك حجـم مشـاكله الحقيقى ، ويبحث عنها وينقب ، وحل المشاكل دائما يبدأ بادراكها ، مثل أى علاج لابد أن يبدأ بتشخيص دقيق ، وهـذه كلهـا علامات صحة لا نراها ، ذلك لأننا تعودنا على رؤية المرض حتى مرض نظرنا نفسه ، وفى احيان وجهات نظرنا ٠

ولهذا فأنا أعتقد أن ست سنوات أخرى من هذا النوع من الحكم الذى يقوى الشعوب هو ما تحتاجه بشدة ٠

ست سنوات أخرى أعتقد اننا فيها سنصبح أقوى بكثير مما نحن عليه اليوم ، اذا كنا نريد أن نعدل الدستور نعدله، اذا كنا نريد الانتخاب بدل الاستفتاء ، نفعل ، اذا كنا نريد أحزابا جديدة ومنابر جديدة للرأى نوجدها اذا لم تكن تعجبنا وسائل الاعلام والصحافة والثقافة والمسرح والسينما وفوضى المرور فى الشوارع ومهرجانا تالضجة الصاخبة آناء الليل وأطراف النهار ، نرفضها ، فالشعب القوى هو القادر على التغيير ، وأعتقد ان كل الأصوات حسنة النية التى تطالب بالتغيير ، تطالب بهذا لا لتحكم به ، وانما ليتيح لها وللشعب قدرا أكبر من القوة والقدرة ٠

والضمان الوحيد لهذا أن يستمر مبارك كرئيس للجمهورية بتلك المواصفات نفسها التى حكم بها ست سنوات خلت ، أما التغييرات فسوف نحدثها نحن حين نؤمن ايمانا حقيقيا ان الدولة جهاز يديره مواطنون لهم كل أعيننا وليس فيهم كل ميزاننا ، واننا وحدنا حين نقوى كشعب سنقوى كدولة وسنقوى كعقول مفكرة وكارادة قادرة على تحقيق هذه الأفكار ٠



لهذا أقول صادقا مع نفسى ان التقاعس عن ابداء الرأى فى هذا الاستفتاء هو استكانة مرضية لفكرة أن رأى كل منا بمفرده غير مهم ، فالشعب القوى لابد أن يكون مكونا من أفراد أقوياء ، وليس من صفات القوة أن يتنازل الانسان ولكن قانون انتخابه وهؤلاء الذين ركبوا موجة الحزب

ستوحى لنا وللعالم اننا تغيرنا الى الأحسن واننا أصبحنا قوة يحسب حسابها قولوا نعم أو قولوا لا، فالمهم أن نكون هناك، أن نترك الصحيفة جانبا ويرتدى كل منا أحسن ما عنده من ثياب ويقـول لأولاده وأسرته أنا ذاهب لأقول رأيى الذى امتنعت عن ابدائه سنين طوالا ، لأنه فى الحقيقة لم يكن له وزن ، وكان اجراء شكليا محضا . هـذه المرة حين نذهب كمواطنين أقوياء نقول نعم أو نقول لا ، فأنا اصوت اذن مع حقى فى ابداء رأيى وواجب الجميع وعلى رأسهم مبارك أن يحترموا هذا الرأى وأن يعملوا به ٠

فرق كبير أن يحدث الامر الواقع بغير ارادة منا وبين أن يحدث بارادتنا فاذا تعلمنا معا أن تكـون ارادتنـا هى الفيصل فاننا لن نكتفى فى المرة القادمة بأن نقول نعم أو نقول لا ، وانما سنملى رأينـا بالتفصيل ونثبت حقنـا فى المفاضلة بين مرشح وآخر ، ونوجد نحن وليس المحترفون فقط ، على الساحة ٠

انى أقولها ، بكل الصدق مع نفسى ومعكم نعم لست سنوات أخرى من حكم مبارك ، فهو وحده الطريق لأن نكبر أكثر ونقوى أكثر ٠

واذا كانت الاعلانات والصفحات قد أزعجتكم مثلمـا أزعجتنى فذلك عمل أجهزة وأشخاص يريدون أن يضمنوا المستقبل ٠

فلا تدعوا الضجة تخفى الحقيقة ، والحقيقة الوحيدة هى نحن ، هى عند الأصوات فى صناديق الاستفتاء ٠

أم نفعل مثلهم ونتعاون معهم على اخفاء الحقيقة ٠



وداعا أيها المجلس
وإلى غير لقاء

مهما تكن الأسباب التى حدت بالرئيس حسنى مبارك الى حل مجلس الشعب (أو فلتسمه الاستفتاء حول حل مجلس الشعب ، اذ النتيجة معـروفة) مهما تكن الأسـباب ، فان الفرحة التى عمت الناس جميعا ــ الا أعضاء المجلس بالطبع ــ لم تكن فرحة اناس مراهقين يهللون لأى تغيير مهما كان ذلك التغيير ، وانما هى فى الحقيقة فرحة شعب ناضج قديم مدرك تماما لماذا يفرح اذا فرح ، ولماذا يغضب اذا غضب. وبصرف النظر عن دستورية أو عدم دستورية المجلس المنحل ، فما رأيت فى حياتى مجلسا أجمع الناس على عدم فاعليته مثـل ذلك المجلس المنحل ، مجلس تشكل كملابس المجـاذيب فى الحسين ، أو كخبز الشحاذين (من كل بيت لقمة وطعم ولون ونوع) كل يحتوى معارضة وفيه تمثيل صورى لأحزاب ، ولكن قانون انتخابه وهؤلاء الذين ركبوا موجـة الحـزب الوطنى وبعض الأحزاب الأخرى ليكون لهم الحق فى الترشيح جعله لا يمثل أبدا امكانات شعبنا الوطنيـة والسياسـية ، وقياداته الحقيقية ، انما هو بقايا ورواسب الذين احترفوا الترشيح والانتخاب وبرعوا فى أساليب التسلق والنفاق ، منذ أيام هيئة التحرير الى الحـزب الـوطنى الديمقراطى ،

لا أحد (الا القليل جدا) يمثل مذهبا أو اتجاها أو لديه برنامج ما لحل مشاكلنا أو اصلاح أمورنا ، لا وضع يهمه الا وضعا شخصيا متربعا عليه وأحيانا يتكسب منه ويصبح قريبا من الوزراء والكبراء وذوى النفوذ ٠٠ فى الحقيقة مجموعة من البشر كنت أراهم في التليفزيون وأحاول قراءة تعبيرات وجوههم . وما تحويه أدمغتهم . فلا أجد فى عين أى منهم بريق حماس أو قدرة على أعمال فكر ، أو أملا ولو ضئيلا فى تلك الوجوه المنطفئة التعبير أن تصنع لنا أو لبلادنا شيئا ، موافقون ؟ ترتفع الأيدى كرايات الجيش المهزوم توافق ، وهى لا تعرف لماذا توافق الا لأن الرأى أو القرار صادر من الحكومة ، المعارضون ، مجموعة محفوظة من الأيدى ، تكمم الاغلبية أفواهها وتصرخ كالاطفال المتشنجين وتدق الارض بأقدامها احتجاجا على رأى مخالف يقال ، ولو كان هذا الرأى المخالف نفسه أكثر خدمة لمصالح الشعب أو الحكومة ، ولكن ، لأن قائله مدموغ بأنه معارض أو من الجنس المنبوذ ، فلابد من اسكاته وكتم أنفاسه ، والتشويش عليه حتى يخمد رأيه ، كنت أرى هذا ، ويراه غيرى ، فأقول لنفسى ، يا ربى : ما فائدة هذا المجلس وما فائدة هؤلاء الناس ، ولماذا تلك الميزانية الضخمة تنفق على (شكل) ديمقراطى لا معنى له ولا مضمون بالمرة الا أن يقال ان عندنا أحزابا وعندنا مجالس وعندنا حرية رأى بينما ما عندنا ليس الا (ترحيلة) و (أنفار) جىء بهم ليحتلوا الساحة ، ويخلوها ! من أى فكر أو نبض أو جهد صادق فى سبيل مناقشة أمورنا ومشاكلنا والخروج بحلول حقيقية ممحصة ، تفيدنا وتفيد أولادنا من بعدنا ٠

انه فى الحقيقة لم يكن مجلسا ، ولكنه كان (طبقة) احتلت كراسى الحكم والتمثيل النيابى ومجالس المدن والقرى

واللجان والمراكز الحساسة ، احتلتها منذ زمن بعيد، وتلونت وتشكلت مع كل تغيير فى الرئاسة والقيادة يحدث ، ولاتزال تحتل الساحة ، بعيون لا تعرف الخجـل ، وبفنون محترفى الشجار واطفاء الأنوار وفض الموالد ٠

وأكثر ما آسف له انى لم آقل هذه الكلمات التى تعبر عن رأيى الحقيقى ، وهـذا المجلس قائم وموجـود ، كنت مستعدا أن أقولها لقوم يعقلون ، ولاناس يعرفون ويقدرون حكمة الرأى وحرية ابدائه ، أما هؤلاء فلم يكن ممكنا ، بل كان مستحيلا تماما أن تقول لهم الرأى الصادق ، خاصة لو كان رأيا فيهم هم شخصيا ، انك حينئذ لن تقـابل بالآراء الأخرى أو بالردود المكتوبة أو المقـالة ، ولكنك سـتقابل بالهراوات ، والاتهامات ٠



مرحبا اذن بقرار حل هذا المجلس ٠

ولكن هذا ليس كل شىء ٠

فنحن لا نريد أن نحل مجلسا ، لنآنس بنفس أعضائه ، متنكرين أو بنفس أرديتهم، لا نريد آن نهز روح الأمة بقرار اجراء الانتخـابات ليتمخض الأمر عن عـودة ، « وربمـا لعادتها القديمة » ٠

بصراحة ٠٠٠

لا نريدها مجرد انتخابات تجرى لاحلال وضع دستورى محل وضع غير دستورى ٠

ولكننا نريدها انتخابات لتحقيق الهبة التى نادى بهـا الرئيس مبارك ، وتحقيق الصحوة والانفجـارة السـلمية

البانية التى نادينا ونـنـادى بتحيقهـا ، نريدها انتخابات توقظنا ونستيقظ بها ، ترد لنا الروح ، وترد بهـا الروح لبلادنا وحياتنا ومجريات آمورنا نريد وجوها غير الوجوه ، وأيد قوية ، تؤيد بقوة اذا آيدت وتعـارض بقـوة ، اذا عارضت لا نريدها (ترحيلة) تأييد وتشويش عـلى الرأى الآخر ، وانما مجلس عقلاء ـ سواء أكانـوا مؤيدين أم معارضين ... يعتبر كل منهم آن الآخر آو الآخرين لا يقلون حبا لنا ولبلادنا ولمصلحتنا عنه ، اذا استمع الى الرأى يجيد استماعه ، واذا عرضت المشكلة ينكب عليها دراسة وتحليلا ووصولا الى رأيه واجتهاده الخاص فى حلها ٠

مجلس يليق بمصر ٨٧ ، فمنذ مائة عام وأكثر كانت مجالسنا النيابية والتشريعية وحتى الاستشارية أكثر قوة وفاعلية ونضجا من تلك المجالس التى مللنا وجودها منذ أول مجالس ما قبـل وبعـد عام ١٩٥٢ الى الآن ، مجالس يفخر المصريون بأنه مجلسهم وقيادتهم الجماعية الحقيقية ٠

ويفخر هو ـ هذا المجلس ـ انه مجلس مصر الداخلة على القـرن الـواحد والعشرين مصر القـادرة عـلى آن تصبح ديمقراطيتها نموذجا للديمقراطية فى العالم الثـالث كله ، القادرة على افراز العلماء والمفكرين والقادة والنواب الذين لا يقلون كفاءة ورجاحة وثقة بالنفس عن نظائرهم فى دول العالم الأول ٠

★★★

ان أكثر ما يميز الرئيس حسنى مبارك هو حساسيته لما يعتمل فى قلب الناس وما يدور وراء آقنعة ابتساماتهم ، وحتى سكوتهم ان سكتوا ، وذلك الاجتماع الذى عقده معنا

الرئيس محمد حسنى مبارك عقب زيارته لمعرض الكتـاب كان حريا أن يتحول الى مؤتمر مصـغر للمثقفين والكتـاب يفتح لهم الرئيس قلبه ويفتحون له قلوبهم ، واعتقـد أن الرئيس حرص فى العام الماضى ، وفى هذا العام أيضا عـلى تقليد الاجتماع بالكتاب والمثقفين فى عيد الكتـاب لهـذا المعنى . ولكن القلـوب ، قلب الرئيس وقلوبنـا ، ما كادت تتفتح حتى انبرى أصحاب الأصوات العالية الغليظة يدافعون عن الرئيس وسياسته وكأنه معاذ الله موضع مساءلة ، فى حين ان الحديث كان موضع استفسار ومناقشة ، علت أصواتهم وصخبهم تثبت للرئيس انهم هم وهم وحدهم الذين يتبنون سياسته ويؤمنون بها ومستعدون للاستشهاد فى سبيلها ، فى حين انهم فى رأيى ليسوا سوى (كذابى زفة) وان أولئك الذين يريدون مناقشة الرئيس وفتحوا قلـوبهم له ومعرفة ما فى قلبه هم أولئك المقاتلون المخلصون الذين ـ عندما يجد الجد ـ هم الذين سيقفون يدافعون بصدورهم وأرواحهم عن ذلك الحاكم المصرى المتواضـع فى غير تكبر ، الديمقراطى بحكم التكوين الهاوى لرفع الشعارات ثم الضرب تحت الحزام فى الظلام .

أجـــل .

مرحبا بقرار حل ذلك المجلس .

ويا شعبنا العظيم ، ها قد جاءت الفرصـة وانتخبـوا مجلسا يليق بنا وبكم ، فان التفريط فى صوت أى منكم ، وأداء الانتخاب وأنتم منومون بالقرابة والمحسوبية والكلام المعسول ، هو فى رأيى خيانة .

فليعتبر كل من ينتخب من لا يؤمن بأحقيتـه لتمثيـل الشعب المصرى كله انه قد خان الأمانة ـ أو بمعنى أدق خان

مصر ، مصر التى لابد أن ترفع عن كاهلها الكآبة والفتور وفقدان الهمة واليأس التى استشرت فى الفترة الأخيرة وتتطلع الى مستقبل سريع توجده وتخلقه وتحتل به مكانتها الجديرة بها ٠

المستورد الخفى

تابعت بذهول حكاية الألبان المجففة الحاملة لكم من الاشعاع القاتل ، وأعترف ان متابعتى للموضوع جعلتنى أعتقد ان حياتنا لا يمكن أن تمضى هكذا أبدا واننا وصلنا الى نقطة ما بعد الخطر ٠

ودعونا من الحديث عن تلوث جو مصر ـ والقاهرة على وجه الخصوص ـ بحيث أن تلوثها أصبح يعادل عشرة أضعاف الحد المسموح به للتلوث فى أى مدينة أو مجتمع بشرى ـ لا أذكر الرقم على وجه الدقة ولكن ما أعرفه ان التلوث فى أجواء القاهرة هو أعلى معدل للتلوث فى العالم٠

دعونا من هذا ٠

ودعونا من التلوث الضجيجى الذى تحفل به مدننا وقرانا ، صباحا ومساء ، وفجرا وليلا ، وفى كل وقت ٠٠

ودعونا أيضا من هذا فليس ذلك هو موضوعنا هذه المرة ٠

فنحن نعرف كل تلك الحقائق المرعبة عن الظروف غير الملائمة للحياة التى يعيش فيها الانسان المصرى ٠٠٠

ومع هذا فنحن صابرون ، فى انتظار الجنة ، فالجنة ـ هكذا قال الله سبحانه ـ للصابرين ٠

ولكن حكاية اللبن المشع تلك قصة لا يدرى الانسان أيموت ضحكا منها أم يموت كمدا ، فهى قصة ـ كما يقولون ـ لها العجب •

انها جريمة ، قصة جريمة عادية من الجرائم الكثيرة التى يرتكبها المجرمون الساعون الى الربح ولو على حساب حياة البشر ، شركة ألمانية مجرمة ، أنتجت كمية هائلة من الألبان ، حين فحصتها وزارة الصحة الألمانية وجدت ان نسبة الاشعاع بها أضعاف أضعاف النسبة القاتلة للانسان سواء أكان طفلا أو رجلا ، وهكذا أمرتها الحكومةالألمانية بالتخلص من تلك الالبان ولو كانت آلاف الآلاف من الاطنان ، ودخلت الشركة فى مفاوضات مع الشركات الامريكية (أو اللجان الحكومية لا أعرف بالضبط) التى تخصصت فى دفن النفايات الذرية والتخلص منها ، لتتخلص من ذلك اللبن القاتل ولكن السلطات الأمريكية رفضت أن تقوم بالعمل، لكثافة الاشعاع ولم يبق أمام الشركة الالمانية الا أن تقوم باعدام الألبان بنفسها ، واعدام تلك الكمية الهائلة وبطريقة لا يتم بها اعدامها فقط ولكن أيضا بالتخلص من الاشعاعات المذابة الكامنة فيها ، عمل مكلف جدا ! لكن فكر عقل مجرم شرير فى تلك الشركة الألمانية فى ألا يتخلص من تكاليف ومجهودات اعدام الألبان فقط ، ولكن أن يبيع تلك الألبان نفسها ، ويحول الخسائر المتوقعة الى ربح رهيب باهظ •

وهكذا أطلق سماسرته فى دول العالم الثالث ، لانه يعرف ان تلك الدول لا تدقق كثيرا فى فحص وارداتها الغذائية وبالأخص لا تدقق كثيرا فى المحتوى الاشعاعى لتلك الأغذية ومقاديرها •

وهكذا التقى هـذا السمسار بمستورد مصرى ، مجرم هو الآخر ، واتفقا على الصفقة ، يشتريها المصرى بأبخص سعر ، وينجح فيها الألمانى بالتخلص منها ويبيعها بأى سعر ، أو حتى بابعادها عن ألمانيا بلا سعر ولا تكلفة اعدام .

ووصلت الشحنة الأولى التى احتوت على ستة وعشرين ألف صندوق على مركب شحن الى مياه الاسكندرية ، وجرت، أو كانت جارية عملية الانزال الى الشاطىء تمهيدا لتمريرها من الجمرك وبيعها فى الأسواق بنفس السعر الذى تباع به الألبان السليمة وكان كل شىء جاريا فى صمت وعـلى أتم ما يكون من السرية والتوفيق ، الى آن حدث ما لم يكن أحد ـ لا الشركة الالمانية ولا المستورد المصرى ـ يتوقعه ، وأعلن رئيس وزراء المقاطعة الالمانية عن الصفقة الاجرامية بل وحدد الجهـة التى أرسلت اليها الشـحنة القـاتلة ، ميناء الاسكندرية بالذات .

وكانت صحافتنا حسنة النية تماما ، فنشرت تصريح رئيس الوزراء وخبر وصول الشحنة وخبر انزال محتوياتها .

وغضب الرأى العام ، وانصب غضبه على سؤال واحد : من هو المستورد المصرى الذى ارتكب هذه الجناية العظمى فى حق مصر وأطفالها وآدمييها ، الى هذا الحد كانت الأجهـزة المصرية صامتة صمت القبور ، وكأنهـا هى الأخـرى فى انتظار اعلان اسم المستورد ليتم القبض عليه وعقابه ولكنى فوجئت كما فوجىء الناس جميعا فى مصر بالأجهزة المصرية وقد بدأت تتحرك .

بيان لمجلس الوزراء ان مصر لا يوجد بها أى لبن مشع وأن لا صحة لما نشرته الجرائد .

بيان من وزير الصحة يؤكد ان جميع الأغذية المستوردة ومنهـا الالبان تخضـع لفحص ميكروبيولوجى وكيميـائى واشـعاعى دقيق وانه لا صـحة لما قاله رئيس وزراء ألمانيا ونشرته الصحف المصرية بحسن نية أو على الأصح (بسذاجة وغفلة) ٠

وأنا أعرف الدكتور محمد راغب دويدار وزير الصحة وأعرف انه كان من أكفأ أطباء الوزراء الذين عركوا مناصبها ومستويات تلك المناصب الى آن أصبح ـ بكفاءته وتفانيه فى عمله ـ وزيرا للصحة وهو ربما أول وزير صحة يأتى من قلب أطباء وزارة الصحة أنفسهم وليس من خارجهـا كما جرت العادة ٠

بل وأعرف أنه لا يعد مسئولا أبدا عن تسرب أى غذاء فاسد أو مشع وانما المسئول هو جهاز يخضع لاشرافه اذ هو لا يذهب بنفسه الى الموانى التى ترد اليها الأغذية ليفحصها ٠

وأعرف ان مجلس الوزراء لا علاقة مباشرة له باجراءات فحص الأغذية ، انما علاقتـه بها علاقة سيادية أو اشراف سياسى ٠

ولذلك كان صـدور تلك البلاغات التى تكذب رئيس وزراء ألمانيا الذى (تجرأ) وأعلن عن فساد البان المانيـة وحذر منها ، ليبعد أى فضح عن بلاده وشركاتها ، وكأنه هو المجرم الحقيقى أو هو الـكذاب الذى يفترى عـلى شركات بلاده ، ويتهمها بالغش والجرم ٠

وحينما نقرأ أن الشـحنة لا تزال فى المـركب خارج رصيف ميناء الاسكندرية وأن ما هبط عينات للفحص ليس الا ، وحينما أقرأ ان السلطات أمرت بارجاع السفينة من

حيث أتت ، أقرأ شيئا متناقضا تماما ، من نفى قاطع ان لبنا مشعا أو فاسدا قد استورد الى مصر ، الى تأكيد ان الشحنة جاءت وفرغت وكانت فى سبيلها الى السوق والى المستهلك، وحينا أقرأ ان الباخرة محجوزة بعيدا عن الرصيف • وحينا أقرأ انها أعيدت •

ولكننى أبدا أبدا لم أقرأ شيئا لا عن مجلس الوزراء ، ولا عن النائب العام ولا عن أى جهة قضائية أو حجر صحى أو ادارة صادرات أو واردات عن اسم ذلك الجانى الغريب الذى تعاقد وشحن وجلب اللبن المشع القاتل ، ولا يجرؤ أحد على اعلان اسمه ، بل بدلا من هذا يقومون نيابة عنه بنفى التهمة كلية ، وابرائه من تهمة ادخال مواد قاتلة على هيئة غذاء للأطفال كانت العلبة الواحدة منه كفيلة على الأقل بقتل طفل ، أى تهمة الشروع فى قتل ٢٦ ألف طفل مصرى برىء بسبق اصرار ووعى وترصد •

وأغلب ظنى انى لن أقرأ اسم هذا المستورد مادام مجلس الوزراء ــ بجلالة قدره ــ قد برأه ، وأنكر وجوده ، وأنكر أصلا أصلا وجود جسم الجريمة ، وكأن جريمة كبرى لم تكن قد تمت أركانها جميعا بحيث ان أقل عقاب لمرتكبها كان لابد أن يكون السجن المؤبد ان لم يكن الاعدام •

أجل ــ أيها القراء الأعزاء •

ان الذى قام بهذه الجريمة مصرى عنده طاقية اخفاء باتعة الأثر بحيث قام بكل ما قام به أمام سمع وبصر مجلس الوزراء وجميع أجهزة الدولة دون أن يراه أو يعرفه أو سمع عنه أحد •

هل تفعلون مثلى وتموتون من الضحك ٠

أم تموتون كمدا ٠

★★★

اختاروا آيا من الطريقتين ، فكلتاهما أهون بكثير من الموت بالاشعاع السرطانى ، وفى كل الحالات ستموتون دون أن تعرفوا أبدا اسم ذلك المجرم القاتل الذى لا يريد أحد أن يفصح عن اسمه ٠

انى أتحدى أجهزة الدولة بكافة مستوياتهـا أن تعلن اسمه وصفته ، اذ يبدو انه أقوى كثيرا من أجهزة الدولة ٠

ولا أقصد بهذا ، المندوب الغـائب ، بعض الرؤسـاء المسلمين الذين لم يحضروا المؤتمر ..

انما هو مندوب آخر ، لن أنتهى من هذه الكلمة الا وقد عرفناه .

فهذا ليس مؤتمرا اسلاميا آخر يعقد .

وليس مجرد منبر عربى اسلامى آخر سيقف كل رئيس أو ملك ليتحدث فيه حديثا بليغا عن (المخاطر) التى تحيق بالأمة الاسلامية وعن (التشرذم) و « الفرقة » التى أصبح عليها المسلمون اليوم عن آحوالهم التى تدهورت وأصبحت وسائل الاعلام العالمية وليس لها من عمل الا نشر غسـيل المسلمين على العالمين لكى يبدو قذرا والا نشر آخبار الفضائح السياسة العربية والاسلامية وملء آدمغة الرأى العام الغربى بصورة مسلم ارهابى يخفى الخناجر والمتفجرات فى عمامته ولا يتوانى عن ذبح أخيه تحقيقا لما نطقت به طبيعته من حقد على الغرب والشرق معا ونزعة الى الارهاب والاجرام عموما، نفس وسائل الاعلام والاتصال التى تولت تغـذية مخيلة

القرن التاسع عشر والعشرين بصورة اليهودى البخيل المرابى الذى لا يتــوانى عن اقتطاع جــزء من لحم آى بشرى وفاء لدينه ، صورة شيلوك شكسبير تاجر البندقية ، لا ، لقد ذهبت تلك الصورة الى الأبد ، وحلت محلها صورة يهودى حساس شديد التقوى متحضر السلوك واقف بأطفاله وشيوخه ونسائه مهددا من قبل عربى مسلم له لحية قاتل ، وأنياب سفاك ، يرتدى العقال ويحمل صرة الملايين ويهــدد عالم الغرب وحضارته بالفناء ٠

لا ٠٠ ليس هذا المؤتمر مجرد منبر آخر سيقف عليــه كل رئيس أو ملك يعيد شرح الفضيحة العربية والاسلامية ، ويناشد الضمير العالمى أن يستيقظ و « ويحن » عــلى عالم المسلمين بقليل من الرحمة والرأفة والقروض والتأييد ٠

نعم أخشى ما أخشاه أن يتحول مؤتمر الرؤساء المسلمين الى « مكلمة » ومحزنة تلطم فيها الخدود وتشق الجيوب على الحال المسلم المائل ٠

فهذا أخطر مؤتمر قمة اسلامى يعقد ٠

ويعقد فى آخطر مرحلة وصل اليها العالم الاســلامى والعربى منه على وجه التحديد ٠

ذلك الذى بدأ فيه المســلمون يأكل بعضهم بعضــا ، ويذبح بعضهم بعضا ويدمرون بلادهم بأنفســهم وبأيديهم ويفعلــون بأوطانهم ما لم يجــرؤ عــلى فعله آى تتــار أو استعمار أو مغول ٠

ولهذا فانى ، ومعى على ما أعتقد كل من بقى لديه ذرة من ادراك ووعى وبصــيرة ، نرجو من مؤتمركم هذا ، أن

يكون شيئا آخر غير ما درجت عليه مؤتمراتكم ٠٠ فهو ليس مؤتمر مسئولين أو حكام هـذه المرة ، وانما هـو مؤتمر مساءلين أكاد أقول مؤتمر متهمين ، اذ أنتم بأنفسكم الذين توليتم ايصال عالمنا العربى الى تلك الحالة التى هو عليها ٠٠ فاذا كان للمسلمين أعداء هم الذين يكيلون لهم الضربات تلو الضربات ، فأقسى تلك الضربات وأشدها فتكا يأتيها منكم أنتم ، من القيادات التى حضرت والتى لم تحضر ٠

حتى أوصلتمونا الى مرحلة الهزيمة الكاملة ٠

أجل ، بصراحة أيها السادة « اجتماعكم هـذا » اذا وضعناه تحت عدسة الحقيقة المجردة ، والواقع ، والنظرة الموضوعية البحتة اجتماعكم هذا ، هو اجتماع مهزومين ٠

الكلمة بشعة ومروعة ، وأنا متأكد ان الكثيرين سيغضبون لها ومنها ، وبل ربما كان رد فعلهم أشد وأقسى ٠٠ ولكن الوقت أيها السادة كما قلت لم يعد وقت مجاملات، ولا وقتا لتهوين الأمر على النفس أو الضحك والكذب عليها ٠

لقد كذبنا على أنفسنا ، واسمحوا لى أيضا أن أضيف كذبتم علينا طويلا وكثيرا ، وكنا باستمرار نصدقكم ، وكنا باستمرار نتلقف كلماتكم الهادرة التى تتحدث عن حتمية وقوفكم فى وجه طغيان العدو ، وتعهدكم اننا حتما منتصرون ٠٠ كثيرة وطويلة هى الخطب والتصريحات والخطابات الجماهيرية المباشرة فى عشرات المناسبات ، الخطابات التى تنطلق بل وتجأر بتعهدكم بالحفاظ على الأرض والعرض والشعب والوطن وكانت الأحداث تتوالى وظلت تتوالى الى اليوم، اليوم الذى وصلنا فيه الى مرحلة الهزيمة ٠

وها هو ذا اجتماعكم التاريخى يحدث تحت رايةالهزيمة وليس أبدا تحت ظل راية أخرى ·· فهو أبدا ليس اجتماعا نجتمع فيه علـى أثر انتصـار ولو ضئيلا حققناه ، وليس اجتماعا تحت ظل وضع اسلامى متأزم كالعادة ولابد لنا من البحث عن حل لأزماته انما هو اجتماع ، وأقولها بايمان من آلى على نفسه ألا يخدع نفسه أبدا أو قارئه ، اجتماع يقع فى ظل هزيمة عربية واسلامية ·· هزيمة تكاد تكون أبشع هزائمنا فى طول التاريخ وعرضه ، آبشع من هزيمتنا فى « بواتييه » أمام الفرنسيين ، آبشع من هزيمتنا فى غرناطة أمام الاسبان وضياع الأندلس ، أبشع من هزيمتنـا أمام جحافل المغول وقبائل آسيا التركية ، آبشع من هزيمتنا من فرنسا وانجلترا بتهامة الحرب العظمى الأولى ، بل أبشع من هزيمتنا الاولى فى عام ١٩٤٨ أمام اسرائيل ·

★★★

فى أعقاب هزيمة ٤٨ بل وأثناءها حدثت لنا هزة عميقة أيقظتنا كلنا حكاما ومحكومين ، أجـل كلهم اسـتيقظوا ، الحكام بعضهم فقط هو الذى اسـتيقظ ، وبدأ يدرك مدى المصيبة التى حاقت وحلت ويعى بانتفاضة الشعوب العربية والاسلامية القادمة ولا يقف آمامها ، ويحاول مع الاستعمار ضربها ، كما تصرف البعض بغباء الرجعية التقليدى ولكنه فطن لها وانضم الى قضية التحرر الاسـلامية العربية التى كانت أرض الواقع قد بدأت تدمدم بها ·· آما أولئك الذين سدروا فى غفوتهم وغفلتهم فقد أطاحت بهم عجلة التاريخ حين حركها الشعب الاسلامى وتحرك بها ، ووقفت الشعوب الاسلامية العربية تنفض عن نفسها الغيبوبة التى كان يبقينا الاستعمار الانجليزى والفرنسى تحت تأثيرها ، وهبت أممنا من باكستان فى أقصى الشرق ، الى المغرب الدار البيضاء ،

تدرك أن هزيمة ٤٨ انما هى هزيمة أنظمة وحـكام طال تعاونهم مع الانجليز والفرنسيين والغرب بشـكل عام ٠٠ وقامت ثورة ٢٣ يوليو ، ثورة الشعب المصرى العربى المسلم تعزل الملك الذى خان قضيتها وجعلها تدخـل الحرب بأسلحة فاسدة وتقبل الهدنة الخائنة التى حدثت أثنـاء معركة ٤٨ ليتحول الانتصار الذى حققته جيوشنا العربية الباسلة الى هزيمة عسكرية ، والى تدشين قيام دولة اسرائيل بالعالم كاملا بغربه وشرقه يعترف بها وبشرعية اقتطاعها معظم فلسطين واعتبارها دولة شرعية لها كل حقوق أعرق الدول ، وليس عليها أبدا أى واجب من واجباتها ٠

وعادت جيوشنا التى كتفوها بالهزيمة الى بلادنا لتدرك ان عدوا جديدا لم تكن قد عملت له ولوجوده حسابا ، وكان كفاحها ، وكانت كلمة الاستعمار حتى تقولها أو تدركهـا تعنى فقط الاستعمار الغربى المجسد فى الاحتلال العسكرى بقواعده وقوته وعتاده ٠

أدركت جيوشنا ومن ثم شعوبنا ان الاستعمار قد غرس بيده شـيئا قال هـو عنه انه دولة وقلنا نحن عنه انه دولة مزعومة ٠٠ وأكدت لنا قيادة ما تبقى من الجبهة الفلسطينية الوطنية انها لن تبدأ حتى تلقى بتلك الدولة المزعومة فى البحر وتعيـد الأرض المغتصبة الى أصحابها وتنتزع هـذه الشوكة المسـمومة التى غرستها قوى متآمرة كثيرة فى قلب وطننا ٠

وبرغم اننا كلنـا رحنـا نتحدث عن هزيمة ٤٨ وعن ضرورة وحتمية نشوب معركة جـديدة تنتصر فيهـا الأمة العربية المسلمة التى كانت لا تزال هى الحامية والراعيـة للقدس الشريفة موطن كل الأديان وكعبة كل المؤمنين رغم

اننا رحنا « نتحدث » عن الهـزيمة الا آن القليلين جدا هم الذين وعوا حجم تلك الهزيمة ونظروا الى أبعد من كونهـا معركة عسكرية هزمت فيها سبعة جيوش عربيـة • فقط نتيجة النظم المهترئة التى أثبتت فشـلها فى أول اشـتباك عسكرى مع عدوكان جيشه لا يزال فى حـكم العصـابات الارهابية التى بالكاد توحدت وانضمت ، وبارجون تشفاى ليومى والهاجاناه ، تشكل ما سوف يصبح اسمه بعد هـذا جيش الدفاع الاسرائيلى وما سوف يثبت انه ليس مجرد جيش للدفاع عن مجتمع صغير ضعيف من المهـاجرين الأوروبيين اليهود •• انما هو فى الحقيقة ميلاد أخطر قوة اسـتعمارية ــ لم تقد ــ وانما زرعت وصنعت من قلب منطقتنا نفسها وأيضا فى قلبها •

فكما أثبتت الوثائق بعد هذا لم يكن اختيار فلسطين لتكون قاعدة للاستعمار الاستيطانى القادم عبثا لقد اختيرت لتشطر الامة الاسلامية بشكل عام والامة العربية بشكل خاص الى شطرين كبيرين •• تمهيدا للتشطير والتقطيع والتجزىء والتشرذم ــ والهزيمة الكاملة القادمة •• ولو كان الوجود الاسرائيلى قد بقى على هيئة اسرائيل ٤٨ بالضفـة الغربية وجزء من الشرقية عربية وكذلك قطاع غزة وصحراء النقب والقدس ، لما عاشت اسرائيل ، ولماتت كما تموت ، الشتلة ، اذا نقلت الى أرض غريبة وبقيت على حالها • عملاق الشعب المصرى يخرج من القمقم المحلى الذى حبسوه فى داخله طويلا، القمقم الذى كان يؤمن بأن مصر بلد فرعونى التاريخ لايمت بصلة فى أهـدافه وتوجهـاته الى البلاد العربية وحتى الى آسيا وأفريقيا وان تطلعه علميا وفلسفيا وحضاريا لابد أن يتجه عبر البحر المتوسط الى الشمال الانجلوساكسونى ومن ثم الأمريكى •• عملاق هائل خرج يغلى بفلسـفة الثـورة

الجديدة المؤمنة بعروبة مصر وانتمائها الاسلامى الكامل وجذورها الضاربة فى أفريقيا وآسيا .. وتطلعاتها الى وحدة عربية شاملة مع شقيقاتها العربيات ووجود اسلامى عالمى يضمها الى الاطار الاسلامى الاوسع الذى يجمع الشعوب المسلمة فى آسيا وأفريقيا من شمال وجنوب شرقى آسيا الى افريقيا بشمالها وجنوبها ووسطها ، وكل هذا العالم سواء فى دائرته الأكثر صغرا ، الدائرة العربية أو دائرته الأكثر كبرا ، دائرته الاسلامية مركزها مصر ، هى بمثابة القلب منه وهى الرابطة بين شرقه وغربه وبين أفريقيته وأسيويته وعالمه الثالث كله .

أجل شيئا فشيئا بدأت تتكشف ملامح المؤامرة الكبرى على العرب والاسلام اللذين يشكلان العمود الفقرى للعالم الآسيوى والافريقى الثالث يتكشف ان اختيار اسرائيل حتى ولو انهم حاولوا اخفاءه بالشعارات التى لا تتوقف على أرض الميعاد وشعب الله المختار وحائط المبكى والحق التاريخى يتكشف ان السبب الأهم يكمن فى انه من مثل هذا الموقع الذى اختير لتقوم عليه اسرائيل يمكن دق اسفين قاتل فى قلب الأمة العربية أولا ثم العالم الاسلامى ثانيا ثم العالم الآسيوى الافريقى الثالث كله ثالثا .

ولكن العقبة الكبرى أمام هذا الاسفين كانت واضحة وجلية لكل ذى عينين ، مصر .. ان وجود مصر الدائرة القومية المعادية للغرب الاستعمارى مصر العربية المسلمة غير المنحازة القائدة والمثل والمثال أمام شعوب آسيا وأفريقيا والعالم الثالث وجود مصر ، بهذه الخطورة فى الموقع والمكانة وبتلك القوة التى بدأت تتبدى ، هذا الوجود خطر رهيب على المشروع الاسرائيلى الامريكى الاستعمارى كله ، يهدد بوأده والقضاء عليه .

ولهذا كان الهدف الأول طبيعيا ومنطقيا جدا ٠٠ ان فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لم تتكشف عن شعوب عربية واسلامية أطاحت بالاستعمار القديم جانبا وتطمح الى وجود مستقبل مستقل متين ولكن ثبت ان تلك البلاد تمتلك فى جوف أرضها آعظم كنز عرفه تاريخ البشر كنز الطاقة البترولية التى يعتمد وسوف يعتمد عليها الغرب خلال ــ على الأقل ــ الأعوام المائة القادمة لكى يعيش ويصنع ويتدفأ ويأكل ويحيا ويرى ٠٠ كنز تحيا فوقه شعوب عربية اسلامية « متخلفة » لولا مصر التى كانت قد قطعت شوطا طويلا فى طريق التقدم ٠

فهل معقول أن يترك الغرب الاسرائيلى الاستعمارى وضعا كهذا قائما ان معناه ببساطة آن يسلم الغرب روحه و « زمارة رقبته » للعرب وللمسلمين ولرآسهم القائد والمدبر والقادر على اقرار « كادر » دفاعى تكنولوجى عامل مدرب يعمل من أجل أن تقبض البلاد العربية على ثروتها وأن تصبح ليس سادس بل ربما ثالث قوة عالمية ٠

اذن لابد من ضرب مصر ٠

ولتكن تلك الضربة موجهة فى نفس الوقت الى العلاقات بين مصر وتلك البلاد العربية المسلمة من ناحية ، ومن ناحية أخرى ضربة موجهة الى العلاقات بين البلاد العربية نفسها ٠٠ وبين بعضها البعض ثم بين البلاد العربية وبقية الكتلة الاسلامية الكبرى ، ثم داخل الكتلة الاسلامية نفسها ٠

وتاريخ العرب الحديث كله ، تاريخ مصر وتاريخ السعودية ، والكويت والعراق والمغرب والجزائر وليبيا وموريتانيا تاريخ باكستان وأفغانستان وحتى الصومال

والسودان والحبشة ٠٠ هذا التاريخ كله بداية من أواخر الخمسينات والى الآن هو شريط سينمائى واحد متعددالفصول والابطال هذا صحيح ولكنه تطبيق حرفى لسيناريو هدفه فى النهاية ضرب القوة العربية والاسلامية الصاعدة والاستيلا على مقدراتها وثرواتها وتأخيرها تكنولوجيا وحضاريا الى أسوأ مدى ولتكن البداية هى ضرب رأس الرمح الذى يهدد بتجميع هذه القوى وتكاتفها وتآزرها ٠٠ مصر٠

وامسك معى أية بداية خيط وأى حدث سياسى أو عسكرى وأى عراك عربى أو اسلامى أو اسلامى عربى أو اسلامى اسلامى أو عربى عربى وتتبع هذا الخيط فستجده يوصلك دائما الى الكابل الرئيسى للخطة ٠٠ ضرب العمود الماسك بين المشرق والمغرب العربيين الواصل ما بين باكستان وماليزيا الرابط بين الرباط وموريتانيا ونيجيريا وحتى المسلمين فى جنوب أفريقيا ٠٠ ولم يكن السيناريو سيناريو تافها ككثير من سيناريوهات وروايات السينما المصرية أو الهندية التجارية ٠٠ كان سيناريو متقنا جدا ومحسوبا جدا ومدروسة كل تفصيلة فيه دراسة خبراء كبار ودكاترة فى علم قهر الشعوب ٠

ورثت أمريكا واسرائيل كل الملف العربى الاسلامى الذى كانت قد جمعته وظلت تحتفظ به فرنسا وبريطانيا وهولندا وحتى ألمانيا للمنطقة والاتجاهات الدينية والطائفية والمذهبية وتاريخ كل هذا وذاك تاريخ العلاقات والحزازات العرقية والقبائلية والاحقاد ونقاط الضعف ومفاتيح التفجير ٠٠ درست هذه الملفات كلها وذاكرتها ووعتها ثم بعقلية متقدمة جدا وماكرة جدا ودائبة جدا لا تيأس ولا تغفو راحت أمريكا الاسرائيلية واسرائيل الامريكية تنفذ المخطط

لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة وتفصيلة بتفصيلة مع الاستعداد الفورى لتنفيذ الخطط الجاهزة البديلة اذا حدث متغير غير متوقع ٠

★★★

والمضحك المؤلم المخجل أننا جميعا اشتركنا فى تمثيل هذا المخطط وانجاح الرواية ـ كلنا رغم انوفنا فى احيان وبغفلتنا فى معظم الأحيان وبغبائنا دائما وبانعدام الرؤية وقصور التفكير ذلك ان التفكير والتدبير فى مجتمعاتنا يحتكره الحكام ، ولأن همهم الشاغل الاوحد هو المحافظة على كراسيهم فان الاحاطة بالرواية الرهيبة كلها ودورهم هم حتى فيها لم يكن محل تفكيرهم أبدا ٠٠ زد على هذا اننا مجتمعات تفكر ـ اذا فكرت ـ بعواطفها ولو حاول أحدنا اعمال تفكير، انهالت عليه الاتهامات أحيانا ، الاتهامات المغرضة العميلة كى تشوهه وأحيانا اتهامات الطيبين ذوى النيات الحسنة الأغبياء تماما غير المدركين ماذا يفعلون أو ماذا يراد بهم وبنا غير واعين اننا نقوم بالدور كأى « كومبارس » أو ممثل ثانوى ولا يعرف ولا يحيط بكل الرواية ولا يرى منها الا ذلك الجزء الصغير الضيق القادر على رؤيته بل والمعتمد على غفلته ليؤديه وببراعة الجاهل يفعل ٠٠ حتى «عتاولة» الثوريين ضد أمريكا ونفوذها عهد اليهم هم الآخرون بأدوار ما ، أدوار لم يلقنوها ، هذا صحيح ولكنها أدوار ردود الفعل المحسوبة فمثلا حين تريد أمريكا أو اسرائيل أن تجعل العقيد القذافى يخدم هدفها فهى لا تذهب «بعبط» وتطلب منه أن يفعل كذا أو كيت، ولكنها تجعل مصر مثلا أو السعودية بناء على معلومات خاطئة أو مخطأة تفعل هذا الشىء أو ذاك وتكون هى عارفة تماما أن مصر أو السعودية

أو السودان اذا فعلت كذا فان رد فعل العقيد سيكون «كيت» وهو بالضبط ما تريده هى لتأخذ من فعلته حجة لتقوم هى فى هذه الدولة أو تلك أو حتى على مستوى العالم بعمل هذه الشيء أو ذاك ٠

والأمثلة كثيرة وبالآلاف ألم يرد الرئيس السادات بنفسه انه قبض على عصابة من عملاء ليبيا كانت تنفذ مؤامرة لاغتياله وانهم ضبطوا فى أماكنهم وفى جيوبهم الخطط والأسماء والاتصالات والمخازن التى أخفوا فيها الأسلحة لم يلحظ أبدا أى أحد أن السادات قال بعد هذا انه علم بأمر تلك الخطط من السلطات المغربية ومن أين علمت السلطاتالمغربية بالخطة ؟ اتضح باعتراف بيجين نفسه ان المخابرات الاسرائيلية هى التى (عرفت) بها أولا وحارت كيف تخبر السادات بها والعلاقات كانت فى قمة تأزمها بين مصر واسرائيل فوجد بيجين ومخابراته ان خير طريقة لاخبار السادات هى الافضاء للمخابرات المغربية بالمعلومات وأعتقد أن بيجين فى هذه النقطة كان يكذب لأن سبب لجوئه ، للمغرب هو لكى تأتى الأخبار للسادات من مصدر لا يشك فيه اذ لو عرف ان المصدر اسرائيل لشك فى الحال وهكذا وصلت المعلومات الى السلطات المصرية التى قامت بالقبض على المتآمرين فى حالة تلبس أو شروع تلبس ويومها اشتعل السادات غضبا وقال عن القذافى ، والله لن يفلت من يدى٠

وفعلا أصدر السادات أمره باختراق الحدود الليبية واختيار ٢٣ يوليو بالذات وقاعدة جمال عبدالناصر ليضربها ويدمرها انتقاما لمؤامرة اغتياله ولماذا نذهب بعيدا ٠٠ ان معظم المعارك الطائفية التى تدور فى لبنان معارك مدبرة بحيث كلما هدأت الأحوال بين هذه الطائفة أو تلك فوجئنا

بعربة ملغمة تنسف فى الحى الشرقى من بيروت أو الغربى وتقوم قيامة الانتقام وتلغيم السيارات من الناحية الأخرى وهكذا وهكذا بين أمل والمقاومة ، أقول : كانت حرب ٥٦ ثم حرب ٦٧ المدبرة باحكام أشد ثم ثغرة الدفرسوار بعد العبور المنتصر ، ثم زيارة القدس وما أسفرت عنه من نجاح ساحق فى مقاطعة الدول العربية والاسلامية لمصر ليس مصر الرسمية فقط وانما مصر بمؤسساتها ومكانتها ودورها ٠٠ الى حد وصل الى طرد مصر من المؤتمر الاسلامى نفسه مصر الأزهر مصر محمد عبده والمراغى والامام الشافعى ، مصر الحسين والسيدة زينب ورفاعة الطهطاوى وهيكل وأحمد أمين ٠٠ طردها من عضوية المؤتمر الاسلامى أى طردها « كدولة » من ملة الاسلام نفسه وزمرة المسلمين ٠

كان النجاح ساحقا وأكثر مما حلمت به إسرائيل وأمريكا ٠٠ وبقيت فى العالم العربى الاسلامى قوتان رهيبتان لا يقلان خطرا وأهمية عن مصر ٠٠ بقيت ايران المسلمة الثائرة الخارج شعبها من قمقم السافاك والامبراطور والعراق التى بدأت تتوحد وتقوى وتصل الى مرحلة المفاعلات النووية والتقدم التكنولوجى الخطر ٠٠ فكان لابد من ضربهما معا ٠٠

ونحن فى عالم لم يعد سهلا أن تأتى بضع سفن أو طائرات بريطانية أو فرنسية أو أمريكية وتغزو وتضرب هكذا على مرأى ومسمع من العالم دولة عربية كانت أو غير عربية فنحن لسنا فى قرن الاستعمار العسكرى الواضح : القرن التاسع عشر وان كانت أمريكا قد بدأت تعود بالدنيا اليه وتحتل جرينادا وتضرب بأسطولها طرابلس وليبيا أيضا فى وضح النهار وفى الربع الأخير من القرن العشرين ٠

ولهذا كان الأروع والأوفق أن تجعل العرب يقضـون بأنفسهم على أنفسهم أو أن تجعل المسلمين هم أنفسهم الذين يذبحون المسلمين ..

والمضحك المبكى انى أقرأ بحوثا كثيرة ومطولة حول من بدأ بالعدوان على الآخر أهى العراق أو ايران مع ان مسألة اشعال فتنة أو تحريض طرف على طرف ليست مشكلة أبدا فى العصر التخابرى المتقدم جـدا . ذلك الذى تمـر به المخابرات الامريكية والاسرائيليـة ، ان تسريب معلومات خاطئة للعراق عن ايران أو العكس وعن طريق طرف ثالث عربى أو اسلامى حسن النية مدسوسة عليه المعلومات ليست مشكلة أبدا أن يحدث شىء كهذا ففى مثـل الظـروف التى يخوضها عالمنا العربى والاسلامى ، والتى بلغت فيه الثقوب فى أنظمة وأجهزة مخابراته ودفاعه أقصى مداها من الاتساع والعدد من الممكن أن تبعث بأى دولة فيه كما تشاء وتثير من العداوات بين أى دولتين كما تشاء .

لقد ذكر لنا الرئيس مبارك أثناء لقائه بالكتـاب فى معرض الكتاب انه فوجىء بالاذاعات السورية الموجهة وأجهزة الاعلام تشن حملة مفاجئة على النظام المصرى وتطالب بعدم شرعية عودة مصر الى المؤتمر الاسلامى فى حين ان المسـائل كانت فى طريقها الى التحسن والتقارب بين مصر وسـوريا بل وبين الرئيس حافظ الاسد شخصيا وبين الرئيس مبارك والحق وأنا أستمع اليه كانت الفكرة التى أوردها هنا تفسر لى ببساطة كل شىء فهـل كان معقـولا أن تترك اسرائيـل الامريكية وأمريكا الاسرائيلية المسـائل والمياه تعـود الى مجاريها ويحدث لقاء واحد أدنى من اللقاء بين سوريا ومصر مرة أخرى ؟ كان لابد من أيقاف هذا وبأى ثمن فالنجـاح

الذى لاقاه الكتاب المثقفون والفنانون المصريون فى سوريا والسوريون فى مصر نجاح خطير ومقدمة لابد لحوار على مستوى سياسى يبدأ ويحل عقدا كثيرة جمدتها القطيعة الكاملة بين القاهرة ودمشق ولهذا كما قلت كان لابد من ايقاف هذا «العبث» فالمخطط لابد أن يمضى الى النهاية ٠٠ وداخل هذا المخطط لابد أن تبقى القاهرة مقاطعة تماما من طرابلس ودمشق ومن اليمن الجنوبى بحيث تبقى منظمة التحرير مقاطعة هى الأخرى وبحيث يبقى الاشتباك اللبنانى الشيعى قائما فى لبنان وحرب المخيمات لا تتوقف وتحال القضية الفلسطينية لمخزن المحفوظات ٠٠ فخط التمزيق والتحارب والحروب العربية العربية والاسلامية العربية والاسلامية الاسلامية لابد أن يظل مستمرا ومستمرا ٠٠ فلا تزال هناك بقية شبه سليمة من الجسد الاسلامى العربى بقية لا تزال حية تنبض ولابد من استمرار الخطة حتى يذبح هذا الجسد الاسلامى العربى نفسه ذبحا كاملا وتاما ٠

★★★

والآن أيها السادة المجتمعون ٠

أعتقد انى لا أكتب هنا شيئا جديدا ولا أزعم انى أزف اكتشافا لم يكن أحد يعرف عنه شيئا ٠٠ كلنا حكاما ومحكومين نعرف أن هناك خطة لتمزيقنا وابادتنا وان هذه الحروب المشتعلة فى الجزء من العالم ــ لاحظوا انه لا توجد حروب فى العالم الا فى منطقتنا الاسلامية العربية ــ أو حتى أمريكا اللاتينية لا توجد بها الا حروب عصابات ــ محدودة هذه الحروب المشتعلة فى جزئنا من العالم لم تشعل نفسها أبدا ولا كان اشتعالها مصادفة ولا استمرارها مصادفة أيضا فقد ثبت ان أمريكا ضالعة فى ارسال أسلحة الى ايران كما

هى ضالعة فى تضليل العراق ولا توجد دولة فى العالم تصفها أمريكا بأنها ارهابية الا ثلاث دول و « بالمصادفات المحضة كلها دول اسلامية حتى جنوب أفريقيا لا تعتبرها أمريكا ــ وان كان العالم كله يعتبرها كذلك ــ ارهابيــة الآن أيهــا السادة المجتمعون » ٠

ان أمريكا الاسرائيلية واسرائيل الامريكية بمعنى آخر الاستعمار العــالمى الجديد ليس مشغولا بتدخين المارجوانا وهو يعرف انكم مجتمعون فى الكويت وانكم لو خرجتم من اجتماعكم هذا باجماع اسلامى ولو عــلى أبســط وأهون الأسباب فان فى هذا خطرا عليه وعلى مخططه كل الخطر ٠٠ فلابد لهــذا الاجتماع اذن أن يفسد ومن داخله يفســد ٠٠ بمعنى آخر لابد أن تنتقل الحرب الحقيقية الدائرة رحاها فى شط العرب ولبنــان لابد أن تنتقــل الى قلب مؤتمركم فى الكويت بحيث تتولون أنتم بأنفسكم ــ اذ لا يوجد ممثــل رسمى لاسرائيل الامريكية وأمريكا الاسرائيلية فى المؤتمر اذ المهمة متروكة للمؤتمرين أنفسهم فى تحقيق أهداف أى طموحات اسرائيلية أمريكية بيد مسلمة ولسان مسلم وفعل يجرى باسم الاسلام ٠

هذا المندوب الغائب ســيكون لو علمتم الحقيقة حاضرا بأكثر خطورة مما لو كان له مقعد واسم ولافتة ويمثل دولة ٠٠ سيحاول هذا المندوب الغائب أن يشــعل نيران الحروب الصغيرة التى تخصص فيها وبرع وسيهرب متفجرات الحرب داخل حقائب السمسونايت مهما بالغتم فى تفتيشها الكترونيا ٠٠ وذلك لتفتيت هدفكم الأوحد الكبير الا وهو حماية عالمنا العربى من التمزق والانتحار ٠ تفتيت هذا الهدف الى أهداف تافهة صغيرة وكثيرة تربككم وتربكنا وتجعلنا نخــرج من

المؤتمر بخلافات وحزازات أكثر بكثير من التى دخلنا بهـا.
سيفعل المندوب هذا والأدهى انكم ستساعدونه كالعادة اذا
تقمضتم نفس الأدوار التى تتقمصونها خارج المؤتمر .

★★★

وعلى هذا فأمامكم أمران لا ثالث لهما ..

اما أن تكونوا على علم تام بخطورة ما يقوم به أعداء
الاسلام والمسلمين والعرب باعتبارهم العمود الفقرى للعالم
الثالث الذى يعاديه ذلك الاستعمار العالمى الطاغى ..
اما أن تكونوا على علم بانهم يأخذون عداواتهم لنا جـدا
لا هزال فيه ولا يكفون ثانية واحدة فى طعننا بهذا الخنجر أو
ذاك .. وفى هذه الحالة فى حالة علمكم تدركون خطـورة
الموقف والوضع وموقف الحياة او الموت الذى نقفه هـذه
الأيام وتأخذون ليس قرارات وانما افعال جادة للدفاع عن
أنفسنا وحتى ــ كحكام ــ عن انقسام واما ..

واما انكم لا تعلمون وهذه كارثة او تعلمون وتخافون
فى وجه المخطط فكى يحافظ كل منكم على وضعه ، بعيدا عن
الشر ويغنى له ، وعلى هذا تمضون قدما فى نفس الاتجاهات
التى تدور خارج المؤتمر وعلى هداها تدور الحروب ويدور
افناء العالم الاسلامى لنفسه ذاتيا .

فاذا فعلتم هذا ..

وأرجو أن لا تفعلوه .

لأن معناه مصيبة أعظم ومن الشعوب العربية هذه المرة
ستحيق ــ لا قدر الله ــ بكم الكارثة والضربة .. ولأننـا
حريصون عليكم حكاما ورؤسـاء وملـوكا وامراء ورموزا

لوجودنا وعقيدتنا وحياتنا ·· فنرجوكم آن تفعلوا مثلنا وتحرصوا عـلى أنفسكم من أن تصبحوا أدوات للاستعمار ومخالب قطط لتنفيذ مخططاته فى هذه الحالة عليـكم أن تحرصوا على أنفسكم منا نحن ·· فللصبر حدود ·

والشعوب اذا أرادت الحياة يستجيب القدر ·

ونحن نريد ، بارادة الله · الحياة ، حتى لو أردتم أنتم غير هذا ·

بشق الأنفس ، ولظروف شخصية قاهرة فقد كان لى ابن يعانى منذ صغره بحالة ربو نتيجة لحساسية جسده الشديدة لتغيرات النفس وبالذات فى الصيف ، حيث كنا أحيانا نستدعى له عربات الاسعاف حين تزداد الحالة ويكاد يتوقف عن التنفس ، كان لابد أن آخذ شقة فى منطقة المعمورة بالذات لكى تقضى فيها العائلة ، وبالذات ابنى بهاء ، شهرين على الأقل فى السنة ، يوليو وأغسطس ، وأحيانا بعضا من سبتمبر ، وفى أول الأمر ، فى منتصف الستينات كان الموضوع لا يشغل أمرا صعبا أو مستحيلا ، اذ كنا نحن مجموعة من الكتاب قد تعودنا أن نأخذ شاليهات للتصييف فى بور سعيد ، ورغم ان ايجار الشاليه المفروض كان فيما أذكر لا يتعدى الستين جنيها، الا انها كانت أقصى ما نستطيع دفعه من النقود فى ذلك الحين ، والحق اننا كنا مجموعة متكاملة تماما فمن أستاذ علم الحكى والكلام والصحافة المرحوم سامى داوود الى رائد فكرة الشعبية فى الأدب والفن المرحوم أحمد رشدى صالح الى وحيد زمانه الولد الشقى محمود السعدنى الى موسى صبرى ذلك الحين الى الزميل الكبير

حلمى سلام الى من لم تعد تعيه الذاكرة من أسماء ، زمن جميل ، الآفاق مفتحة ، والمستقبل تحوم حماماته وترفرف كحمامات صلاح جاهين ، ومصر انتفضت وتمضى قدما بعد ملحمة ٥٦ ومجدها وحربها وخروجنا ظافرين وظللنا هكذا الى أن قامت حرب ٦٧ وأبيد نصف بور سعيد واحتلت قوات الجيش شققه وشاليهاته ، واضطررنا اضطرارا للذهاب الى الاسكندرية ، وكانت النقلة باهظة على ميزانيتنا اذ كان على العائلة منا أن تدفع مائة جنيه بأكملها فى شقة مفروشة ، وياله من مبلغ باهظ فى ذلك الحين ٠

المهم ان المائة أصبحت بعد عامين مائتين ثم ثلاثمائة ، وبدأ (ربو) بهاء يتفاقم المدة التى يجب أن نقضيها تطول ، وحينذاك ، وكنا جاوزنا منتصف السبعينيات وجدت نفسى مضطرا الى تأجير شقة فى الاسكندرية للعام كله أو ٠٠ وهذا هو المستحيل بعينه ، الحصول على شقة تمليك ٠

كان ثمة طبقة جديدة قد بدأت تزحف ، وكالجراد المتلئة حيوية بنقود وافرة ، تزحف وتقتنى كل شىء وكانت شركة المعمورة تطرح كل عام حوالى خمسين شقة ، كان سعر الواحدة منها ثمانية آلاف جنيها ، وبالكامل كانت الطبقات الصاعدة مع الحكم الساداتى والانفتاح الجديد تأخذها كلها ، نقدا وعلى الفور ، وذهبت الى رئيس شركة المعمورة فى ذلك الوقت وقلت له : أريد شقة ، فقال : قدم طلبا ، وانت وحظك ، اذا أصابتك القرعة دفعت ثمنها وأخذتها ، وكان معنى هذا بصريح العبارة اننى لابد أن أعتمد على الحظ فى شراء الشقة وثانيا ، وهذا هو المستحيل بعينه أن أدفع ثمنها فى الحال ، ولم يفد أى نقاش مع رئيس الشركة حتى وأنا أذكره انه مع انه رئيس مجلس ادارة أو

حتى لو كان وزيرا فان ماهيته لا تسمح له أبدا باقتناء شقة بهذا السعر في ذلك الوقت (عام ٧٨) ، وخرجت وأنا محبط أشد ما يكون الاحباط ولـكن موظفا ابن حلال في الشركة لحقني على السلم وقال لى اننى ممكن أن أحصل عـلى شـقة بالتقسيط وكيف يكون هذا ياعم ؟ قال : انتم ناس كتـاب ومتصلون ، اذهب الى وزير الاسكان وقدم طلبا ولن يدخلوك القرعة وانما (سيخصصون) لك شـقة ، وسيقسطون لك ثمنها على عشر سنوات ، وبدا كما لو ان المسألة قد فرجت ، وفعلا ، ذهبت ، وقابلت الوزير ، وقدمت الطلب ، وقابلني الرجل بكل ما يملك من ترحاب ولطف ولكنه أفهمني بطريقة يفهمها كل لبيب ان الشـقق التخصيص تأتى قائمتهـا من رئاسة الجمهورية مباشرة وبالطبع رفضت الفكرة رفضا باتا أول الأمر فأنا أبدا لم أتعود أن أطلب من رئيس الدولة ، أى رئيس دولة ، شيئا خاصا بى ، حتى لو كان الامر يتعلق برئتى ابنى ، وصرفت النظـر عن الموضـوع ، وعدت الى القاهرة ، وبعد ثلاثة أيام حدثت للولد أزمة نقلناه ليلتها فى عربة اسعاف الى مستشفى الشبراوى ولحسن حظى أنا أسكن قريبا من مستشفى الزميل العزيز الدكتـور محمـد الشبراويشى الذى أقام لنا فى أول الأمر مستشفى صغيرا فى الدقى ما لبث أن توسع ، ولحسن الحظ لم يلحقه التأميم ، وأصبح يجمع كل التخصصات ويقدم كل أنواع الخـدمات الطبية وبأسعار فى مقدرة موظف قطاع عام مثلى ، شيء يعتبر نعمة فى الوقت الذى كانت المستشفيات الحكومية قد ساءت الخدمة فيها، وقل الدواء ، وان كانت لاتزال تحتفظ بأساتذتها الكبار ، وقضى بها ثلاثة أيام بأكملها وهو بالكاد يستطيع أن يلتقط النفس ونصحني الدكتـور حسن حسنى أسـتاذ أمراض الصدر وابن عمي فى الوقت نفسه ان لابد لبهاء أن

يقضى أشهر الصيف القائظة وبالذات يوليو وأغسطس فى الاسكندرية ، أو رأس البر ، وكانت بور سعيد لم تعد صالحة للاقامة أو قضاء الصيف، وكنت فى ذلك الوقت أكتب مقالات دائبة النقد للحكومة وللدولة ، ولكن ، تحت الحاح المرض فان أى أب فى الدنيا يضرب عرض الحائط بأى اعتبار آخر ، وهكذا ذهبت الى المعمورة ، وكتبت طلبا للرئيس السادات ، شارحا ظروف بهاء ، وبمنتهى حسن النية ، ان لم يكن السذاجة سلمت الطلب لضابط الحرس الجمهورى الواقف على باب الحديقة الفاصلة بين المعمورة وبين فيللات الرئيسين عبد الناصر والسادات ٠

والحق انى فوجئت بعد يومين أو ثلاثة بتليفون من موظف فى الرئاسة يقول لى ان الرئيس السادات قد أمر بأن يدرج اسمى ضمن من تخصص لهم شقق من كبار موظفى الدولة والرئاسة وأن يقسط ثمنها كما هو الحال بالنسبة للآخرين ، وشكرت للرجل مروءته ، فقد تصورت انه أدرك ان الأثرياء من تجار الخردة والخيش لا يمكن أن يستولوا على كل المتاح من الشمس والبحر والهواء ، بحيث لا يبقى ثمة ثقب ابرة لكاتب أو شاعر أو عالم أو موظف يفنى عمره وحياته فى خدمة بلاده ولا يستطيع أن يملك أو يستمتع بصيف أو ببحر أو بهواء ٠

وكنا قد وصلنا شهر أكتوبر والعائلة ـ عائلتى ـ كلها سعيدة بأن مشكلة بهاء قد حلت وانه أبدا أبدا لن تتكرر مأساة كتم أنفاسه كل صيف ، فى ذلك الشهر أقيم الاحتفال السنوى بعيد العلم ، ذلك الذى توزع فيه الأنواط والجوائز، ودعيت لحضوره ، وجلست ومعى الفنان الكبير صلاح طاهر نشاهد فقرات الحفل ، وفى الاستراحة فوجئت بالأستاذ فوزى

عبد الحافظ سكرتير الرئيس السادات يأتى لى حيث كنا أنا وصلاح نقف ، وينتحى بى جانبا ويقول لى : ان الرئيس قد سحب منك الشقة ، أى شقة ، شقة المعمورة واستغربت تماما وسألت : لماذا : قال : ألم تكتب مقالا فى الاسبوع الماضى عنوانه : مطلوب واحد قانون ، قلت : نعم ، قال ما دمت تريد تطبيق القانون فقد قرر الرئيس أن يطبقه عليك ويسحب منك التخصيص ، والحق انى أحسست بشىء كالغثيان ، اننى أعرف ان معارف وأصدقاء للرئاسة وللمحافظ مخصصة لهم عشرات الشقق، وهل معنى ان أكتب مقالا أطالب فيه بأن يسرى القانون على الكبير والصغير ، دون أى استثناء أن أعاقب بمنع الهواء عن صدر ابنى ، مع ان التخصص قانونى ويترك للمحافظ وللرئاسة نسبة تصل الى ٢٥٪ من الشقق المعروضة لبيعها مباشرة دون ادخالها نظام القرعة ، قلت له : يا سيدى اذا كان القانون سيسود فى مصر بالغاء تخصيص الشقة لى ، وسيصبح كل شىء فى البلد على ما يرام فأهلا به من اجراء ، وأرجوك أن تبلغ شكرى للرئيس على هذا الاجراء (العادل) .

والحق ان شخصية الرئيس السادات كانسان أو كبطل تراجيدى أو درامى لم تنل حظها من التأليف، فقد كانت تلك (العملة) أصغر كثيرا من حجم رئيس الجمهورية بل ولم تفلح فى عقابى أو اسكاتى ، فقد مضيت أكتب مقالات من أمثال : تعالوا ننظف مصر ، وتعالوا ننظف مصر ثانية ، أقول ، لا يزال الرئيس السادات لم يكتب عن شخصيته وعن تصرفاته كما يجب ، فبعد أقل من ١٥ يوما يبدو انه كان قد راجع نفسه ووجد انه تصرف بما لا يليق به ككبير للعائلة المصرية ، وأن اجراء سحب الشقة منى لن يؤذى الا ابنى الصغير الذى لا حول له ولا قوة ، اذ وجدت فى البريد خطابا

من مكتب نائب الرئيس السيد محمد حسنى مبارك يستدعينى لمقابلته بقصر العروبة ، وكانت تلك أول مرة أقابله فيها ، وقال لى ان الرئيس السادات حول الأمر اليه ، وانه ستخصص لنا شقة فى العام القادم ، ومعنى هذا انها ستزيد بمقدار أربعة آلاف جنيه ، لم يتول السيد النائب هذا ، ولكن عرفته، فيما بعد ولم يكن مهما حتى لو كلفنى الأمر ما كلفنى طالما أننى لن أستيقظ أبدا على (شخير) ولدى حتى تكتم أنفاسه ليلا ٠

المهم ، حصلنا فى النهاية علـى الشـقة ، وما زلت من أيامها أدفع ثمنها بالتقسيط الى الآن ، وهى نفسها الشـقة التى سرقت فى رمضان الماضى ، ولكن لا أكتب عنها لأروى القصة ، أو لأسـتعرض حادث السرقة ، ولـكنى أكتب عن الموضوع لسبب قد لا يخطر على البال مطلقا ٠

فقد دق لى عبد العظيم البـواب ذات صباح رمضـانى تليفونا من الاسكندرية قائلا انه اكتشف ان لصا اقتحم الشقة وطلب منى الحضور لمعرفة ما سرق منها وذهبنا على عجل الى هناك ، وفحصنا الشقة ، ولم نجد شيئا ثمينا أو ذا بال قد سرق منها ، فماذا يمكن أن يوجد فى شقة مصيف الا بضعة كراسى أو شماسى وملابس صيف ، الذى أدهشنى حقـا ان أثمن ما سرقه اللص كان آنبوبتى بوتاجاز ، وكانا ، نظرا لوجودهما فى فراندة صغيرة ملحقة بالمطبخ هما السبب الذى من أجله كسر اللص (شيش) البلكونة ، ودخل الشقة وأخذ الانبوبتين ، مع راديو كاسيت ، ومروحة ، وأشياء من هذا القبيل ٠٠

وأخذت أتأمل حادث السرقة تأملا أعمق بكثير من مجرد كونه حادث سرقة ، فمسألة أن يكسر لص باب شقة أو يقتحم

نافذتها ممكن أن تحدث ولكن أن يكون الدافع الى السرقة ، الدافع الوحيد ، هو أنبوبتا بوتاجاز فارغتان ، مسألة غريبة فعلا ، انسان يعرض نفسه لأن يضبط متلبسا بجناية أو جنحة سرقة واقتحام بيت من أجل الاستيلاء على أنبوبتي بوتاجاز مسألة قد تدعو فى ظاهرها للضحك ولكن ، فى حقيقتها لابد أن تدعو للرثاء ، فحتى اللصوص قد أصابتهم الأزمة الاقتصادية وأصبحت مسألة أن يعرض انسان منهم نفسه للسجن من أجل أنبوبة بوتاجاز لا يتعدى ثمنها الثلاثين جنيها مسألة واردة ٠

أبلغت البوليس بالطبع وجاء ضابط المباحث ، وجاء (بوكس) فيه أربعة مخبرين ، ومفتش من ادارة السرقات بمديرية أمن الاسكندرية ، وجاء فنيون من المعمل الجنائي ورفعوا البصمات وكانت النتيجة ان عاد ضابط المباحث ومخبروها بعدد من البوابين ليستجوبوهم ، وما كاد الموكب يمضى حتى وجدت نساءالبوابين وبناتهم وأولادهم يتقاطرون على الشقة ، وكذلك بعض رجال المنطقة ويستعطفوننى لأتوسط لهم فى الافراج عنأزواجهم في تلك الأيامالرمضانية الكريمة، وكانوا يستعطفوننى ونظراتهم تحرجنى وكأنى قد أصبحت أنا الجانى وليس المجنى عليه المسروقة شقته ، ووجدتنى أقضى يومين فى الاسكندرية رغم مشاغلى الكثيرة فقط للتوسط للافراج عن البوابين وأمرى الى الله ٠ وحين نجحت أخيرا فى هذا ، عدت الى القاهرة بخفى حنين ، أو فى حقيقة الأمر بدون خفي حنين ، وهذا هو ما غاظنى حقا ، فرغم ان الحصول على أنبوبتى بوتاجاز وجدته أمرا مستحيلا فلا توجد في الاسكندرية كلها انبوبة بوتاجاز واحدة ورغم سرقة وسام الجمهورية وأشياء لها قيمة معنوية كبيرة الا أن ما أحزننى ولا يزال يحزننى هو ان اللص قد سرق حذائى

ماركة (باتا) الذى كنت أعتز به كثيرا ، ذلك ان مقـاس قدمى ٤٦ ، وفى الصيف لا أطيق ارتداء الجورب ، وكنت أستبدل الحـذاء والجورب بما يسمى (سباترى) ولعـامين متتاليين وأنا أبحث عن سباترى على قدر مقاسى دون أن أعثر له على أثر ، حتى انى ذهبت الى بور سعيد خصيصا لاحتمال أن أجد هذا المقاس هناك وعدت دون أن أعثر للمقاس على أثر ، الى أن ذهبت الى شركة باتا فى الاسـكندرية وسـألت البائع عن المقاس ، فقال لى ان آخر مقاسـات يصـنعونها لا تتعدى ٤٤ ، وبالصدف البحتة كان رئيس الشركة الاستاذ عادل يمس ، وحين عرف المشكلة ابتسم لى ابتسـامة مصرية محببة وقال : سنصنع لك (سباترى) مخصوصا ، وطبعـا استنكرت أن يفعل هذا فقال لى : انه لا يفعله استثناء ولكن هناك بعض المواطنين المصريين أحجام أقدامهم عريضـة من الأمام مثل أقدامى ومنهم محافظ القاهرة الصديق يوسـف صبرى أبو طالب ووزير الخزانة السابق الدكتـور سـلطان أبو على يعانون من نفس المشكلة ومن أجل هذا صنع قالبا مخصوصا لهذه الحالات الشاذة وأيضـا للمـواطنين الذين يدوخون الدوخات السبع ولا يجدون مقاسهم ، وما أروع وأسعد اللحظة التى عدت فيها بعد يومين فوجدت زوجين من الاسباتريهات لا يتجاوز ثمن الواحد منها سبعة جنيهات وحين جربتهما أحسست براحة لم أحس بها منذ زمن طويل ، حتى انى كنت لا أكاد أخلع أيهما من قدمى ، بل بهما استطيع أن ألف اليابان كلها وجنوب شرقى آسيا وبدونهما لم أكن أستطيع أن أتحرك أكثر من بضعة أمتار ، وكنت أتركهما فى فى الاسكندرية ، والطامة الكبرى انى وجدت ان اللص قد استولى عليهما مع انه كانت توجد أسـفل الدولاب أحـذية جلدية أغلى وأكثر أناقة ٠

اذن اللص كان يعانى مثل من كبر القدمين ولابد انه فرح فرحة عمره بالعثور عليهما اذ كان ممكنا أن يأخذ من الشقة أشياء أخرى ولكن فرحته جعلته يكتفى بهذه الغنيمة وأنبوبتى البوتاجاز اقتحم من أجلهما الشـقة . ولولا اننى وأنا فى طريقى للقاهرة مررت على ادارة شركة باتا ورئيس مجلس ادارتها وقصصت عليه القصة فطمأننى ان القـالب الكبير لازال عندهم وانه يمكننى أن أحصل على سباتوريهات أخرى لكانت تعاستى ستبقى الى أبد الآبدين، وبالمرة تفرجت على ادارة ومصانع شركة باتا بالاسـكندرية ، وهى شركة قطاع عام ، لولاها ، ولولا أسعارها الرخيصـة لمشى نصف المصريين حفاة ، ومع هذا فهى تحقق ربحا مجزيا تماما ، وتكاد فى نظافة مبناها ومصانعها تعادل ان لم تتفوق عـلى بعض مصانع القطاع الخاص ، ومن هذه الجولة اكتشفت ان مشكلة القطاع العام ليست مشكلة اقتصادية أو عمالة زائدة أو كل تلك الأسباب التى نقرأها صباح مساء ، انها مشكلة ادارة أولا وثانيا وثالثا ، أعطنى مديرا يحب عمله ويتقنه ويشيع تلك الروح فى موظفيه وعماله يعطيك قطاعا عاما ناجحا ، أما الشركات والهيئات الفاشلة فسببها الأوحد فى رأيى اننا نعين فيها أناسا لا يبحثون الا عن شكليات الوظيفة وفخامة المكتب ونوع جهـاز التـكييف والتليفـونات ذات النغمات الموسيقية اننى أقترح على الدكتور محمد عبدالوهاب وزير الصناعة أن يأخذ مديرى شركات القطاع العام الخاسرة فى جولة على شركاته الناجحة ، ويريهم على الطبيعة لمـاذا ينجح الناجح ولماذا تفسد بعض الشركات وتخسر .

انى أعدل اجابتى التى قلتها ردا عـلى سـؤال ضابط مباحث قسم المنتزه : هل تتهم أحدا معينا بسرقة شقتك ؟

ساعتها قلت له : بصراحة أنا لا أتهم أحدا بالمرة .

اليوم أقول له : آسف يا حضرة الضابط امى أتهم لصا ذا أقدام كبيرة مقاسها ٤٦ ، ابحث لى أرجوك فى لصــوص الاسكندرية والمعمورة البلد بالذات عن رجل أو شاب مقاس أقدامه ٤٦ وستجد ضالتك المنشودة ٠

أقمنا مصيفا سياحيا فاخرا على أرض المعمورة وبقية فى وسطه تماما عزبة مليئــة بضجة الميكروفونات والازعاجات الى ما بعد أذان الفجر ، وفى أول الأمر حين كان سكان تلك العزبة من الفلاحين والزراع الذين يعتمدون فى أكل عيشهم على أشجار الجــوافه ، وزراعة الخضروات أســفلها ، كانوا أناسا طيبين وفقراء ، ولكن ذممهم وقيمهم كانت مضرب المثل حقا ، حتى ان حادثة سرقة واحدة لم تسجل منــذ انشــاء المعمورة الى ما قبل عدة سنوات ، حين حدث الانفتاح الأهوج وامتلأت المعمورة بالطبقات الثرية الجــديدة التى لا عمــل لشبابها الا ركوب سيارات آبائهم المرسيدس وضغط الفرامل بكل قســوة ، والطلوع بالســيارة (آمريكانى) ، بل حتى صبيتهم يزودونهم بموتوسيكلات مزعجة الصوت ذهلت تماما حين عرفت ان ثمن الواحد منها لا يقل عن الألفى جنيه ، يركبه صبى فى العــاشرة ، ويزعج البنات والأولاد راكبى الدراجات والسائرين على الأقدام ، والراديوهات مفتــوحة على الآخر وأغانى عدوية وسحر حمدى بأعلى صوت وعــلى ودنه ، فسد الصيف كمنتجع هادىء ، وفسدت أيضــا ذمم قاطنى العزبة الذين بدأت تطلعاتهم الطبقية تتاجج والحصول على النقود ولو حتى باقتحام شقة وسرقة أنبــوبة بوتاجاز حادثا عاديا تماما لا يستغرب له أحد ٠

أما انت أيهــا اللص ذو الاقدام الــكبيرة ، فاذا كنت تستمتع بالحذاء وقد أراح قدميك فانى مستعد أن أسامحك وأرجو الله أن يغفر لك شريطة أن تعيد لنا أنبوبة بوتاجاز

بأى سعر تحدده وأقسم لك انى لن أفعلها أبدا وأبلغ عنك البوليس ، فكيف يبلغ الانسان عن رفيق أقدام وزميل دفعة واحدة ، دفعة ٤٦ التى منها سلطان أبو على ويوسف صبرى أبو طالب ؟!

ويسميها انتهاكات الكلمة !

من حق كل زميل فى جريدة أن يعلق أو ينقد ما يكتبه زميل أو كاتب آخر ، اما أن يلوى هذا الزميل كلام زميله ويخرج به الى عكس معناه ويسمح لنفسه بعد هذا أن يرد على الكلام المغلوط الذى اختلقه فهذا ليس من حقه فقط ولكنه يتنافى مع أبسط مبادىء السلوك البشرى ، فما بالك اذا كان هذا الزميل ممن يزعمون انهم من حملة راية السلوك الاسلامى القويم ، ويكذب هذا الانتهاك الصارخ للحقيقة تحت عنوان — يا للجرأة — انتهاكات الكلمة ·

فى مفكرة سابقة كتبت أرصد التناقض الذى أصبح صارخا بين علو صوت الميكرفونات المتشنجة الداعية الى الاسلام ، وبين خفوت صوت الضمير ، فى حين كان المفروض فى ظل ازدهار الدعوى للتدين أن تترسب هذه الدعوة على هيئة قيم ومبادىء وسلوك اسلامى قويم ، فجاء الزميل ليقول اننى أهاجم التدين وألمز المتدينين وأستنكر ظاهرة تنامى الوعى الدينى ، فهل ممكن أن يفسر عاقل كلامى هذا الذى قلته على انى أستنكر ظاهرة تنامى الوعى الدينى أم انى أستنكر علو نبرة الوعظ والتهديد والوعيد ، والفارق بينهما كبير فنحن جميعا مع تنامى الوعى الدينى لأنه الطريقة الوحيدة لترسيخ المبادىء والقيم وتقويم السلوك أما الميكرفونية التى تزعج الناس وتشوش على تلقيهم وتأملهم لما يقال فلا علاقة بينها وبين تنامى الوعى

الا اذا كان الوعى عند الزميل هو القرين لغلظة أصوات الميكروفونات ٠

أنا لا أريد أن أسأل الزميل بأى حق ينصب من نفسه المدافع الأوحد عن الاسلام بعد سنوات قضاها يعمل بعيدا فى البلاد الغنية بينما نحن هنا نناضل بشراسة من أجل الحفاظ على تديننا الحق وقيمنا الاسلامية الحقيقية ، وبأى حق يسمح لنفسه أن يختلق كلاما على لسان كاتب قرأ كلمة — فى نفس الجريدة — كل الناس وكلهم شهود عليها ٠

ان الدعوة للاسلام دعوة حق وقائلها لابد أن يتحلى بالصدق والتمسك بقول الحق اذ أن الالتواء والالواء لابد أن يفقده صفة الداعية مهما حاول أن يتسربل بها ٠

ويكفى هذا الآن ٠



الهزيمة الثالثة

حسن جدا ، فتورنا سببه موقف احتجاج لا واع على كثير ، ان لم يكن كل شىء ، مما يجرى حولنا موقف احتجاج يدفعنا للاضراب غير المعلن بالطريقة التقليدية من اجتماعات ولافتات وهتافات وخطب ، ولكن ، كما ابتكر العمال الفرنسيون أثناء احتلال ألمانيا الهتلرية لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية ، ابتكروا فكرة العمل ببطء، اذ لم يكونوا فى موقف أو لديهم القدرة على الاضراب العلنى أو الامتناع عن العمل ، اذ كان الجستابو الرهيب وقوات العاصفة ستتولى ضربهم وتحطيمهم وتخريب المجتمع الفرنسى تماما ، وهكذا ابتكروا فكرة أن يعملوا وفى نفس الوقت ، وفى الحقيقة ،

لا يعملون ، فالعمل الذى يمكن الانتهاء منه فى ساعة يأخذون يوما بأكمله لانهائه ٠

ولكن هذا كان من عمل وابتكار قيادةالشعب الفرنسى المغلوب على أمره ، قيادة المقاومة الفرنسية ومفكرى وفلاسفة هذه المقاومة ، وهى كما نرى فكرة ليست فى غاية الذكاء فقط ، وفيها تعجيز شبه كامل لعملية انتاج الذخيرة والمعدات العسكرية التى كانت تطلبها وتحتاجها آلة الحرب الألمانية الهتلرية ، ولكن فيها أيضا ـ وهذا هو المهم ـ فكرة ألا تطلب من الناس العاديين ، عمالا كانوا أم فلاحين أم حرفيين أم متعلمين ، ألا تطلب منهم شيئا يعجزون عن تنفيذه ، أو يؤدى تنفيذهم اياه الى تعريض هؤلاء الناس للخطر وللتهلكة ٠

ولو كانت قياداتنا العربية ، خاصة تلك القيادات التى تدعى الثورية القصوى والصمود والتصدى وتنادى بالقضاء قضاء مبرما على اسرائيل مهما امتدت واستطالت فترة الحرب والتصدى ، لو كان هؤلاء الناس قد ذاكروا التاريخ ، وبالذات تاريخ الشعوب التى قاومت أعداءها ومستعمريها، لأخذوا مما فعلته قيادة حركة المقاومة الفرنسية السرية ، درسا ٠

فالناس العاديون ليسوا بالضرورة والسلفية والوراثة مخلوقات خارقة البطولة أو هكذا يجب أن تكون ، وأيضا الأبطال لا يصنعون بالقسر والامر والقوة ، البطولة عند الانسان العادى تنشأ بالتاريخ الشديد ، وبالتصميد خطوة خطوة ، ونتيجة اصطدامات بالعدو يتبدى من خلالها ، وبوضوح ظاهر ، ان الملاينة أو الاستكانة أو غض الطرف لم تكن كلها تجدى ، والنتيجة ان الأنسان العادى ، وبمنطقه

العادى يصل الى افتتاح جازم انه اذا استمر على منواله المستسلم المسالم فانه لا محالة هالك ، فان لم يكن بالضرورة هو شخصيا ، فأولاده واخوته وأقرباؤه لا محالة هالكون . هنا يصل المواطن الى درجة اليأس من الحل الاستسلامى الكامل ، ويبدأ يقاوم . فيضرب ، ويحسمها فيجد انه اذا استسلم لضربة رد الفعل فان ضربا مبرحا آخر ينتظره ، ولهذا فان الاسلم له والحل (المعقول) الأصح هو أن يرد الضربة ، فاذا فعل رد العدو عليه بضربة أقوى ، ويحسها مرة أخرى ليجد أن لا سبيل لأى حل آخر ، فشىء من اثنين : اما أن يتراجع تراجعا كاملا فيعامل معاملة الكلاب النجسة التى لا تليق بأى آدمى ، واما أن يستمر يقول لا ، وقد يعذب لقولها وينكل به ، ولكن هذا لن يشكل مشكلة ، فالعذاب والهوان نتيجة الملاينة سيستوى معه العذاب والهوان نتيجة المقاومة . وبالضرورة سيختار المقاومة .

هكذا يصعد الانسان العادى سلم البطولة ، ومن مستوى سطح الأرض والمعيشة ، خطوة فخطوة يجد نفسه مضطرا لان يصعد كل حين خطوة والا هانت عليه نفسه وقضى على كيانه المعنوى قضاء تاما مع الموت الجسدى .

أقول ـ لو كان قادتنا الثوار العظماء المتحمسون لمعركة لاينال فيها أحدهم اذى ، ولا تخدش له أصبع ، وانما يموت فيها الناس البسطاء العاديون ، ويفرون هم هاربين فى آخر لحظة ، أو حتى قبل آخر لحظة ، لو كان هؤلاء القواد العظام قد أدركوا حقيقة الطبيعة البشرية ، وطبيعة دور القائد أو القيادة من انها تسبق القاعدة بخطوة واحدة لاتزيد ، فلا تطلب من الشعب ابدا ان يقفز قفزة أكبر بكثير من قدراته العضلية أو الارادية ، وانما القائد الثورى الحقيقى هو الذى يطلب من قاعدته الشىء أو الخطوة التى يرى ويرى

الناس معه انها ممكن ان تتحق . فاذا تحققت فـان الشعب يتعلم اولا أنه يستطيع الخطو ــ وذلك فى حد ذاته انجاز عظيم ــ وثانيا يثق فى أنه قادر على خطوة تاليـة مقبلة ، وثالثا وهذا هو الاهم يثق ثقة عضوية ملموسة فى قيادته . ويعرف انها تدرك امكاناته . ولا تطالبه بما لا طاقة لها به وانها فى النهاية تعمل لمصلحته وليس لمصلحتها أو لتضخيم ذاتها .

ولو كنا كقادة عرب ، أو مصريين بالذات ، قد وعينا هذا الدرس لأدركنا ان القوات المسلحة وحدها ، ولا فرق الصاعقة ولا المخابرات ، ولا حتى كل احتياطى جيوشنا كفيل بأن يحسم معركتنا مع الاستعمار ومع اسرائيل ، فنحن كنـا لا نحارب دولة أو جارة . وانما نحـارب أخطبوطا ضـاربا بآلاف سيقانه ومخالبه فى كل أرجاء الأرض ، وان لا يقدر على هذا الاخطبوط الا الشعب كله ، ليس الشـعب المصرى وحده ، ولكن الشعب العربى وشعوب العالم الثالث كلها ، ولكنا قد فعلنا كما فعلت المقاومة الفرنسية ، وبدأنا نعلم شعوبنا خطوات ممكنة محدودة ليقوموا بدور فى المعركة ، دور لا يمكن أن يعطى للعدو فرصة لتوجيه ضربة ساحقة الى جماهير بالكاد بدأت تعرف العدو من الصديق ، وعن طريق الخطوة الصغيرة اثر الخطوة الصغيرة يتصاعد الدور ويشتد عود الانسان الفرد والانسان الشعب والمجتمع ، ويتعلم ان عليه أن يقوم بدور ما ، وان القيام به أمر ممكن ، وهكذا نصل الى اللحظة التى يمكن فيها أن نقوم بعمل جماعى كبير مرة واحدة وفى لحظة واحدة ، اذ حتى لو لم يؤد هذا العمل الى دحر كامل للعدو وانتصار كامل لنا ، فان فشلنا فيه لن يشتت شملنا ، وما دمنا قد ذقنا متعة الكفاح معا ، والثقـة

بأنفسنا معا ، فان التاريخ سيعيد نفسه وان لا نكل حتى ننتصر ٠

ان نجاح ثورة ١٩ مرجعه الى أن المطلب الشعبى فيها بدأ بسيطا جدا وممكنا جدا . وقانونيا جدا ولا غبار عليه ، أن يجمع الشعب توقيعات يوكل فيها قادة ثورة ١٩ بأن ينوبوا عن الشعب فى مفاوضة الانجليز ٠

وكانت النتيجة ان شباب الوفد حين قام بجمع توقيعات وبصمات الملايين على تلك العرائض ، قد جند ـ وهو يدرى أو حتى دون أن يدرى ـ كل من وقع أو بصم على العريضة للحركة الوطنية ، وجعله يحس انه (ساهم) وان له دورا ، وهكذا حين رد الانجليز بنفى سعد ورفاقه ، صعد الشعب فى كفاحه خطوة ، وأعلن الاضراب ، وكانت المظاهرات ، وحين رد الانجليز بالقوة الغاشمة وبالعساكر الاستراليين وقد ركبوا بغالهم وانهالوا على الناس ضربا وتقتيلا ، بدأت قيادات الوفد تفكر ، بل وتكون ، جيشا شعبيا مسلحا يقاوم هذا العدوان المسلح ٠

وحين نما الى علم الانجليز هذا الذى بدأ يحدث ، والانجليز قوم أذكياء لهم باعهم الطويل وتجاربهم فى مقاومة الحركات الوطنية ، بدأوا يدركون انهم سائرون فى طريق ماحق الخطر سينتهى حتما بمعركة مسلحة عليهم أن يخوضوها ضد شعب كامل مسلح ، وكان ان أفرجوا عن سعد زغلول وقبلوا رياسته لوفد المفاوضات ٠



تلك مقدمة قد طالت وأطلتها عن عمد لأهميتها ، فمن الواضح ان شعبنا المصرى وحكومتنا المصرية يعانى كلاهما

أزمة حكم ، فلا الشعب يريد أن يعود الى الحكم الذى جرى حتى فى أمجد أيام ثورة عبد الناصر ، ولا هو يريد أبدا حتى لو قامت المجازر أن يعود الى حكم كحكم السادات ، وفى العالم العربى حوله يرى غير هذين النموذجين حكومات قامت على التعصب الدينى الأعمى أو الحكم العسكرى الديكتاتورى وكلها نماذج ، جربنا بعضها ، ونقرأ الكثير عن المآسى التى تنشب من ورائها ، ولقد رحب الشعب بزوال العهد الساداتى ، وفتح أبواب آماله مرحبا بمجىء مبارك الى الحكم على اعتبار انه لن يكرر كثيرا من اخطاء عبد الناصر فى عنفوان حكمه ، لن يفكر أبدا في أن يحكم على النسق الساداتى . وفعلا ، جاء مبارك تزفه تلك الآمال ويزفها هو الى الشعب ، ولم تكن مصادفة أبدا أن كان أول عمل سياسى داخلى يقوم به أن يفرج عن آلاف المعتقلين ، بل ويقابلهم فى القصر الجمهورى مقابلة ترضية خاطر وما يشبه الاعتذار كما فعله سلفه ، وانتخبنا ، فى اجماع حقيقى لأول مرة ، حسنى مبارك رئيسا ، وسرت فى الشعب روح أمل جديدة ، خاصة وقد بدأ حكم مبارك يمسك بتلابيب لصوص عصر السادات ورموز فساده ويحاكمهم ويسمح للمعارضة باستعادة أحزابها وجرائدها وبكم أوسع من الحرية ، وما لبث أن أعقب هذا بالتفاتة ود الى الدول العربية التى انتهزت فرصة ما فعله السادات وقطعت كل ما بينها وبين ـ ليست القاهرة الرسمية فقط ولكن ـ الشعب المصرى كله ، بنقاباته وتنظيماته وهيئاته .

وبدأ مبارك بمنظمة التحرير ، وتلك كانت بداية هامة جدا ، وفى بضعة شهور كان عرفات فى القاهرة ، وكانت قيادة المنظمة توافق على دوام الاتصال مع مصر والتعاون معها ، ثم جاء دور الأردن ، ودول الخليج ، وحدثت محاولات

من ليبيا وسوريا ، وبدا كما لو ان الأرض التى فقدتها مصر في عهد السادات عربيا تسترد شبرا شبرا ، وبلدا بلدا ٠٠ حتى ليكاد الانسان وهو يراجع سياسة مبارك العربية لا يجد الا أقل القليل من المشاكل والأخطاء ، وكلها موروثة بكليتها من القيود التى قيدها بنا الرئيس السادات ، بتلك العلاقات الخاصة جدا مع آمريكا . وبالتعاون الاستراتيجى الاسرائيلى الامريكى الذى فى ظله لن تستطيع مصر وحدها ان تجابه ذلك التحدى . ولكننى شخصيا أعتقد أن كل تلك القيود أمور موقوتة تماما وأن باستعادة مصر لقدرتها وقوتها الذاتية ، واستعادة الالتفاف العربى حول مصر ومع مصر سوف يتغير الحال حتى بدون قتال ٠

فالمضحك ان بعض البلاد العربية (الصامدة والرافضة) تتصور ان كامب ديفيد لا تزال هى السبب فى المصائب التى حلت والتى لا تزال تحل بالأمة العربية جمعاء وهو قول يبعث حقا على الرثاء فلم يحدث فى تاريخ العالم أن تسببت معاهدة ــ مهما كانت بنود تلك المعاهدة ــ فى تفرقة أمة بأسرها وتمزيقها نتفا ، ان كامب ديفيد كارثة هذا صحيح، كارثة بكل معنى الكلمة ، ولكن كامب ديفيد هى الجزء الظاهر الصغير من جبل الثلج المختفى تحت سطح الماء والذى تعانيه أمتنا العربية ٠

لقد حولت كامب ديفيد انتصار آكتوبر العسكرى الى هزيمة سياسية ، حتى لو كانت قد آدت الى تحرير سيناء ، فقد كان ثمن تحرير سيناء هو عزل مصر عربيا واسلاميا وأفريقيا وآسيويا ، وهو ثمن فادح ، ولكن كل بلد عربى قد قام بما يشبه كامب ديفيد بل وربما أسوأ ، فغرق الجيش السورى فى الوضع اللبنانى الى درجة الشلل التام الذى ألغى فاعلية سوريا ، والوقيعة بين العراق وايران الى حد اراقة

كم من الدماء لم يرق فى كل التاريخ الاسلامى بين دولتين اسلاميتين ، وتشويه سمعة العـرب بالصـاق تهمة الارهاب بليبيا وضربها على مرأى ومسمع من العالم دون أن تستطيع دولة عربية أو غير عربية أن تصنع شيئا ازاء هذا الارهاب الريجانى الاجرامى ، والاشتباك الليبى التشادى، والصومالى الحبشى ، والسودانى ـ السودانى ، والشيعى الفلسـطينى المارونى الدرزى السنى ، والمؤامرة عـلى سـعر البترول والنزول به من حيث كان ٣٤ دولارا للبرميل الى سبعة وعشرة دولارات ـ تلك التى سـميتها مذبحة صـابرا وشـاتيلا البترولية ، ضرب المفاعل النووى العراقى، وضرب الكوماندوز المصريين واختطاف الكرامة المصرية الطائرة واتهام مسئوليها ـ علنا وعلى الملأ ، بالكذب ، ثم آخيرا هذا العمل الاجرامى الكبير بتزويد ايران بأسلحة عبر اسرائيل ، واعطاء العراق معلومات خاطئة عن أهداف ايرانية كاذبة ، والوقيعة بين الفصائل المتقاتلة فى لبنان ، بحيث اذا هدأت الأحوال بين أمل والمنظمة ، فجرت سيارة ملغمة فى قرية شيعية ليظن ان الفلسطينيين هم الذين فعلوها ، أو يحدث العـكس ويفجر صاروخ أو لغم فى مخيم فلسطينى لتقوم القيامة بين اللبنانيين الشيعيين والفلسطينيين ان تشويه سمعة العرب ومحاولة دمغ سوريا بأنها دولة ارهابية ، وكذلك ليبيا ، وفى نفس الوقت التعامل مع ما سماه كارتر وريجان الدولة الارهابية الأولى فى العالم ، ايران ، ثم بالغش والخديعة والفجور ارسـال أرباح الأسلحة المباعة لايران عبر اسرائيل الى المناهضـين للحكومة الشرعية فى نيكاراجوا ، أى ضرب العـالم الثالث بالعالم الثالث ، كلها أعمال ليست فقط غير أخلاقية ، وغير انسانية ، ولكنها أعمال مافيا مجرمة محترفة آلت على نفسها أن تسيطر عـلى العـالم بالقوة الغاشـمة ، وأن تنفق مئات

المليارات من الدولارات لاشعال حرب ذرية يفنى بها العالم الاشتراكي والعالم الثالث ، واغراق دول الجنوب الفقيرة بمئات المليارات من الدولارات كديون ، وفي نفس الوقت خسف الأرض بأسعار منتجاتها التصديرية لتبقى مغروسة في وحل الدين والفقر والمرض والفاقة الى آذانها .

كل هذا تفعله دولة افلتت كالوحش الكاسر من قفص السلوك البشرى وانطلقت أسودها ونمورها وثعابينها وكلابها تنهش وتقتل وتحرض وتقهر وتستأصل أى قيمة بشرية أو انسانية وأى شريعة من شرائع الله ، تبشر بكل ما يزخر به قاموس الشيطان من موبقات لقد أتيح لى ان أشهد بعض أحداث انتاج هوليوود من الأفلام ، وفوق انها كلها دعاية في غاية الذكاء ، والعبقرية لشعب الله (المختار) المختار ليلعب أسوأ دور لعبه شعب فى تاريخ البشر ، فانها تقطع الجذور العميقة التى تربط الانسان الفرد أو الشعب بجلس البشر ، وكان هدفها الأسمى أن تحول الكرة الأرضية الى غابة متوحشة لا يسرى فيها أى قانون حتى لو كان قانون الغابة نفسه حيث البقاء للأقوى ، انما البقاء فيها للاحط وللأخس وللشاذ وللأنانى والخيبة والفشل والضياع لكل من يحاول أن يتحلى بصفة واحدة من صفات الانس أو حتى الوحش .



لا يمكن أن يكون هذا كله قد حدث لأن مصر لا تزال ملتزمة ، حكوميا فقط ، بكامب ديفيد ، فاذا كان لكل شيء سيىء جانبه الحسن ، فالجانب الحسن فى كامب ديفيد انها أقنعت اسرائيل وأمريكا ان أى معاهدة صلح أو اعتراف توقع مع أى حكومة عربية على حدة ، أو مع عدة حكومات

عربية ، ولا يكون العدل والحق هما أساسا توقيعها ، فهى لا تساوى المداد الذى كتبت به ، وآلاف السياح الاسرائيليين يأتون الى مصر ، وما يرونه فى عيون الناس ، وما يقرأونه فى تعبيرات وجوههم ، يؤكد لهم بالدليل القاطع ان صلح حكومة مع حكومة لا قيمة له بالمرة ، أما الشعوب فهى لا تقبل الا الصلح العادل ، وطالما ان اسرائيل باغية ومعتدية وملتهمة لفلسطين كلها ، ولاعبة دور الشيطان فى المنطقة فان أحلامها فى الصلح هى أضغاث أحلام ، وغربتها فى المنطقة ستظل تتعانق مع الزمن اذ الزمن باستمرار العدوان هو مع تعميق العدوان وفى النهاية انفجاره ·

كل ما فى الأمر ان هناك شيئا واحدا لابد أن نملك الشجاعة لقوله والاعتراف به ، ان ما نراه فى ساحتنا العربية من تمزق وتشرذم وانعدام ارادة وتفتت كلمة وقرار ، ان ما نراه يحدث فى منطقتنا منذ عام ١٩٧٩ الى الآن ان هو الا علامات هزيمة غير معلنة ، أقولها مرة أخرى علامات هزيمة غير معلنة ·

والهزيمة أبدا ليست كارثة ، وكلمة الزعيم الصينى الكبير صن يات صن لا تزال ترن فى أذنى حين فشلت ثورته ضد الاحتلال اليابانى فقال : ليس هذا سوى فشلنا أو هزيمتنا الثالثة عشرة ·

ان أولى بوادر الانتصار هى الكف عن مخادعة النفس ، والاعتراف أنك هزمت ، وأولى بوادر النجاح هى ايقاف التحجج بالاسباب الواهية والاعتراف بأنك رسبت ، فحين يدرك الانسان أنه فعلا يعانى هزيمة ، وانه فعلا قد فشل فى تحقيق الهدف فان الطبيعة الانسانية سرعان ما تكتسب القدرة على التحدى ، وتتشكل لها من داخلها قوة مارد أعظم

تبادر الى الاستعداد للتحدى القادم ومن ثم الى النجاح والانتصار ، ولولا اننا اعترفنا باننا هزمنا عام ١٩٦٧ بل وجاء هذا الاعتراف على لسان قائدنا العظيم نفسه ، بل واعتبر ان الهزيمه هي اولا هزيمته شخصيا وبادر وآعلن انه مسئول عنها ــ لولا هذا ما ركبتنا روح التحدى ولما بدأنا الاستعداد الجدى للمعركة المقبلة ، ولما بلغ التحدى مدى جعل الجيش المصرى الباسل ينطلق كالمرجل المغلى يحطم خطوط أعدائه ويلحق شر الهزيمة بهم ٠

★★★

نعم ٠٠ ان كل الاعراض على ساحتنا العربية تؤكد ، لكل ذى عينين ، ولكل أعمى انها علامات هزيمة لا يعانيها عالمنا العربى فقط ، ولكن العالم الثالث كله يعانيها ٠

واذا كانت تلك الهزيمة قد أخذت شكل الصراع بين الطوائف فى بعض بلادنا العربية ، وشكل الحروب بين نظم ونظم . وشكل عملاء يحكمون ، ووطنيين يحكم عليهم ، شكل سيادة الفرقة والتعصب ، شكل الهروب من الجهاد فى سبيل الله الى الاغراق فى شرح النحو والصرف وسحب روح التضحية والفداء والايمان من ديننا الحنيف وتحويله الى ما يشبه التماويذ ، وموضات الازياء والحجاب ، واسقاط هزيمة الرجال على جنس النساء واعتباره آنه الجنس الخاطىء والمذنب والمثير للفتنة على الأرض (آى احلال نسائنا الفاضلات محل الاستعمار والصهيونية فى غرس الفتنة وتضليل الجماعة واغواء الفرد) ٠

اذا كانت الهزيمة على المستوى العربى العام قد أخذت هذا الشكل ،فهى فى مصر قد آخذت طابعا ــ فى رأيى ــ أكثر

خطرا ، اذ هي أوصلت الاحساس بالهزيمة الى قلب وعقل الفرد نفسه ، أن لامبالاتنا ، ان فتورنا ، آن يأسنا ، آن كرهنا لبعضنا البعض. ان معصياتنا في حق أنفسنا وفي حق دولتنا التي كثر فيها : نهب الأموال ، وشيوع الارتشاء ، والتكالب على الطعام والشراب واللذة المريضة العابرة .

بل أن يؤدى الحال الى أن تصل الهزيمة الى الحد الذى أصبح أسهل شيء للمواطن المصرى آن يقول : ليس هناك من فائدة ترجى ، وسعد زغلـول قال : مافيش فايدة ، ومصر حالة ميئوس منها ، او أن يصل الى الحد الذى أصبح منتهى الأمل والهجرة والاقامة في مجتمع يتمتع بالنظام والصحة والعدل والتقدم ، الى أن تيأس تماما وتكفر ، كل على حدة ، اننا ممكن أن نصنع من أنفسنا شيئا ، ومن بلادنا دولة قوية قادرة ، ومن ديوننا وفرة نرفع بها عن كاهلنا عبء اليأس والمذلة والخضوع .

ذلك هو الشكل وتلك هي الأشكال التى آخذتها الهزيمة الثالثة فى بلادنا الحبيبة مصر .

فى الهزيمة الأولى عام ١٩٤٨ رفضناها واستنكرناها وقامت ثورة ٢٣ يوليو ترد لنا الاعتبار ، وترد لنا الاحساس ان العالم لم ينته بهزيمة ٤٨ وآن العمل الجاد لابد آن يبدأ. في هزيمة ٦٧ اكتشفنا اننا هزمنا لأننا قمنا بثـورة عـلى الورق ، فاجراءاتنا فيها كانت قرارات ، وقواتنـا المسلحة تركناها لمن لم يرعها ومن لم يكون بها جيشا حقيقيا للخلاص.

وكان ان شددنا الأحزمة على البطون ، وبنينا قواعد الصواريخ تحت وابل القنابل الاسرائيلية حتى ان العمـال

والـعاملات الذين كانوا يعانون فى بناء تلك القواعد وكان معظمهم من أبناء الشرقية كانوا يعرفون أن ثلثهم على الأقل لن يعود لبيته ـ ان كان له بيت ـ فى آخر النهار ، ومع هذا فقد كانوا يذهبون الى عملهم وهم يغنون أغانى الأفراح ويفردون وكأنهم ذاهبون الى زفة انتصار •

وهكذا عبرنا القنال فى ٧٣ وانتصرنا •

★★★

فى هزيمتنا الثالثة تلك ، نحن لسنا أمام هزيمة عسكرية ملموسة ، ولا بضعة قواد من الجيش ممكن عزلهم ومحاكمتهم واحلال غيرهم ـ أكثر كفاءة ـ محلهم •• نحن أمام هزيمة لا نرى لها آثارا ملموسة واضحة ، وكأنما قصد أن يكـون الأمر كذلك ، انها هزيمة نحس بأعراضها ولكننا لا نعترف بأننا مرضى واننا مهزومون واننا فى حاجة الى هبة كبرى ، من كل النواحى ، توقظ جسدنا الذى خدرته قرصة ذباب ، تسى تسى ، التى تسبب مرض النوم المستمر العليل •

أعرف ان الكثيرين سيزايدون ويغالون ويقولون : بل انت المهزوم ، بل انت المخطىء بل انت النائم ، وشىء من هذا لا يهمنى من قليل أو كثير ، ليت الأمر كذلك ، ليتنى النائم المقروص فى شعب صاح حى ، وليت كلماتى كلها تخاريف حمى ، فأنا أعلم وأنتم تعلمون اننـا كلنـا نعـانى نفس الشعور • ومادام الأمر كذلك ، فالمرض عام ، وسببه واحد مهزومون يخدعونهم بقولهم انهم غير مهزومين ، بل يريدون اقناعهم بأن المسألة « شوية ديون ، وشوية سلبيات ، وشوية انحرافات » وباجراء هنا واجراء هناك ، بالمحـافظة عـلى الديمقراطية ، وعـلى القائمة النسبية ننقذ أنفسنا منهـا ونشفى •

لا •• هذه هزيمة ألبسوها طاقية اخفاء بحيث لا نراها.
ولن نراها الا اذا توقفنا لحظة ورمقنا حياتنا ، وما نعانيه ونحسه في لحظة صحوة ، فانني لأكاد أقسم اننا اذا تبينا الصورة لومضة فلن ننام بعدها أبدا، أجسامنا نفسهاسترفض النوم وتأباه ، قوى الحياة التي نحن بالضرورة مزودون بها. ستستيقظ وترفض وتقول : لا لن أقبل ، ولن نقبل أن نحيا مهزومين •

فحتى الديدان ترفض حياة الهزيمة ، وتزحف . ملليمترا ملليمترا ، لتخرج من المأزق ، وتنقض على فريستها أو عدوها وتنتصر •

حتى الديدان اذا أيقنت انها هزمت أو في سبيلها لأن تهزم ، تنتفض فيها كل ما تمتلكه من قوى المقاومة ، وتستحيل من ارادة الدودة حيث ركنت واستكانت الى ارادة العملاق المستوحش في الدفاع عن حياته وعن حقه في حياته . وقدرته على هذا الدفاع •

لقد بدأنا القضية بعرض الفتور ، ثم اكتشفنا ان الفتور راجع لحالة الغضب ، وها نحن أخيرا نضع أيدينا على سبب الغضب انهم قد هربوا الهزيمة الى كل منا دون أن يدرى ، ولأنه لا يدرى فهو لا يملك أن يصنع لغضبه أو لفتوره شيئا •

ربما ان أدرك السبب ، وبطل العجب، وأيقن ان الهزيمة وصلت الى عقر داره وتجويف صدره ، انقلب غضبه من الآخرين الى غضب على هزيمته الخافية وانقلب غضبه على الهزيمة ومنها الى ارادة عظمى لقهرها ، وهزيمة الهزيمة •

ولأننا نعرف حال انساننا وما آل اليه •

فلا تطلبوا منه ولا تتوقعوا أن يهب من نومه المريض أو مرضه النائم فجأة . ويمتشق حسامه ويقضى على الهزيمة وهازميه بضربة واحدة ٠

ليكن مطلبنا منه مثلما فكرت ودبرت قيادة المقاومة الفرنسية أيام الاحتلال . شيئا بسيطا جدا فى استطاعته ، ومن أمكن أن نبدأ به ، وتصعد مع البداية خطوات فوقها خطوات الى أن تصل الى العمل الجماعى الكامل العملاق ٠

ليكن شيئا بسيطا جدا لا شعار اشتر البضائع المصرية ولا تشجعوا منتجاتنا المحلية ولا حتى شعار أن يشترى الانسان شيئا على الاطلاق ٠

لتكن البداية أن نطلب من المواطنين عكس ما طالبت به المقاومة الفرنسية أن يسرعوا فى انهاء الأعمال المطلوبة منهم ٠

فقط يسرعون فى انهاء الأعمال المطلوبة منهم ٠

فقط ينجزون فى ساعة ما يأخذ ساعتين لانجازه ٠

بهذا ومن هنا تصعد السلم ونتعلم خطوة خطوة أن نصعد الى أن نبلغ الدرجة التى ينقلب فيها غضبنا على ما ساد حياتنا من تراخ وفتور الى غضبنا على الشعور الخفى بالهزيمة الذى استخفى علينا ومن غضبنا على ادراكنا اننا هزمنا الى ارادتنا الكبرى ، أن نهزم هزيمتنا ونقهرها ٠

دعونا من الحديث عن الجبهة والحوار الناصرى الاسلامى وأخبار الشيخ صلاح أبو اسماعيل مع حزب الاحرار وعن المقارنة بين عبد الناصر والسادات وبين عصر الملك وعصر الثورة ٠

دعونا من هذا كله ٠

ولنبدأ بهذا الجهد الصغير القادرين عليه تماما . أن نسرع اذا مشينا ، أن نسرع اذا عملنا أن نسرع فى اتخاذ قرارنا أن نسرع فى تصحيح خطتنا ٠٠ أن نسرع بنفس النسبة التى تسرع بها الدودة اذا أحست بالخطر وأدركت ان بطئها هزيمة وهزيمتها فى بطئها ٠



عبقرية المعارف

أعتقد ان الكتابة عن الأمراض عامة ، وعن أمراض الكاتب خاصة ، مادة غير محببة الى القراء ، ذلك انى أعتقد ان القارىء مثقل بالمشاكل ، صحية كانت أو غير صحية ، ويريد ، اذا قرأ ، أن يقرأ شيئا آخر ولكننى هنا لن أتحدث عن مرض خاص أو عام ، ولكنى أتحدث عن ظاهرة مصرية أصبحت فعلا مشكلة خطيرة من مشاكل شعبنا ، ذلك هو الاهمال ، والاهمال ليس مقصورا على المرافق العامة ، ونظافة الأمكنة والشوارع ، ولكنه امتد حتى وصل الى الانسان منا ذاته ، كثيرا ما أتوه وأنا أحدق في أجسام المواطنين والمواطنات السائرين والسائرات فى الشارع ، واكتشف ان أجسامنا كمواطنين قد ترهلت بطريقة مزعجة ، ترهلا لا يكاد يعادله الا ترهل الملامح وعبوسها وكأنها هى واقعة تحت تأثير وابل لا يرحم من رذاذ الاكتئاب والمشاغل والهم المقيم ليل نهار ، وفى أشهر الصيف الأولى أحسست انى أترهل بطريقة مطردة حتى أصبحت ألهث لدى أى مجهود .

ولكنى مثلى مثل أى مواطن آخر كنت أقول لنفسى انه الكسل ، واللا مجهود ، وكميات الطعام التى لا داعى لها ،

فى الحقيقة كنت أؤجل التفكير فى جسمى أو فى صحتى باعتبار ان هناك أشياء أكثر أهمية بكثير ، وهذا يعتبر فى العرف العلمى المتحضر جريمة لا تغتفر ، وبعد أيام من الأجازة بالخارج ــ بدا عقلى ــ كما يقولون ــ يروق ، أجازة حقيقية لم أقرأ فيها جريدة أو كتابا أو انشغلت بأى قضية على الاطلاق فقد كان مخى مثخنا بعد عام حافل من القتال بالقلم ضد القصور ، وضد الغباء ولايقاظ الوعى فى أجهزة تريدنا أن نحيا كالسلامة ، نأكل ونشرب ونتناسل وننام ٠

المهم ، حين راق عقلى تذكرت انى لم أعمل فحصا شاملا لجسدى منذ أكثر من سبع سنوات ، صحيح ان طبيبى الدكتور مجدى يعقوب الذى أجرى لى العملية منذ اثنى عشر عاما أوصانى بعمل فحص شامل كل ستة أشهر مرة ، ولكن ، بعد عام أو عامين ، وبطريقتنا غير الجميلة ، أهملت كل شىء وهكذا رفعت سماعة التليفون وطلبت مجدى يعقوب لتحديد موعد ، تذكرت مساعدته حالتى وعمليتى ولكنها اعتذرت ان الدكتور مجدى يعقوب مشغول تماما باكتشافاته الأخيرة فى زراعة القلب والرئتين وانها تحيلنى الى طبيب زميله ٠٠ فى الحقيقة بعد هنيهة من الضيق وخيبة الأمل ، اذ المفروض ان من يعمل عملا أو عملية ما أن يظل يتابع صاحبها مهما كانت مشاغله ، بعد قليل عذرت السيدة وعذرت مجدى يعقوب ودعوت له فى سرى أن يواصل نجاحاته ، وأيضا اعتذرت عن الذهاب الى الذى لا أعرفه ، وفجأة اكتشفت ان صديقى الدكتور ذهنى فراج كان المساعد الأول لمجدى يعقوب فى عمليتى وانه يعرف حالتى تماما ، وطلبته فاذا بجهاز تسجيل يرد على قائلا انه فى أجازة فى اسبانيا وانه سيحضر بعد أسبوع ، وانتظرت على أحر من

الجمر . وتنفست الصعداء وأنا أطلبه فيرد هو على ويعطينى موعدا بعد ساعة فى عيادته فى شارع هارلى الذى لا يستطيع أن يفتح فيه عيادة الا من وصل الى شأو علمى خطير فى الطب وأصبح على الاقل فى مرتبة « مستشار » طبى أو جراحى . فى الحقيقة لابد أن أعترف بشىء . نحن فى كثير من الأحيان نجنى على من نعرفهم شخصيا جناية بالغة ولأن محمد ذهنى فراج كان من شباب العائلة الأصغر فلم أكن أتصور انه ، وحده ، يستطيع أن يكمل دراسته فى انجلترا ، ويصبح واحدا من أعظم جراحي القلب وأطبائه فى لندن، ومستشارا لواحد من أعرق مستشفيات انجلترا، مستشفى وستمينيستر التاريخى . كل هذا وأنا مازلت أنظر اليه باعتباره ذهنى فراج الطبيب الشاب حديث التخرج فى رأيى ، وان كان قد مضى على تخرجه الآن أكثر من عشرين عاما ووصل الى كل ما وصل اليه .

والحقيقة ان مقابلتى معه كانت عاصفة فقد قال لى بصريح العبارة انى أنتحر واننى بالحالة التى كنت فيها معرض للموت فجأة ، ذلك انه وجد فى جسدى كمية من المياه الزائدة تعادل أكثر من ثمانية لترات ، ونتيجة لهذا فهناك ارتباك فى دق القلب ، .. الخ .. كل ما كنت خائفا منه .. حتى لقد قلت لنفسى انه يحاول اخافتى ليس الا .

ووصف لى دواء مدرا للبول اسمه فى مصر لازيكس ، فقلت له اننى أتناوله بانتظام ، قال : ومع هذا هو علاجك مع دواء آخر .

وكانت المفاجأة .

بعد ثمان وأربعين ساعة فقط من تناول اللازيكس الانجليزى اختفت تماما آثار المياه الزائدة ، وعاد تنفسى

طبيعيا . وعدت أسير لمسافة ميلين وثلاثة أميال بمنتهى البساطة مما دعانى للتوقف طويلا عند الدواء المصرى ، فاما أن الجرعة المكتوبة عليه ليست مضبوطة . واما أن المادة الفعالة فيه قديمة أو فقدت فاعليتها ، واما أن المعامل الأوروبية تطور من أدويتها باستمرار ، وهو شىء لا يحدث للأسف عندنا الا اننا غالبا ما نكتفى باستيراد المادة الفعالة التى درجنا عليها . ليس هذا بأى حال من الأحوال طعنا فى الدواء المصرى فانى أشهد وانى ومعى الملايين نعالج من هذا الدواء الرخيص جدا بالقياس الى أثمانه فى السوق العالمية ولكن ما أطلبه وما أعتقد ان لى الحق فيه ، هو أن يقوم مركز الدواء المصرى وهو هيئة علمية محترمة قامت لتعاير الجرعات الموجودة فى كل دواء وتقارنها بالجرعات المكتوبة عليه ، وتقيس مقدار فاعلية العناصر الواردة فيه ، وتفعل هذا مرة كل ستة أشهر على الأقل ، وأنا لم أعد أسمع عن هذا المركز، ولا عن نشاطه ، وتفاجأ كل حين بواقعة عن تقصيره ، وآخر المفاجآت كانت فى نوع من القطرة ان بها نوعا غريبا من الفطريات ، رجائى من الزميل الكبير الدكتور محمد راغب دويدار أن يعيد لهذا المركز مكانته وسيطرته اننى أعرف تماما انه لا يوجد غش فى الدواء ولكن الاهمال قد يكون له عواقب أخطر، وشركات الأدوية عندنا كلها ــ تقريبا ــ قطاع عام ، ومسألة التدقيق الشديد فى صناعة كالأدوية مسألة حياة أو موت وبالمناسبة أرجو الا أتلقى من الشركات والمؤسسات الدوائية ردودا انشائية طويلة فنحن حين ننقد احدى صناعاتنا ، وهى هنا أهم الصناعات ، لا نتوخى تشويها أو تشهيرا وانما فى الحقيقة وفى هذا المقام بالذات، نتوخى صحة الشعب ، الذى لا يعرف من أسرار تركيب الدواء كثيرا أو قليلا ولا حل الا باحياء دور الرقابة على

الدواء واحياء حقها في مصادرة أو اعدام أى دواء لا يطابق المواصفات .. ومحاسبة المسئولين عن ذلك .

المهم انى ، بنفس الجرعات . ونفس المادة شفيت من هذا الماء الزائد ، ولكن ما دور ذهنى فراج فى هذا ؟

دوره ان بعض أطباء القلب الذين كشفوا على سواء فى أمريكا أو اليابان قد شخصوا الأمر باعتبار ان العيب فى القلب ، تشخيص ذهنى فراج كان ان العيب ليس فى القلب وانما فى الماء الزائد الموجود بالجسم ، اذا طرد عاد الجسم الى حجمه الطبيعى وعاد القلب الى طبيعته ، وقد تبدو تلك القضية من البساطة بحيث لا تستدعى أى عبقرية ولكنها ليست كذلك . اذ معنى ان العيب فى عضلة القلب ان لا حل فى يد الطبيب أو المريض بينما بالتشخيص الثانى الحل فى يد الطبيب والمريض .

شكرا لنابغة من نوابغ مصر الشابة ، وآسف تماما لبيئاتنا الطاردة التى تقدم مواهبنا الى حضارات أخرى على أطباق من الفضة .

ان أثمن ما فى ذلك الشعب هو شبابه ، وحين يقرأ الانسان عن مشاكل الخريجين ، وتعيين الخريجين والبطالة المقنعة يحس بأن هناك شيئا خطأ ، واننا مقصرون فى حق اكتشاف وتشغيل ورعاية أجيال لو أتيحت لها الفرصة كاملة لجعلت من مصر جنة الله فى أرضه ، لماذا يا الهى لا نعقد مؤتمرا علميا جادا جدا ومصغرا جدا ومحددة مهمته تماما : بحث الثروة البشرية المصرية المهدرة وفتح الطرق المسدودة أمام استغلالها وتنميتها ؟!

مولد القاهرة الكبرى

محافظتنا القاهرة والجيزة أو باختصار القاهرة الكبرى في عيد أو في مولد ، وهو مولد ، لحسن الحظ ، أصحابه حاضرون .. فأنا أسكن في الجيزة وأعمل في القاهرة . والجيزة مشغولة تماما بمهرجان عايدة تحت سفح الهرم ، والقاهرة مشغولة تماما بمهرجان مترو الانفاق تحت سطح الأرض وفوق سطح الأرض .

وقد أهدانا الدكتور عبد الحميد حسن بمناسبة عايدة هدية رائعة الجمال هي ساعة زهور أقامتها « وكالة الاهرام للاعلان » « حاجه ببلاش كده » وتصادف انى لم أر الساعة حين عدت من الأجازة . ولكنى فوجئت في الحادية عشرة مساء ثم في الثانية عشرة بأجراس تدق في ميدان الجلاء القريب جدا من بيتي وأنا لا أعرف السبب ترى ما هذه الضجة الغريبة على ضجات الليل في حينا ، أنا أعرف ضجات الليل عندنا تماما ، فبعد انتهاء حركة المرور الرهيبة في شارع النيل وشارع لطفي حسونة يكون الموعد قد حان لكلب مجنون لابد مصابا بالسعار ، بالمناسبة أين مكافحة الكلاب ـ المسعورة في الجيزة ؟ اذ يبدأ النباح بالضبط في الثانية من صباح كل يوم ، وأستمع جيدا لأعرف لماذا ينبح هذا الكلب المنكود ، وأصيخ السمع ، فلا ألمح نسمة أو حركة أو انسانا في الشارع ومع ذلك يظل ينبح وينبح وكأنه ينادى غفاة البشر أن يهبوا لملء الكأس قبل أن يملأ كأس كف القدر ، ولا يتوقف من النباح ـ شكرا له ـ الا عند طلوع الشمس . وقبل أذان الفجر بدقائق أسمع فرقعة « فسبا » مهولة الوقع وسط السكون التام ، ولها عشر سنوات بالضبط وهى تفرقع في نفس الوقت تماما من نهاية كل ليلة ، حتى خمنت انها لابد تخص موزع اشتراكات الجرائد لشارعنا أما تلك

الدقات النحاسية فقد كانت غريبة تماما . وحين دقت دقتين ونظرت فى الساعة ووجدت انها الثانية الا دقيقة عرفت ان الدقات لساعة . ولكن أى ساعة لم أعرف الا فى الصباح حين لمحت السور المقام حول سرة الميدان . العقارب الحاملة للزهور .

وفى الصباح رجوت من الصديق الكبير الدكتور عبد الحميد حسن محافظ الجيزة آن يعقد مع سكان منطقة الجلاء اتفاقا ، ان تدق الساعة فى النهار فقط وأن (تنام) دقاتها الى الثامنة صباحا ، وكان الرجل كريما ومن الليلة التالية اختفت دقات الليل النحاسية ، ولكن عواء الكلب ظل على انتظامه وكذلك فرقعات الفسبا والأمر لله من قبل ومن بعد ..

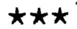
أما محافظة القاهرة فكلما رأيت كم ونوع العمل الجارى فى ميدان التحرير وشارع رمسيس وميدان رمسيس وقرأنا ان افتتاح مترو الانفاق سيكون يوم ٢٧ سبتمبر ومعه انتهاء كل أعمال الأسفلت ورصف الميدانين والشارع ، تأكدت انه من المستحيل آن ينتهى كل هذا العمل بعد آيام لا تزيد على أسبوع - وحدث أن جمعتنى مناسبة اجتماعية قريبة مع اللواء يوسف صبرى أبو طالب محافظ القاهرة وحدثته فى هذا وعن شكى فى امكانية تنفيذه ، فأكد لى بما لا يدع مجالا للشك ان كل الأعمال السطحية فى الميدانين والشارع ستنتهى فعلا يوم ٢٧ وان ما سيتبقى هو تشجير الشارع والميدانين ذلك الذى سيأخذ وقتا أطول .

ولو أن القائل كان هو المحافظ الذى أنشأ الحديقة الدولية الجميلة فى موعد قياسى ، وكثيرا من الحدائق غيرها، الا اننى من فرط عدم تأكدى ، قلت له أتقبل رهانا على هذا

يا سيادة المحافظ . قال : آقبل ولم نتفق على قيمة الرهان أو نوعه ·

ولكنه رهان أتمنى ان أخسره فهو على الأقل سيثبت لى انه بالارادة الكفء وبالمدير الكفء ممكن أن نحل مشاكل مثيرة جدا متراكمة فوق بعضها من قديم الزمان الى الآن ·

وسيثبت لى شيئا آخر ، اننا ، المصريين ، كأحصنة السباق، لا تتبدى قدرتنا المخيفة على العمل والانجاز الا قرب النهاية ، نهاية السباق أو نهاية الدراسة أو نهاية المشاريع، والا فما الذى كان يمنع أن ينجز كثير من العمل الجارى انجازه الآن أثناء التشطيبات الأخيرة لأول مترو انفاق فى آسيا وأفريقيا باستثناء اليابان ·



سران كبيران من آسرار الوجود يحيرانني سر الكون ، وسر الشعب المصرى ..

آما الكون فعلماء الفلك والطبيعة النووية والكيميائية وعلماء الفضاء عاكفون على دراسته ، وكل يوم أقرأ جديدا عن اكتشاف مجرة ما ، أو سرعة ما أسرع من سرعة الضوء التى أجمع العلماء على انها آسرع سرعة فى الكون منذ عهد أينشتين ، اقرأ عن البقع السوداء التى تتكثف فيهـا المادة بالتقارب الشديد بين ذراتها وبين مكونات الذرات داخلها، بحيث يمكن أن يصل ثقل ما يوازى كرة المطاط منها ، ثقل الكرة الأرضية كلها ، الكون يتمدد ، الكون ذات يوم سيعود الى الانكماش ، الكون ينبض ، الكون يتحرك ، الى أين وفى أى اتجاه ، وهل ما هو خارج الكون فضاء أثيرى كمـا كنا نعتقد ، أم انه لا يوجد للكون ، خارج ، فكل الكون داخل كل الكون ، والأحداث كلها تدور منه ومن داخله .

وأنا هنا لا أتحدث عن خلق الكون ولا عن الخالق سبحانه، اننى انما فقط أورد بعضا من البحوث التى كتبت لسبر هذا

الشيء الكوني الذى نحن البشر منه ، وهو منا ، والذى يعتبر فيه الانسان العين الوسيطة بين الكون الاكبر الـ (   ) والكون الأصغر الذى يوجد داخل الذرة الـ (   ) ولهذا فهو وحده الذى يدرك وجـودهما معـا ، ورغم ذلك فمعلوماته عن كنه هذا الوجود لا تزال قشرية تماما ولم تصل بعد الى أى حد أدنى معقول لادراك كنه التركيبة الكونيـة الصغرى أو الكبرى .

ذلك عن سر الكون ..

أما السر الذى يكاد يجاوز فى صعوبته سر الكون ، فهو سر الشعب المصرى .. الشعب المصرى بالذات .. ولا أقولها كمصرى منحاز لمصر ، ولا فخور أو متفاخر ، انما أقولهـا لأؤكد حقيقة أنفقت حال عمرى ، ذلك الذى أنفقت نصفه فى تأمل الكون وخالقه ، أنفقت نصفه الآخر فى تأمل شعبنا المصرى هذا وسره .

انه من جنس الانسان قطعا ، بل من المحتمل تماما أن يكون من أول الكائنات البشرية التى وجدت على سطح الأرض ولهذا فتاريخه هو أطول تاريخ لأى شعب ، فقد وحد الملك « مينا » القطرين من أكثر من خمسة آلاف سنة ، ولكن قبل هذه الوحدة كانت هنـاك دولتان عاشتا طـويلا ولم يعرف عنهما شيء ، وقبل الدولتين كانت ثمة عشائر وقبائل وعصور صيد وزراعة وتاريخ طويل طويل ، سر لا يمكن أن تعرف منه أبدا ماذا يريد هذا الشعب وماذا لا يريد ، ماذا يغيظه وماذا يسعده !!



لماذا تبادر الى ذهنى السران الآن ؟

الجواب حقا غريب ، اذ هـو يتعلق بترشـيح الرئيس حسنى مبارك ومبايعته ٠٠ ذلك انني أمضيت الأسبوع الماضي كله أستمع الى صرخات شباب متشنج يشـجب الطريقـة الاعلانية المواكبة المصطنعة التي تدور على صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون ٠٠ والغريب انى حين كنت آناقش هذا الساخط أو ذاك وأقول على سبيل الدعابة . وماذا يغضبك ٠٠ هل انت ضد مبارك ؟ الغـريب ان الجـواب من كل الشباب الذين سألتهم كان يأتى على هيئة : أبدا ٠٠ آنا مع مبارك ٠ اذن لماذا غضبك ؟

وهنا تبدأ تتفجر على آلسنة الجميع ، من هنا وهناك . أجزاء من حمم بركانية طال غليانها فى النفوس التى مجت طويلا فكرة فسرها على الاجمـاع وفكرة مبايعة المحـافظين والوزراء للرئيس وبنقود الدّولة والمـواطنين ، فكرة خلق ما يشبه الرأى العام الزائف والمزيه الداعي أولئك الذين يريدون وقرروا انتخاب مبارك فعلا ، أن ينتخبوه !

لو كان هذا الخطأ البشع فى جق مبارك وفى حق عهده قد ارتكب فى بلد آخر أعصابه ليست فى ثلاجة ، كأعصاب الشعب المصرى ، لكان قد ركب رأسه وأسقط ذلك الرئيس الذى يدعون اليه بطريقة مستفزة لا ذوق فيهـا ولا صدق ولا شيء سوى النفـاق الأعمى ٠٠ تلك الحملة الغوغائيـة الاعلامية جعلت نفسى تجزع حقا عنأن أكتب رأيي فى اعادة ترشيح مبارك ، وبالطبع لم أكن وحدى ، انى أعرف عشرات من عقلاء المصريين الفاهمين الواعين المقدرين لموقف مصر الخطير فى وسط شرق أوسط تحـكمه أمريكا واسرائيـل ٠ ووضع داخلى يتحكم فيـه الجشع والتعصب والجهل ، أعرف عشرات من هؤلاء ، كانوا ينوون ، بل كتبوا فعلا ، مقالات موضوعية تماما ، تقييما لفترة حكم مباركالسابقة ، وطلبوا

منه أن يرشح نفسه لفترة قادمة ، ولكنهم لا يفعلون هذا على بياض ، كل منهم كان يطالب الرئيس بمجرد موافقة مجلس الشعب على ترشيحه أن يلقى بيانه الانتخابى الأول الذى يحدد فيه على وجه الدقة واليقين ماذا سيكون عليه أن يفعله خلال السنوات الست القادمة ، وعلى ضوء هذا البرنامج يتم الاستفتاء ، اذ هو سيشكل عقدا سياسيا اجتماعيا اقتصاديا بين الرئيس وبين الشعب ترجع اليه وقت الخلاف أو الاختلاف ، ويكون هو الأساس فى الحكم والدستور المحدود للمرحلة القادمة .

ولكن هؤلاء العاقلين طووا الصفحات ووضعوا الأقلام باعتبار ان آراءهم تلك ستضيع وسط الزفة ووسط المواد ، ووسط بضعة موظفين من موظفى الحكم المحلى ، وللأسف جهات لها احترامها وتقديرها ، لديهم نقود الشعوب يشترون بها صفحات الجرائد ، ولديهم التليفزيون الملاكى يذيعون منه ويقولون ما يشاءون .

والشعب الماكر الخبيث يتفرج ، ويضحك من صميم قلبه ، حتى اذا التقى بصديق أو مسئول مهما كان صغيرا انفجر فيه بالسخط والغضب ، سخط وغضب أعتقد ان مصدرهما هو هذه المحاولة البشعة للاعتداء على حق المواطنين فى ابداء الرأى أو حتى فى تكوين الرأى . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أدرك الشعب أن كل هؤلاء المزيفين بمئات الألوف لآراء المحافظات والجامعات والهيئات معظمهم ـ ولا أقول كلهم ـ جماعات الانتهاز التى دأبت ومنذ هيئة التحرير الى الآن على أن تركب أعلى الموجات ، تصرخ وتزعق بآخر ما تستطيع وتمتلك من ميكروفونات وتمتلك عبقرية خاصة فى ازجاء المدح والنفاق دون الحاجة حتى الى محترف كتابة يصوغ لها ما تريد قوله : أنهم اذا ليسوا ناخبين ، أو مؤيدين

لمبارك « بالروح والدم نفديك يا ٠٠ » « فلم يفد أحد أحدا
لا بالدم ولا بالمال » انهم انما باعلاناتهم يرشحون أنفسهم
هم وليس مبارك ليبقوا فى الصورة أثناء عهد الرئاسة القادم
أو ربما يضرب الحظ مع بعضهم ويختار لمناصب أعلى ٠

★★★

لقد كنت من أوائل من طلبوا مقابلة الرئيس مبارك
بعد انتخابه فى ١٣ أكتوبر ١٩٨١ ، فقد كنت أريد أن
أطمئن على الرجل الذى ألقيت اليه مقاليد أمورنا فى واحدة
من أدق مراحل حياتنا ٠٠ وكتبت عن تلك اللقاءات وقلت
فى احداها ان رجلا مثلا مبارك لا يمكن أن يخون القضية
المصرية لسببين رئيسيين : لأنه أولا ضابط جيش ، والجيش
المصرى منذ ما قبل عرابى والى الآن هو مدرسة أولى للوطنية
المصرية ، ان هذا الشاب الذى يدخل الكلية الحربية ليخوض
حربا قد يفقد فيها حياته دفاعا عن بلاده وشعبه ، شاب غير
عادى، وطنى بالضرورة ، شجاع بالسليقة٠ أما السبب الثانى
فهو انه حارب اسرائيل دفاعا عن مصر ، وما دام ضابطا
ومحاربا فمن رابع المستحيلات أن يخون أو يفرط ٠

ولقد مضت سنوات حكم الرئيس مبارك الأولى، والشعب
ينتظر تغيرات عظمى تزيح من على وجه الساحة الطغمة
الباغية التى أودت بكبيرها الى حتفه أولئك الذين جعلوا من
عبد الناصر بنفاقهم اليومى شبه اله لا ترد له كلمة٠٠ ولكن،
لأن الرئيس مبارك ، ذكر لى أثناء تلك اللقاءات انه أبدا لم
يسع لوظيفة ما من وظائف الدولة منذ تخرج من كلية
الطيران ، وأصبح مدرسا بها ، وتفانى فى أداء وظيفته حتى
وجد نفسه ذا يوم مرقى الى رتبة أركان حرب الكلية ، وبنفس
الجهد والتفانى عينه عبد الناصر مديرا لكلية الطيران ، ثم

عينه الرئيس السادات رئيسا لسلاح الطيران وخاض الحرب، وفوجيء بنفسه يعين نائبا لرئيس الجمهورية ، والمحيطون بالرئيس مبارك ، وهم قليلون ، يذكرون انه أمضى فى بيته ثلاثة أيام بعد ماعرض عليه الرئيس السادات منصب النائب، يفكر فى الكيفية التى يعتذر بها عن هذا المنصب ، فمبارك اذا عرفته عن قرب رجلا لا تهمه المناصب ، ولا يسعى اليها ، شاب طيار مصرى يحيا حياة الطيارين المثالية ، يستيقظ مبكرا جدا ويعد الشاى ، أحيانا بنفسه ، لأولاده ، ثم يمارس رياضته المفضلة الاسكواش لأكثر من ساعتين ، ثم يبدأ (يدرس) مشاكل مصر وحلولها : ذلك انه جيء به الى الحكم من القوات المسلحة البعيدة فى شئونها تماما عن الحياة المدنية ، وعن المشاكل الكثيرة المعقدة للدولة وللشعب ، بلا حرج كان يقول انه يدرس ، ويتشاور ، ويعقد جلسات خاصة لا يعلن عنها ، باختصار ، ودون خدش لمكانته كان مبارك (يتمتم) كيف يدير مصر ادارة وطنية نظيفة ، تحل مشاكلها العاجلة وتفتح الباب أمام مستقبل أكثر ازدهارا٠

ورغم ان بعض من يكونون فى مرحلة التعلم تأخذهم العزة بالنفس والتمسك المتعصب بالرأى ، الا أن الرجل كان يمتلك ميزة فريدة ربما لا يتمتع بها كثيرون ممن تربوا فى الحياة العسكرية ، وهى قدرته على تقبل النقد ، وتمسكه الشديد بالديمقراطية ، وبالذات بحرية الكتابة ، وأشهد انى منذ أكتوبر ١٩٨١ لم تشطب لى كلمة واحدة من مقال واحد بينما لى دوسيه كامل من المقالات المرفوضة وأوامر الفصل فى العهود السابقة ٠ ذلك انه كان أيضا يتعلم من النقد ٠٠ بل ويتعلم من أخطائه ٠٠ ولقد أخطأ الرئيس مبارك ذات مرة فى حقى نتيجة دسائس قام بها اناس يرحمهم الله أحياء وأمواتا ٠٠ يحيطون به ويغذونه بمعلومات يتضح

بعد هذا ان معظمها كاذب ·· ولقد كتبت أدافع عن نفسى وأتهمه انه ـ وهو الرئيس اللدولة قد تجنى عـلى ـ فلمن أشكو ويشكو أى انسان رئيس الدولة اذا تجنى عليـه ، حتى القضاء لا يستطيع الحكم ضده (الا بعد اجراءات مستحيلة بنص الدستور) ··

ولكن لأن خبرتى بطبائع النفوس لا تجعلنى أحكم على الانسان بخطأ حتى ولو كان الخطأ ضدى فلقد ظللت أؤمن ان مبارك هو الحل منذ أن انتخب ·· وكأنما أراد الله لمصر أن يأتى لها بحاكم ينفر من فكرة الزعامة ولا يسعى لأمجاد · وانما يريدأن يسوس بلاده وشعبه ويؤدى واجبه هذا بمنتهى التفانى كما كان يفعل وهو مدرس بالكلية الجوية حين كان يستيقظ فى الخامسة صباحا ليوقظ الطلبة جميعا الى طابور رياضة يتعلمون فيه الجدية والمحافظة على أجسادهم وصحتهم حتى ضج الطلبة منه ولكنى أعتقـد انهـم الآن قد أدركوا فائدة ما كان يصنعه مدرسهم بهم ··

لقد كان مبارك هو الحل الأمثل لتناقضات مصر الصارخة بعد عصر السادات والانفتاح المجنون والانكفاء على أقدام الأمريكان والاسرائيليين ولقد حدثت أثناء حـكمه أحداث مروعة · أقلها اضراب جنـود الامن المـركزى · وبدايات الفتنة الطائفية المهولة ، ولو كان مبارك قد تصرف بعصبية اللحظة لفجر براكين هائلة لا تزال تغلى فى نفوس الشعب ، ولكنه استعمل الزمن معه ، واستعمل الصبر ـ يا لقدرته على الصبر الطويل ـ معه · والنتيجة ليست سيئة بالمرة · صحيح لم يتحقق كل ما حلمنا به ومن أجله خرجنا خـروج رجـل واحد ، بلا لافتات ولا صفحات ولا برامج متلفذة تنتخبه ، لم يتحقق الشىء الكثير ، بل ولا أعتقد انه خلال السنوات القادمة ستحقق معجزات ، فزمن المعجزات قد انتهى ، وزمن

الرؤساء أصحاب المعجزات انتهى ، ونحن بشر ، ومبارك بشر . مصرى مثلنا ونحن مصريون مثله ، ولا يزال هو أيضا مركز الدائرة المصرية ، تلك الدائرة التى يشمل محيطها من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ومن المفكرين لغيرهم الحاكمين باعدامهم ، الى أصحاب العقول والعقول الاسلامية الرحبة ، ومن شيخ الأزهر الى البابا شنودة ٠٠ ولأنه مركز الدائرة ، ولان الدائرة أوسع من مصر اذ هى تشمل بلادنا العربية التى تمردت مرة ــ وكان لها الحق ــ وقطعت علاقتها بنا ، فبدون أن يتحرك المركز ها هى علاقتنا العربية تستعاد ، ان لم يكن على المستوى الرسمى فعلى المستوى السياسى والاقتصادى والثقافى لدرجة انى كدت أضحك وأنا أقرأ بطاقة الدعوة فى افتتاح معرض السعودية بين الأمس واليوم ، ومذكورة فى أعلاها : سفارة باكستان ــ قسم رعاية المصالح السعودية ــ يا للعار ٠٠

شكرا أيها الرئيس مبارك على قيادتك للسفينة بكل ما تملك من جهد وكفاءة طوال ستة أعوام ٠٠

شكرا ان السفينة لم تغرق ٠٠

ولم تصدم ٠٠

وان ركابها لا يزالون أحياء مع ان حملها زاد بازدياد مطالبهم واحتياجاتهم ٠٠ ومع اننا ــ بتجربتنا معك واثقون انك ستمضى مستقيما كما مضيت ٠٠ الا اننا نحن الآخرين نريد أن نرى معك الطريق ــ ولهذا انت مطالب أيها الرئيس بأن تعلن لنا ــ وفى أقل الكلمات برنامجا ــ لكى تكون هناك عملية استفتاء حقيقية ، اذ أن هذا البرنامج لو لم يعلن فلا فائدة من الاستفتاء أصلا ٠٠ فأنت المرشح الأوحد ، وأنت مركز الدائرة ومركز اجماع المصريين ، وكلهم لم

ينتخبوا سواك . فلماذا الاستفتاء ٠٠ الا اذا كان استفتاء على برنامجك وليس على شخصك ، فهو استفتاء أساسا على حاضر مصر ومستقبلها ومن أجلها وليس استفتاء على شخص الرئيس مهما أجمع عليه ٠٠ أليس كذلك ياسيادة الرئيس؟!

والى أن نلتقى ان شاء الله بعد اسابيع الأجازة أتمنى لكم أطيب الأوقات ٠٠



وذهبت للدعوة الغامضة

كانت الدعوة غامضة تشبه ما تكون بالألغاز : بيـان ميدانى للجيش الثالث ، المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة يدعوكم : الوجود فى مطار الماظة الحربى الساعة ٠٠٩ ، أسعدتنى الدعوة تماما رغم غموضها وفى نفس الوقت رحت أطارد مختلف الأعذار التى يمكننى أن أتعلل بها، واستيقظت فى السادسة صباحا لأصل الى طريق المطار فى الثـامنة والنصف ، وأقضى نصف ساعة كاملة أبحث عن مدخل مطار الماظة مع اننى كنت قد سافرت منه مرة عـلى ما أذكر قبل افتتاح المطار الجديد ـ القديم حاليا، ذلك ان المبانى أحاطت بالمطار حتى ابتلعته تماما ولولا سائق تاكسى شهم طلب منى أن أتبعه ليرينى باب المطار ما وصلت ، ووصلت ٠

وجوه باسـمة مرحبة من قادة سـلاح الطيران ، وجه الصديق الكبير الفريق صفى الدين أبو شناف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة وأشواق وعناق ٠٠ هذا رجل أحب التحدث معه فقد صاحبنا فى زيارتنا للمصانع الحربية وأحسست احساسا عميقا اننى يمكن أن ألقى كل ما لدى من أسئلة وهواجس ولم يتردد أبدا أو يبدو عليه انزعاج ما لأى

سؤال ، وهى اجابات عميقة معقولة تماما ومن لحظة تلك المواجهات الصريحة أحسست اننا أكثر من أصدقاء ٠

ـ الى أين يا سيادة الفريق ٠

ـ الى سيناء ٠

نعم كان قلبى يحدثنى اننا ذاهبون الى سيناء فصحيح ان الجيش الثالث يحتل جانبا من الضفة الشرقيـة للقنـاة ومدينة السويس ولـكن فرحتى آكدت لى اننا بسـبيلنا الى القيام بزيارة لمكان ما فى سيناء تدور فيه معركة بالذخيرة الحية وتصور لأمر ما أن المعركة ستكون فى المنطقة (أ) أى فى الجانب الشرقى المباشر لسيناء لم آكن أتصـور أبدا أن المعركة ستكون فى أحد المضايق الثلاثة الرئيسـية لسيناء مضيق الجدى أضيقها جميعا وأصعبها غزوا ، اذ أن المعركة كما شرحها لى الفريق أبو شناف ستفترض آن العدو وقد قام بغزو سيناء مرة أخرى وانه نجح فى الاستيلاء على مضيق الجدى وان قوات الجيش الثالث الميدانى ستقوم بصد الهجوم وطرد العدو من المضيق واحتلاله وطرد العدو الغازى منه ٠

ومع الزميلين والصديقين صـلاح منتصر ومحفـوظ عبد الرحمن ركبنا ومعنا محافظ السويس الضاحك المتفائل أبدا اللواء تحسين شنن وكوكبة من كبار الضباط ركبنـا هليكوبتر من الطراز الذى تركبه فرق الصاعقة والمظلات ٠

ولأن تلك أول مرة فى حياتى آركب هليكوبتر فقد بدت التجربة مثيرة تماما ولـكن الاثارة لم تستمر سـوى بضع دقائق فالركوب فى هذا النوع من الطائرات يستلزم لياقة بدنية عالية وقدرة على احتمال الضجيج بحيث لابد أن تكون (طبلة) آذنك مصنوعة من الصلب الرقيق فضجيج محركها

عال تماما وكأنك تطير بوابور جاز كبير مما تصنع الطعمية بواسطته ، صحيح ان الطيران لم يستغرق أكثر من ساعة لكنها تساوى بحساب الطيران المدنى العادى ست ساعات من التعب والارهاق .

عبرت الطائرة قناة السويس ولأول مرة أرى القناة من علو منخفض وأدرك ان عمقها الحقيقى هو فى مجرى رئيسى على جانبيه مياه ، هذا حقيقى ولكنها مياه ضحلة لا تحتمل الا ملاحة القوارب فوقها .

ثم بدأ الشاطىء الغربى لصحراء سيناء شاطىء رملى مثله مثل شواطىء البحر الأحمر وخليج السويس وفجأة وجدنا أنفسنا فوق هضبة سيناء التى تحتل وسط سيناء من الشمال الى الجنوب هنا كشرت الطبيعة عن أنيابها وأصبحت متجهمة قاسية التضاريس هذه الهضبة المتجهمة لا يمكن القتال فوقها فمسالكها وعرة واختراقها مستحيل الا من ثلاثة أو أربعة مضايق متعرجة تضيق تماما عند الحافة الشرقية للهضبة بحيث يصبح عرض نفق ـ مثل الجدى ـ لا يسمح الا بمرور دبابة واحدة وبحيث يمكن لأى كتيبة واحدة أن تدافع عن كل نفق الى ما شاء الله وكنا نقرأ عن هذا كله ونقرأ عن ترك الجيش لمواقعه شرق المضايق والتقهقر بالأمر الى غرب القناة وكنا نندهش نحن المدنيين الذين لا يعرفون شيئا عن العسكرية لهذا الذى يحدث وكنا نستنكره ولكن ما فائدة رأينا المدنى الذى يأتى دائما بعد اعطاء الأمر وفوات الأوان .

وعلى الطبيعة تبدو المسألة واضحة تماما فالممر وان كان ممرا الا انه حصن طبيعى ضد العدو فمنه ننفذ الى غرب سيناء وبه نستطيع أن نحصن مصر والجزء الأكبر من سيناء

ضد أى غزو قادم من الشرق هبطت الهليكوبتر واستقبلنا اللواء عادل القاضى قائد الجيش الثالث وما أن هدأ — على المقاعد — فوران الدم الحادث من وابور الجاز الذى كنا نركبه حتى جاء المشير الذى احتفل بشجاعتنا فى الحضور وكانت الخيمة عامرة بالملحقين العسكريين العرب وأعضاء من مجلسى الشعب والشورى وكبار قواد القوات المسلحة وكانت الريح قد بدأت تصفر ورغم حرص قيادة الجيش الثالث على توفير الراحة لنا الا انها تقف عاجزة أمام أحوال الجو المتقلبة فقد بدأت الهضبة التى كنا نطل منها عـلى الممر الـواقع تحتنا بكيلو متر بدأت تقذفنا بكميات من الرمال الى درجة أكاد أقول فيها اننا عدنا من سيناء رجالا من رمال من قمة شعرنا الى ما بين أصابع أقدامنا ٠

وبدأ البيان ٠

وكان البيان عبارة عن محاولة استرداد السيطرة عـلى النفق وطرد العدو منه ولهـذا كانت قوات الجيش الثـالث تهاجم من يميننا الى يسارنا ولست بخبير عسكرى حتى أدلى برأى فيما حدث ولكننى كنت منفعـلا تماما بأشـياء كثيرة جدا ٠ أولها اننا فى المنطقة (ب) حسب معاهدة كامب ديفيد تلك المنطقة ذات التسليح الخفيف وكنت كثيرا ما أتذكر هذا وأحس بالغصة من قبول تلك الشروط المتعسـفة ورضائنا بها ها نحن الآن فى قلب المنطقة(ب) وحيث سيشترك الطيران مع المدفعية مع الدبابات مع قوات الصـاعقة فى هذا البيان العسكرى اما ما أذهلنى فى ذلك البيان فهو التوقيت الدقيق لتدخل الدبابات مع التمهيد بمدفعيـة الميـدان الثقيلة ثم اجتياز حائط النابالم الذى أقامه العدو ليحد من زحف قوات المشاة المحمولة فوق الدبابات أو النازلة من أعلى الجبل المقابل ثم الطيران المصرى، ياللعظمة وأنا أشاهد لأول مرة فى حياتى

طائرة هليكوبتر من صنع مصر تقـذف صـواريخ صناعة مصرية شاهدتها قبلا فى مصنع صقر وتصيب الهدف بدقة رائعة الى حد أن الطائرة (الحازيل) تصوب من بعد أكثر من أربعة كيلو مترات على هدف ـ مفروض انه كمين للعدو ـ لا يتعـدى حجم بابه المتر المربع فتنسفه تماما ثم تـوالت موجات الهجوم بحيث لا يحـدث خطأ يؤدى الى أن تقـذف القوات المصرية بنيرانهـا عـلى قوات مصرية توالت موجات الهجوم واصرار عليه ومفاجآت المدفعيـة الثقيلة التى تهز الجبل حتى ليرتعش وكأنه أصيب بحمى صاعقة ثم وفى ظل ظروف جوية سيئة تماما وكأنما كانت تعمل لصالح العـدو تثبت طائرات الهليكوبتر نفسها حتى تسقط كل منها عشرين مقاتلا من الصاعقة ينزلون بسلك الى الأرض حيث الأرض لا تصلح حتى لهبوط الهليكوبتر. رياح عاصفة شديدة بحيث ان مطارات مصر المدنية أغلقت فى وجه الطائرات يومهـا اما الصـواعق فقد كانت من صنعنا نحن وفجـأة أحسست انى فى جو حرب حقيقيـة لأول مرة فى حيـاتى والجيش المقاتل جيشى هذه المرة لقد اشتركت بمعركة واحـدة فى حرب التحرير الجزائرية ضد فرنسا وكان نصيبى خلعا فى الركبة اليمنى لا يزال يؤلمنى الى الآن ، ولكن معركة بهـذا الحجم وباشتراك كل تلك القوات لم آجربها آبدا والغريب فى الأمر انها حرب لا ترى المقاتلين فيها فلونهم من لـون الطبيعة وأجهزة تنشينهم بالرادار والليزر ولكنك قطعا ترى ارادة الحرب والصدام واضحين من خلال مشهد حافل بدخان دانات المدافع والدخان المخفى لتحركات المشاة ودخان النابالم التى صنع بها العدو حاجزا من لهب يحد من تقدم المشاة حرب بمعناها الحديث تماما ان العدو ليس هناك وانما نحن أيضا الذين نضع العراقيل ونحاول صد الهجـوم ، ولكنهـا بكل

المقاييس حرب ترتعش لها قلوبنـا كما يرتعش لها الجبـل ونصفق بتلقائية لدى كل رمية تصيب ، وكل تحصين للعـدو يسقط ٠

وصحيح ان المشير أبو غزالة قد قال فى تصريح صحفى له ان هذا بيان عسـكرى فقط لا علاقة له أبدا بالوضـع السياسى الحاضر وليس له أى معنى آخر غير المعنى المباشر وهو تحقيق مناورات عسكرية لرفع الكفاءة القتالية للقوات المسلحة مناورات ذات مواعيد محددة سلفا ولا علاقة لهـا بمجريات الأمور ٠

ولكنى أقول ان دوى المدفعية المصرية كان يخترق اذن الأصم ويصل الى رفح ومعبرى الحدود ويسمعه كل ذى أذن تسمع ولا يسمعه أولئك الذين لا يريدون أن يسمعوا ٠

★★★

انتهى البيان الذى بلغت الدقة فيـه حـد ان كل قائد تشـكيل يحين دوره فى وصـف ما نراه كانت كلماته هى بالضبط مؤقتة مع أداء التشكيل لا ثانية زيادة أو نقص وفى العودة سعدت جدا بنبـأ اقفال المطارات فى سـيناء وجميع مطارات مصر اذ معنى هذا اننا لن نركب وابور الجاز مرة أخرى وانما سنأخذنا السيارات عبر مسارات ملتوية طويلة جدا حتى نصل أخيرا مبنى قيادة الجيش الثالث وكان المشير أبو غزالة قد وصل اليه قبلنا وكان لقاء حافلا طـويلا مع المشـير ناقشناه فى كل شىء ولم يتردد أمام أى سؤال وكان بعضها محرجا وكنت سعيدا به تمام السعادة فاذا كان قد حرص على اقامة صناعة عسكرية مصرية متطورة فها هو ذا يرينا اليوم ما طلبته أثناء زيارتنا للمصانع الحربية من أن يرينا هذه المدفعية المصرية الصنع والصواريخ صقر والذخيرة

المصرية والليزر والرادار فى حالة (فعــل) وكانت هــذه الدعوة الغامضة للبيان العسكرى للجيش الثالث حيث نرى مئات الشباب المصرى المقاتل يستعملون أسلحة مصرية وذخيرة مصرية فى قتل العدو الغازى القادم من الشرق ٠

لقد كان يوما من أجمل أيام حياتى ٠

الرسالة وصلت وشكرا يا سيادة المشير ٠

الرقم القومى

من أشق الأمور على النفس أن يحس الانسان انه ظلم أو انه مظلوم وأحيانا يجد المظلوم نفسه عاجزا عن أن يثبت انه على حق وهذا ما حدث لى من تسوية مدة خدمتى بالحكومة وبالصحافة فقد سـقط ملف خـدمتى كطبيب فى الادارة الصحية لمدينة القاهرة مدة حوالى تسع سنوات بعد التخرج الى أن استقلت من الحكومة والتحقت بجـريدة الجمهـورية وحاولت المستحيل للعثور على ملف خدمتى فى أضابير وزارة الصحة وفى الادارة الصحية للقاهرة تلك التى كانت تتبع فى أيامنا وزارة الشـئون البلدية والقـروية أو حتى فى وزارة الثقـافة التى عملت فيها بعض الوقت منتـدبا من الشـئون البلدية صحة مصر دون جـدوى والحقيقـة انى أحسست بغيظ لا مثيل له فتلك السنوات بالذات هى أشقى سنوات عمرى حيث كنت أستيقظ فى السادسة صباحا وأعود بعد الخامسة كعضو لجنة التصاريح لفتح المحلات العامة أو كقائم بأعمال حكيمباشى محـافظة القـاهرة لست سـنوات متتالية حيث كنت أعمل مفتش صحة لبولاق أحيانا وللدرب الأحمر أساسا وأحيانا مصر الجـديدة أو مصر القـديمة ، جبتها « كعابى » على قدمى كل حوارى ودروب القاهرة وحتى

مدافنها ثم تسقط هذه المـدة من خـدمتي كيف ، احسست بنفس الاحسـاس الذى يرسله لى بعض القـراء أحيـانا والذى قل فى الآونة الأخيرة تماما والاحساس بأنه ممكن أن تضيع تلك اذا ضاع ملفك أو جزء منه وهكذا بعناد شخصي مشروع آليت على نفسى أن أسترد حقى الضائع هـذا مهما كان الثمن ومع هذا عجزت تماما فالمطلوب هو ملف الخدمة الموضحة به أقساط التأمينات والملف مفقود ٠

وحين استشرت الأستاذ سعيد ماهر مسئول التأمينات فى مؤسسة الاهرام قال لى لم يعدأمامك الا آن تلجأ لوزيرالشئون الاجتماعية وتطالب بحقك وأنا شخصيا أستحى من مقابلة أى مسئول فى الدولة أو طلب شىء لنفسى ولكن كلما تذكرت السنوات التسع من الشقاء والكدح وضياعها على لم أستطع أن أمنع نفسى من الاتصال بمكتب الوزير وآخذ موعدا وأنا يائس تقريبا اذا ذهبت فستقول لى حتما أين الملف ولا ملف اذن لا فائدة وكانت أول مرة أرى فيها الدكتورة آمال عثمان عن قرب تلك الوزيرة التى تبدو غير اجتماعية بالمرة التى تبدو فى صورها صـغيرة الحجم صـامتة أبدا وبدأت أسرد عليها مشكلتى ففوجئت بأنها ترد على بأنها لهذا أنشأت لأول مرة فى مصر كومبيـوتر مركزيا يرصـد فيه كل فرد من الشعب المصرى ابتداء من تاريخ مولده الى الـوظائف التى تقلدها الى يوم حلول خروجه على المعاش ، وكانت المفاجأة الكبرى انهاء لموضوعى وأمثاله قد أصدرت قرارا بلجنة تشكل لدراسة الحالات التى تشبه حالاتى وكتبت طلبا وضعت فيه كل البيانات التى لدى ثم عدنا الى حديثنا عن الرقم القومى لكل مواطن فى مصر وما عانت فى سبيل الحصول على حقه من الضغط من وزارات أخـرى كانت تريد أن تكـون هى صاحبته وانه تم رصد أكثر من ثلاثة عشر مليـونا مصريا

ومصرية وسيتم رصد جميع المصريين فى عام ٩٩ ان شاء الله واصطحبتنى فى جولة داخل هذا المخ الجبار الذى له أكثر من أربعمائة فرع فى أنحاء مصر على اتصال به ويستطيع أن يغذيها بالمعلومات بالتليفون تطور هائل فما فى ذلك من شك اذن لم تعد هناك أضابير وملفات ترعى فيها الفيران أبدا كل شىء مسجل على اسطوانات الكمبيوتر وغير قابل للضياع أبدا يالها من نقلة حضارية رائعة لو كنت مثلى قد ضاع ملفك وذهبت الى مخازن الارشيف فى وزارة الصحة تلال وتلال من الأوراق والملفات مستحيل أن تعثر فيها ولو كنت الجن الأحمر نفسه على ملفك ٠

أما نحن اليوم فبضغطة زر تجد اسمك وكل المعلومات المهمة عنك ٠

سألتها يعنى لو ذكرت لك اسما أستطيع العثور عليه ؟

اذا كان مقيدا ٠

قلت : هل الرئيس محمد حسنى مبارك مقيد ٠

قالت : نعم ٠

قلت (فى سرى) بعد اذنك يا ريس هل يمكننى أن أراه فطلبت من مدير المركز أن يجد رقم١٦ وفى توال سريع كانت صفحة الشاشة قد امتلأت بمعلومات ولكنى وقفت طويلا لدى الاسم اذ كان لا يبدو عليه انه اسم الرئيس فقد كان مكتوبا هكذا محمد حسنى عبد الرحيم مبارك ٠

قلت لها : أمتأكدة يا دكتورة ان هذا اسم الرئيس ٠

قالت : الرئيس نفسه استغرب منه ٠

شكرت الدكتورة آمال عثمان وعدت لمكتبى ومازلت فى انتظار قرار اللجنة ولكنى ذهبت مظلوما وخرجت سعيدا

مؤمنا أخيرا اننا قد استغنينا عن الاضابير والمخازن التى تملأ البدرونات وتأكلها مياه الرشح ·

المحافظ المثقف

فى ليلة شرقاوية حافلة كان لى لقاء رائع فى قصر ثقافة الزقازيق ، الغريب انها كانت أول مرة يدعونى محـافظ للشرقية لتلك الليلة الثقافيـة والدعوة نفسـها كانت فى توقيت غريب اذ كنت أعتزم أن أوجه خطابا مفتوحا عـلى على الصفحة الى الدكتور محمود الشريف رئيس معهد الأورام سابقا ومحافظ الشرقية الحالى وكان مضمون الخطاب هـو لومه على ترك مكانه الطبيعى كواحـد من أعظم الجـراحين المصريين يرأس أهم وحدة جراحية فى علاج السرطان ولكنى قبل أن أشرع فى كتابة الخطاب تلقيت مكالمة تليفونية منه وفيها يطلب منى تحديد موعد لأمسية ثقافية تعقد فى قصر الثقافة وفى نقاشنا صرحت له بنيتى فضحك وقال الحمـد لله : أنا قادم لتوى من غرفة العمليات بالمستشفى الأميرى اذ أنا أزاول الجراحة يوما واحدا فى الاسبوع هو يوم الاحد ، وبقية الأيام أقوم بعملى كمحافظ ثم انك يا فلان آخر من يلومنى على هذا ألم تترك انت الطب للكتابة ؟

وفعلا كنت أتوقع نفس الاستنكار بل ليت العكس هو الصحيح وأن تختار محافظينا من كبار رجال العلم والثقافة القادرين على الادارة الواعية والادراك السياسى المستنير لقد فشلت تجربة تعيين ضباط البوليس الذين أحيلوا للاستيداع محافظين وها هو الدكتور محمـود الشريف يحـاول بكل ما يملك من جهد أن يعالج أخطاء سلفه الذى ويا للغرابة عين تأتى يوم الاستغناء عنه رئيس مجلس ادارة شركة الريان

لتوظيف الأموال وعندى صورتان له واحدة له وهو يوقع العقد كمحافظ مع شركة الريان على صفقة بصحراء بلبيس والثانية بعدها بيوم أو بيومين وهو يمثل شركة الريان ان هذا يجرنا الى حديث لابد من البدء فيه الريان ، ان هـذا يجرنا الى حديث لابد معها من محاسبة المسئولين المحافظين أو الوزراء أو رؤساء البنوك بعد اقالتهم او استقالتهم اذ أن أحدا لم يحاسب ذلك المحافظ أبدا او حتى يسأله ولا أحد سأل الوزير الذى لا يزال وزيرا وكان يعمـل أو بالأصـح يعمل مستشارا لشركات المرأة الحديدية ٠

ولكن هذا موضوع آخر آمـل أن أتنـاوله قريبـا ان شاء الله ٠

فى تلك الليلة أحسست بمزيج غريب من العـواطف وأنا ألتقى مع الوجوه الشرقاوية الحلوة أحسست انى لأول مرة أتحدث من القلب الى القلب حـديث الانسـان الى أهله وعشيرته ان الشرقاوى نموذج للمصرى المنتمى الى محافظته دون تعصب انسـان سـمح طيب شهم يحسن الظن تمـاما بالآخرين ولهذا يطلقون عليه التشنيعات والنكات فهو انسان فيه براءة الصحراء التى تحـد جانبه الشرقى وطيبة قلب الفلاح المصرى ، والشرقية هى الرحم الذى أنتج لمصر كثيرا من فنانيها وثوارها حيث تتفاعل المصرية فيه مع الشـامية والسعودية وحيث يتعايش الاقباط والمسلمون فى سلام منذ مئات السنين وحيث تمتزج حضارة البحر الأبيض بحضارة الدلتـا ، الفرعونى بالقبطى بالفن الاسـلامى مما يجعلنى أستعمل تعبير عبقرية المكان على الشرقية باعتبارها لابد أن تنسحب على عبقرية الانسان وتفانينه الموغلة فى الابداع ٠

كانت زيارة أرجعتنى لشبابى فى الزقازيق الثـانوية لأول حب سحب فيه والد الفتاة وكان صعيديا حمشا البندقية

فانسحبت فى سلام الى ناظر الثانوية المرعب الى ليلة جاء فيها يوسف بك وهبى ليمثل رواية ووقفت ساعات على باب الممثلين لأراه وأرى المرحوم محمود المليجى الى آلاف الذكريات كنت أتحدث أو كنت أعـود آعيش أو كنت آتكلـم حديث المرتاح الى أهل ينصتون ٠

ليس مهما ما كنت أحسه ولكن المهم اننى مع الدكتور محمود الشريف آتعنى أن تصبح الزقازيق واحـدة من أهم العواصم الثقافية المصرية وشهادة لله لولا صلاح مرعى مدير الثقافة الجماهيرية فى الشرقية ذلك الذى بالكاد استطاع ان يحافظ على فرقة الشرقية للفنون الشـعبية حتى لتطلبهـا البلاد الأوروبية بالاسم آتمنى آن يتحول قصر الثقافة فى عهده الجديد وبزعامة المحافظ الى معمل تخريج فنانين وفنانات لطرحهم على المستوى القومى والمحلى أيضا ٠

على بركة الله وبالتوفيق التام يا دكتور محمود الشريف٠



لم يكن تجوالى طويلا ولا متعبا ، ولكننى كنت ألهث وقلبى يخفق بفرحة ، نادرا ، نادرا ، ما تنتابنى ، شباب شباب ، أولاد وبنات ، محجبات وسافرات ومنقبات ، أطفال ، بالآلاف ، شيوخ ، أساتذة جامعة وأشباه حفاه ، عرب بمقالات وخواجات ، ألوف البشر تموج ، تتوه تلتقى وتفترق وتعود الى اللقاء ، الجو رغم الشتاء دافىء ، والعاصفة الرملية الترابية أخفاها جمال الازدحام ، أجمل ازدحام فلا تدافع فيه ولا حدة ولا خناقة ولا كلمة غضب ، العالم فقط هو صوت الضحكات ، والمجاميع من الطلاب ، والعائلات .. كل هذا فى معرض ، يا الله ، للكتاب للثقافة ، لعيد الكلمة ، قاهرتى العزيزة ، الآن أحبك كما لا يمكن أن يكون قد أحبك قيس لك ، ياحبيبتى العزيزة ، ياقاهرتى وعاصمتى وملجئى وانتمائى ومثواى ، تعودين الى نفسك فتعودين أيضا ، تعودين الى أنا كفرد حتى ..

هذا هو المعرض العشرون للكتاب ، فى لمحة خاطفة لمعت فى ذاكرتى صورة أول معرض كما أقيم لأول مرة فى أرض المعارض القديمة بالجزيرة فى يناير عام ٦٨ وافتتحه رئيس الوزراء حينذاك ، أو افتتحه وزير لست أذكره ،

وكما رأيته ، فى اليوم التالى ، الناس مجموعات قليلة متناثرة فى أرض المعرض الصغيرة تماما بالقياس تماما بالقياس الى أرض المعرض الحالى ، مجموعات قليلة تبدو وكأنها تتجمع لتحتمى من برد خفى وقشعريرة الغربة ، اذ كانوا فعلا قد تجمعوا على غربة بعد هزيمة ٦٧، فى العالم التالى لها مباشرة ، ومظاهرات الطلبة ، وتمزق الصدر المصرى بآلام الذبحة العسكرية التى أخذته على خوانه ، بمجموعات المثقفين والمتعلمين القليلة ، التى قدمت وكأنما لتحيى الذكرى السنوية لعاصمة الفكر والابداع التى كانت ، مذهولين لا يعرفون العدو من الصديق ، مهزومين لا يعرفون من هزمهم أهى اسرائيل أم المناط بهم هزيمة اسرائيل ، جو كئيب كأيام أمشير ومحاولة للتشبث بالثقافة والكتاب بعدما ، تقريبا ، ضاع كل شىء ومعه أيضا الثقافة والكتاب .

ولكن ما أمامى الآن هو القاهرة القاهرة ، القاهرة التى رفعت الرأس المنكس ووقفت وانضبطت وحاربت وانتصرت وقاومت سرقة الانتصار القاهرة ٨٨ ، القاهرة فى معرض للقاهريين ، والقاهريون فى معرض لقاهرتهم الجديدة ، أخذوا عشرين عاما ليعيدوها ويصنعوها ولكنهم صنعوها ، وكأنما من جديد أنشأوها وكأنما بسواعدهم واقتصادهم المحدود والمقاطعة ، الاتهامات وسيول النسل المتزايد والازدحامات واختناقات وقفزات الاسعار المريبة ، أوقفوها ومن مريلة روضة الأطفال الممزقة ، علموها ، وألبسوها ، وفى العشرين ها هى فى فستان الزفاف .

أبيض أبيض ذلك اليوم ، عبوس الناس فى الشوارع الذى كان يدعونى أنا الآخر للعبوس والاكتئاب انقشع ، الناس فرحانة وكأنهم أطفال ، والأطفال مجانين بالمسرح وأمهاتهم معتزات انهن بصحبتهم الى معرض الكتاب ، وأجنحة

كتب الأطفال ـ والكمبيوتر ، ويرفع أب ابنـه ذا السنوات الخمس ليصافحني ويقول لنا هذا فلان يا ولد وأفرح بالولد المعـرض وفى فرحة طفـولية أقبله وأعطيه كتابا وكأنما سيقرأه،فعملة الحب اليوم هى الكتاب،سقط الدولار،والدينار والجنيه وساد الكتاب وبجنون زاد سعره ولكنه لا يزال مطلوبا ومرغوبا وجميلا جدا والله ، هذه الصفوف والأجنحة ودور النشر المتنافسة ، عمك الحاج مدبولى بجلبابه واقف وسـط مملكته أو بالأصح حديقته الحافلة بالفكر والفن والأغلفـة من كل مكان فى العالم ، تحس ان اليوم يومه والعيد عيده ، وأتذكر قـولا قديمـا قاله مرة فى برنامج تليفـزيونى واستعجبت يومها للقول اذ قال وهو يفسر مهنة بيع الكتب ونشرها : الكتاب حب ، صـدقت يا حاج ، فها أنا ذا أرى بعينى أن الحب أيضا كتب ·

يا أستاذنا طه حسين الذى قلت فى أعوام عجاف ، أخشى أن تكون القاهرة قد فقدت دورها كعاصمة للثقافة ألا تحس فى مرقدك العظيم القريب بدبيب الآلاف والآلاف من القراء، والكتاب والمتعلمين والمثقفين وأبناء وبنات وأمهات الشعب الزاحفين الى معرض الكتاب من كل مكان من القاهرة وعمان والرياض وبغداد وجنيف وتونس والمغرب واليمن الامارات وعواصم أوروبا ، ألا تحس بجبال الكتب القـادمة من كل أنحاء الدنيا قد ثبتت أرض معرضنا وأصبحت رواسى وأثقالا تجعلنى أجرؤ وأقول لك لقـد عدنا يا طه حسين والعـود أحمد ، لقد عدنا الى طه حسين وعاد الينا طه حسين ومئات معه ، ألست فرحا بأحفادك الكتاب الشبان وكتبهم تعرض وتترجـم وتدرس وملامحهم ثابتـة الوثوق أمام الكاميرات والميكروفونات وجماهير النـدوات الحاشـدة عدنا وعادت

القاهرة ليست عاصمة فقط ، ولكن عادت عيــدا للثقــافة والشعراء وللكلمة والرمز الذى يجمع آمة العرب ويستأمنونه على كل أمجادهم ، عــلى كل أبى علائهم كل متنبيهم ، عــلى قرطبيهم وبخاريهم وحتى على المقدس مصحفهم وآنا جيلهم، عــلى كل ألــوان فنونهم وكمبيوتراتهم وأدب أطفــالهم ، موسيقاهم ورقصهم ، مسرحهم وربا باتهم ، سبحان الله العلى العظيم ، الازدحام الذى لا أطيقه فى شوارعنا آكاد أضمه الى صدرى هنا ، أحس احساسا جسديا ان الكتابة مهمة جدا وانها فى خير وان القراءة فى خير آكثر آحس بشباب وطالما ظلمناهم واتهمناهم بقلة الاطلاع عارفين ومطلعين ومنتجين حتى المذيعة الشابة التى نقلت الى الملايين وقارىء المعرض أحس فيها بتليفزيوننا جــديدا يتحدث لغة جــديدة ليست بباروكة ولا فستان سهرة وانما هى جيل جديد فصيح كنت شغوفا أن أعرف اسمها وعرفته : راوية راشد زوجة كاتب شاب موهوب اسمه ـ وتذكر يا آستاذنا اسمه محمد المنسى قنديل كتب قصة عظيمة اسمها « بيع نفس بشرية » أحفادك أحفادك يا طه ، مئات آحفادك ، امتداداتك عبد الحكيم قاسم وجمال الغيطانى ومجيد طوبيا وابراهيم اصلان وصنع الله ابراهيم ويوسف القعيد وعبد الفتاح رزق وصالح مرسى وفريدة النقاش وصلاح عيسى ومحمد روميش وبهاء طاهر وسعيد الكفراوى ويوسف أبو رية واعتدال عثمان وعبدالله الطوخى وابراهيم آبو سنة ومحمد عفيفى مطر وسناء البيسى وسناء فتح الله وشمس الدين والمخزنجى ومحمود الوردانى ومحمد الجمل وسعيد سالم وابراهيم عبد المجيد ومحمدالسيد محمد وسيد حجاب ويسرى الجندى وآحمــد هاشم الشريف ونادية عابد ومفيد فوزى وماجدة الجندى وزينب صــادق ونوال السعداوى ومحمود عبد الوهاب وسحر خليفة وأليفة

رفعت و مني حلمي وأحمد الشيخ وفهمي حسين آبو عوف وقنديل ونهاد صليحة ووجدى حافظ وصالح ابراهيم ومأمون غريب ومحمد سلماوى ومحمد عبد القدوس وعبد العزيز حمودة ومحمد عناني وسيزا قاسم ولطيفة الزيات وجلال السيد وبهجت عثمان وخيرى شلبي وجلال العشرى ومحمد جلال وفتحية العسال واقبال بركة ورؤوف توفيق ·

وكلمتي القصيرة تلك لو استطردت لما وسعت ربع الكائن في الحديقة الزاهرة كبرت الحديقة يا أستاذنا جدا أشجار كافورها استطالت ووصلت عنان السماء ويسمينها لا نظير له فرائحته مصرية عربية أصيلة وكانما بذوره قد اشتقت من عطور جدتي القديمة الزاعقة لقد زرت قبل أسبوعين مصانع سلاحنا وخرجت وكتبت مبهورا واليوم وأنا أرى ابداع قواتنا الكتابية يدق قلبي دقة عنيفة فرحة ليتوقف بعدها ويقول فجأة ، والله والله لن نهزم آبدا والله والله لن نموت آبدا ولن ندع الفساد والنصب الثقافي والعلمي أبدا حتما سيتوقف وسيتوقف كل الهاربين والمتهربين والمهربين الكذابين والأفاقين والعابثين الذين يعبثون في الأرض فسادا فاذا كنا نصنع السلام ونبدع مثل هذه الكلمة وغدا باذن لا يدخل فمنا سوى خبزنا من أرضنا خبزنا الحلال من أرضنا الحلال فسنسحق ولو كاطفال الضفة وغزة ، بالحجارة وبالكلمة وبطيبتنا وبصدقنا ، اعداءنا وكل قنابلهم الذرية والهيدروجينية وآكاذيبهم وادعاءاتهم وبطشهم الجبان ووجودهم الرعديد ·

نم مستريحا يا طه حسين فلقد ساهمت في صنع كل هذا حين أطلقتها وقلتها التعليم كالماء والهواء ، كان لابد أن يأتي ذلك اليوم الذى يصيح فيه آحد تلاميذك قائلا ، أهمية

أن نتثقف ياناس ، وكان لابد أن يأتي اليـوم العيد الذى يمضى صائحا قائلا : والثقافة أيضا لابد أن تكون كالتعليم كالماء كالهواء كالخبز ، حتى كالخبز المدعوم والخبز الآلى لابد أن يدعم فخبزنا الثقـافى عيبـه انه أصبح غاليـا تماما يا أستاذنا ، والله يرحم أيامكم الحلوة حين كان الكتاب ككيلو اللحم بخمسة قروش ..

هؤلاء الشبان ولحاهم السمحة

قال لى صديق : أتحب أن أترى شيئا جديدا في مصر ، قلت : ياريت قال : تعال معى ، وذهبت معه الى المعادى ، ولم أسأله عما سيرينى فقد أحببت له أن يفاجئنى كما أحسست من ابتسامته الغامضة ، ذهبنا الى المعادى ولففنا قليـلا فى شوارعها الجميلة وانتهينا الى محل يشبه المصـنع أو مصنع يشبه المحل ، وهبطنا من سيارة صديقى الفاخرة فهو رجل من أصحاب الثروات الحلال ، ودخلنا المكان نظيفا وأنيقا بطريقة غير عادية وكأنه حجرة عمليـات معقمة ، وتطلعت فوجدت وكأن محتوياته معرضا للموبليات أو للتجـارة الأجنبيـة والبائعون لايقفون عند المعروضات ولكن كل منهم أمـامه كمبيوتر ومقعد يجلس عليه الزبون ، ونحن لانزال واقفين سألته ، ما هى الحكاية قال : عنـدى بنت ستتزوج عقبـال عندك وأحسست بخيبة الأمل قليلا فما الجديد فى بنت تتزوج ويأتى أبوها الثرى لينتقى لها مطبخا أنيقا أو موبيليا فاخرة ، حيا صديقى أحد الموظفين وكانت له لحيـة شـابة سـوداء مهذبة تمـاما وعلى وجهه سـيماء الأدب الجم والانضباط والجدية فلم يسرف فى تحيتنا سلمنا عليه وجلسنا ثم تركنا قليلا فانتهزت الفرصة وسألت صديقى ماهى الحكاية ، قال

هذا مصنع للموبيليات أقامه هؤلاء الشبان بأحدث الطرق العلمية وأنا قادم الآن لاختيار نوع المطبخ ، قلت له : اذن قم بنا نتفرج قال : سنتفرج دون ان نقوم ، وكان الموظف قد عاد بورقة فيها ارقام ضربها على حروف الكمبيوتر ، وانتظر قليلا وضرب حروفا آخرى ثم ادار الكمبيوتر ناحيتنا وبعد ثوان قليلة ظهر لنا مسقط رأسى وأفقى لمطبخ كامل على شاشة الكومبيوتر ، مطبخ كان له نظير خشبى حقيقى معروض أمامنا فقلت لصديقى : وما الداعى للكمبيوتر اذن : قال : لان المقاسات مختلفة والفتحات فى شقة ابنتى والاجهزة مختلفة وبدأت أهتم أكثر ، تأمل صديقى الرسم الالكترونى ثم قال : ان ابنتى تفضل وضع الثلاجة هنا وماكينة غسيل الأطباق تحت الحوض ، أومأ الموظف الذى بدأت أدرك انه مهندس شاب برأسه ، ونقر على الكمبيوتر بضع مرات وانتظر وانتظرنا بعد ثوان كان الرسم الجديد قد هبط على الشاشة من أعلى الى أسفل ورأينا أمامنا المطبخ محورا كما طلب الصديق الذى ظل يتأمله طويلا ثم اكتشف شيئا قد نسيه فذكره للمهندس الشاب ، فأعاد المهندس العملية وببضع نقرات وانتظار أقل ظهرت صورة المطبخ كما يريدها الصديق تماما ، قال : هذا هو بالضبط ما نريده كم سيتكلف ، وبكلتا يديه راح المهندس يدق على زراير الكومبيوتر واذا بقائمة تظهر على الشاشة موضحا بها تفاصيل أسعار كل مكون من المكونات وفى النهاية مجموع التكاليف ، كان الرقم عاليا هذا صحيح ولكن المهندس شرح الموقف قائلا ان مصنعنا يعمل للتصدير الى سويسرا وغيرها من بلدان أوروبا فوقتنا كامل تماما وتلك هى تكاليفنا بالضبط وحاول صديقى كعادتنا أن يخفض فى الثمن أو يجعله كما يقولون بالانجليزية رقما دائريا أى يرفع كسور

الآلاف ولكن المهندس الشاب هز رأسه بكل أدب ورقة وجدية قائلا : هذه هى أسعارنا لا نستطيع تخفيضها قرشا واحدا ، وكان واضـحا لا فائدة فاسـتسلم صـديقى وقال : ومتى التسليم ضرب المهندس الزراير وقال يوم كذا شهر كذا من الساعة الثانية الى الرابعة بعد الظهر ٠

ودعونا من القصة فما أكتبها فالمصنع فى الحقيقة يملكه مهندس شاب من المؤمنين بالتيار الاسلامى الجديد ، وكذلك كل العاملين لديه ، لهم ذقون وساعة صلاة العصر كان كل منهم يذهب ليصلى ليذهب بعده زميله وهكذا والمصنع مزود بأحدث التكنولوجيا فى صناعة الأثاث وكل حساباته الهندسية والمالية والزمنية يقوم بها الكومبيوتر وكما علمت فان آلات النجارة نفسها فيها كمبيوتر يقوم بكل العمل والشبان الذين يعملون فيه نشيطين مؤدبين صامتين أغلب الوقت وكأنك فى مسجد وكان العمل عبادة وأدبهم وطريقتهم فى المعاملة تفوق الوصف وانضباطهم يفوق الحد وثقـافتهم ودرايتهم واسعة ودقيقة تماما ٠

وأحسست بفخر شديد ٠

أدركت لمـاذا كنت أغضب حين أقرأ وأرى وأسـمع الجعجعة الميكروفونية باسم الدين الحنيف ٠٠ أدركت لمـاذا كنت أعترض على أصحاب الآراء القائلة بضرورة العودة الى حياة البادية ونبذ العلم والتكنولوجيا وربما اعتلاء الجمال وسيلة للمواصلات ، كنت أغضب لأنى أعرف ومتأكد ودارس ان الاسلام ليس هـكذا أبدا ، وان ذلك الدين الذى دفـع العلوم والكشوف مئات السنين الى الأمام لا يمكن أن يعطى ظهره للعلم وللتحضر وللتطور ، كنت أغضب لأنى أعلم ان

الاسلام ليس دين التعصب الاعمى المدجج بالسلاح والرصاص القاتل لمن يتوهم انهم معرضوه أو مخالفوه وانما هو دين الحجة والمنطق والعلم والموعظة الحسنة ·

أحسست بفخر شديد ·

هؤلاء الشبان مؤمنون مسلمون ذلك الاسلام المفرح الهادف الى اتقان كل شيء من أول التصرف فى الطريق الى العمل الى العبادة ، الاسلام القائل : (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) بتفانيه يتقنه بالكمبيوتر يتقنه ، باستيراد التكنولوجيا والعلوم تمهيدا لاتقانها وتأصيلها حتى نستطيع بهذا أن نصدرها هذا هو الاسلام فى أعظم صوره ، الاسلام فى الكلمة العظيمة التي يتجاهلونها دائما الدين المعاملة العمل عبادة : لا غلظة فى القول ولا شدة فى المعاملة ولا استغناء عن رضاء الناس بارضاء المولى سبحانه وتعالى فارضاء الناس فيه ارضاء للمولى ، هذا هو الاسلام ، لا خزعبلات فيه ، اسلام العلم والعمل والتقوى اسلام الرجل والمرأة ، الجاد السمع المؤدب المهذب المنضبط، هذا هو الاسلام الذى يدفع المسلمين الى آمام والى تقدم يجعلنا نتلفت ذات يوم لنطبق الحد فنجد كل الناس قد صلحوا ولم يعد هناك آثم ينبغى أن يطبق عليه الحد أو العقاب ، الاسلام الذى يرقى بالنفوس ويسمو بالروح ويؤمن ايمانا قاطعا ان سلوك المسلم هو الذى يحاسب عليه وهو الذى نراه منه وهو الذى يعاملنا به وليس هو ما يقوله أو يجهر به أو يعذب به الناس فى ميكرفونه وقد أمرهم الله فى كتابه أن يجعلوا الليل لباسا وراحة للعقل والبدن ·

لم أكن أريد أن أغادر هذا المكان الجميل الذى لم أعرف صاحبه ومديره من العامل فيه ولا الرئيس من المرؤوس

فكل منصرف الى عمله يجد فيه ويتقنه بوازع من ضــمير حى وليس عن خوف من عقاب ·

اللهم اذا كان التيار الاسلامى هكذا فأنا أول المنضمين

فاذا شئتم حزبا يبشر بهذا ويعمل به يخاطب العقــل فينا وينهرما عن الغوغائية فخذونى معكم ·

وودعت الناس والمكان وآنا آقول لنفسى سبحان الله ، ما لهذا الدين العظيم يستحيل عند بعض الناس الى وسيلة قهر وتعذيب واستعباد فى حين انه فى حقيقته وعند المسلمين حقا وهو هكذا كما رأيت عنوانا للتحضر والرقى الأخلاقى والعلمى والمهنى والايمان العميق الذى لا يتباهى به أحد على أحد ولا يكفر به أحد ·

رب ارزقنا بكثير من آمثال هــؤلاء الشبان الملتحين فى وقار العاملين فى جدية العارفين ربهم عن ذكاء ووعى وحب وايمان عميق ·



أجادير فى عينيك

أحب الطيران ، وأكرهه . فالطيران سفر ، وللسـفر خمسـون فائدة ، ولـكن السفر بالطائرات بالذات يعطينى متسعا كبيرا من الوقت أستطيع أن أتأمل فيه أحوالنا وأحوال نفسى ، فاذا زاد هذا المتسع كثيرا وطويلا وبدا الملل من قلة الحركة وطول الزمن فانه يصبح عبئا كبيرا على النفس ، وما أكاد أسمع ذلك الجرس المخصوص الموجه لطاقم الطـائرة والذى يعنى الاستعداد للهبوط ، حتى أتنفس الصعداء .

والرحلة هذه المرة كانت طويلة جدا ، من الرياض فى المملكة العربية السعودية الى المغرب مع توقف ست ساعات فى القاهرة ، رحلة طويلة جدا رحت أستعيد فيها ما شاهدته فى الجنادرية من طقوس للحياة القبلية القديمة الجميلة ، ثم مناقشات الكتاب والمثقفين حول التراث . وها أنا على الغداء أو العشاء أو فى الندوات كنت ألمح رجـلا وسيما طـويلا له مهابة خاصـة ، وكنت أسأل عمن يكـون ، فقد كان لايبدو أنه واحد من كتاب العالم العربى ، فجميعهم ، المعروفون ، اعرفهم وكذلك لايبدو أستاذا جـامعيا وفى جلسة ما سألت جارى فى الجلوس الصديق والشاعر عبد الله

الشيتى أحد قلائل الظرفاء الموجودين فى العالم العربى ..
وما أمتع آن يجلس الانسان معه ويكون ثالثنا محمود
السعدنى ، تصبح الجلسة تفجرات من الضحكات ، ولأننا قليلا
ما نضحك هذه الأيام ، لست آدرى لم ، فساعة مع محمود
السعدنى وعبد الله الشيتى نعمة من نعم الله فى هذا الطقس
العربى المتزمت .

سألت الشيتى عن ذلك الرجل فقال لى : الا تعرفه ؟
أنه وزير الثقافة المغربى .. وقدمنا لبعضنا البعض بعد
الندوة وكانت لى مع هذا الرجل قصة غريبة ، ولكن قبل ان
ننتهى من الجنادرية أحب أن أوضح للقراء لماذا أقطع أعمالى
وأصر على الذهاب الى مهرجان وندوة ثقافية ، تعقد فى
الجنادرية (هذه هى السنة الرابعة) ويكون موضوعها
الموروث الشعبى والابداع الفكرى والفنى ، ذلك أننى
أعتبر ان مناقشة هذه الموضوعات فى المملكة السعودية
مسألة خطيرة جدا ، فالمملكة فى الآونة الأخيرة ـ خاصة بعد
أحداث الحرم ـ بدأت تدرك آن الجمود الفكرى هو الأرض
الخصبة لنمو التعصب والتعنت وضيق الأفق ولهذا بدأت
الدولة (تتقدم) المراكز الفكرية والأدبية السائدة فى
المملكة ، وبدأت تدعو مثقفين من اتجاهات كثيرة وتضعهم
وجها لوجه أمام الثقافة التراثية السائدة ، وهذه خطوة
عظيمة لا شك ، لأن زحزحة الجسد الرجعى الجاثم على قلب
الثقافة السعودية هى زحزحة آيضا لنفس هذه الاتجاهات
السائدة فى مصر وفى كل آنحاء الوطن العربى ، ذلك أن
السعودية لها وضع دينى وروحى خاص بالأمة العربية ،
ويصر الكثيرون على خلط المفهومات الاسلامية بالمفهومات
الثقافية والفكرية ، فتكون النتيجة الجمود التام ـ بمعنى

توقف أو توقيف عقل المجتمع عن أن يعمل ويفكر ويتقدم ، وزمان قال العقاد : أنا أفكر فأنا مسلم، وللأسف انتهينا هذه الأيام الى من يقولون أنا لا أفكر ، اذن فأنا مسلم حقيقى، ولقد سألنى كاتب سعودى ذو لحية بيضاء جليلة : لماذا تنفقون الوقت والجهد فى مناقشة هذه الخيالات (يقصد السير الشعبية من سيف بن ذى يزن الى عنترة وألف ليلة والزير سالم) انها خيالات ، مجرد خيالات ، لماذا تضيعون وقتكم فى مناقشتها ؟ قلت له : اذن ماذا تريد منا أن نناقش؟ قال : الحقائق التى حدثت فى التاريخ مثل الخلفاء الراشدين ومعاوية وغيرهم من أبطال الاسلام • قلت له : أتعنى أن الاسلام الحقيقى ضد الخيال ؟ انك بهذا يا رجل تسلب الانسان ـ سواء كان مسلما أو غير مسلم ـ أعظم موهبة منحها الله له ، وهى القدرة على التخيل وتجسيد هذا الخيال فى أعمال فنية ، ان الحيوان لا خيال له ، انه لا يرى الا ما أمامه فقط وهو لا يستطيع أن يتخيل أبدا شيئا غير ما يراه رأى العين • أما المخ البشرى ففيه مراكز هائلة للتخيل، نعمة من الله ، لولاها لأصبحنا سائمة أو كالسائمة •

وسؤال ذلك الكاتب السعودى لم يأت من فراغ ، فهناك مدرسة بأكملها فى العالم العربى وفى السعودية على رأسها الأستاذ عبد الله بن ادريس رهيبة السطوة على النفوس واشتراكها فى تلك الندوات انما يهدف الى تغليب الجانب القائل بالتمسك التام بالموروث وبكل ما صنعه الآباء والأجداد ، وعدم التحرر منه لشعرة ، والا فقدنا لغتنا العربية وفقدنا بالتالى اسلامنا وكأننا اذا أعطينا انساننا الحديث أو مثقفنا حرية الحركة ، وأبحنا له أن يخرج على تعاليم الآباء والأجداد والموروث فانه حتما سيضل وسيضيع ، معاذ الله •

الى هذا الحد يبلغ عدم ثقتنا بأنفسنا فنحن مثل الأجداد بشر ، وقد كانوا بشرا ، وعاشوا حياتهم وتصرفوا فيهـا (وكانوا أعلم بشئون دنياهم)، وأصبحت حياتهم وتصرفاتهم (تراثا) ، هذا صحيح ، ولكننا أيضـا لنا حقنـا فى أن نعيش مثلهم ونتصرف حسبما تمليه علينا ظروف حياتنـا الراهنة (ونحن أعلم بشئون دنيانا) بحيث تصبح حياتنا وتصرفاتنا تراثا أيضا للأجيال القادمة التى لابد لهـا هى الأخرى أن تحيا حياتها وتتصرف تصرفاتها ٠

ولـكنهم يردون عليك ويقولون هـذا خروج ومروق سينتهى بك الى أن تترك الدين هذه قضية لم أفهمها أبدا ، أعتقد اننى لن أفهمها ، هل التمسك بالدين يعنى أن تحيـا مثلما كان يحيا الناس أيام معاوية وأيام العباس مثـلا ، والا خرجنا على الدين ما علاقة الدين وهـو ايمان كامن فى النفس وفى القلب لا يتزحزح ٠٠ ما علاقة هذا بأن أركب سيارة بدلا من الجمل ، أو أن آكل هامبرجر من لحم البقر بدلا من الخروف (والفتة) ٠

٠٠ المهم لى عامان وأنا أحضر ذلك المهرجان والمعركة لا تزال محتدمة بين أنصار الجمود وأنصار التقدم ، يا الهى ٠٠ ان المشوار أمامنا طويل !

★★★

كان ذلك الرجل الذى لفت انتباهى هو وزير الثقافة المغربى ، وهو مثل زميلى فاروق حسنى عنـدنا ، نموذج فاخر للمثقف المتعدد الاهتمامات والقدرات ٠٠ هذا الرجل كان هو وصديق عمره (الذى أصبح وكيلا لوزارة الثقافة المغربية) يعملان فى الأمم المتحدة فى نيويورك لمدة عشرين عاما متوالية ، وفجـأة قررا أن يتركا العمـل فى أمريكا

ويعودا معا الى بلدهما المغرب ، بل ليس حتى الى المغرب ، وانما الى مسقط رأسيهما فى قرية (اسيلة) وهى قرية صغيرة على المحيط الأطلنطى ، قرية فقيرة يعمل معظم سكانها بالصيد ، وكأى قرية صغيرة فى العالم الثالث لم يكن بها ماء نقى أو كهرباء أو تليفونات أو أى شىء .. هذا الرجل « محمد بن عيسى » قرر أن يحيل القرية الى جنة من جنات الله بعد عودته من أمريكا قرار رجل واحد أو رجلين لو أن كل مثقف فى العالم العربى قرر أن يفعل مثلهما لأصبح العالم العربى جنة ، وبدأ بالاستعانة بنفر من زملائهما من الفنانين ، بجمع نقود قليلة تمكنا بها من طلاء القرية باللون الأبيض الجميل ، وبهذا الطلاء فقط تحول موقف أهل القرية من هؤلاء المثقفين الافندية الغرباء .. وبدأوا يسمحون لأولادهم سواء أكانوا تلامذة أم غير تلامذة أن يعملوا معهم بالاستعانة بهؤلاء الأولاد بدأ الأفندية ينظفون شوارع القرية ثم بواسطة بعض التبرعات يحفرون بئرا للماء ، ويدخلون « موتور » كهرباء ، فيضيئون القرية ثم بدأ الفن استقدموا أصدقاءهم الفنانين من الدار البيضاء مراكش وعهدوا الى كل منهم برسم حوائط القرية بل حتى برسم شوارعها بعد سفلتتها ، ولكى يتموا هذا العمل الكبير كان عليهم أن يرشحوا أنفسهم للمجلس البلدى للقرية (تعداد القرية اثنان وعشرون ألفا) ونجحنا فى الانتخابات بعد كفاح رهيب طبعا ، فتراث القرية المعتادون على تولى مناصب المجلس البلدى بحكم النفوذ أبوا أن يفسحوا المجال لهؤلاء الغزاة الجدد المسلحين بالفن والفكر والرغبة الشديدة فى التغيير ، وحين تمت لهما السيطرة على المجلس البلدى ، استعانا بقوة المجلس وأمواله فى أحداث هذا

التغيير ، وفعلا ، وبعد أقل من عامين كانت (اسـيلة) قد أصبحت جنة ، أو متحفا حيا للجمال يضـم الزرع الأخضر واللوحات على الجدران وعلى الأرض ، وهنا بدأت الحكومة المركزية تفطن الى هـذا الحدث وتحـاول الاسـتيلاء عليـه وتحويل (أصيلة) الى قرية سياحية ، وهنا وقف محمد بن عيسى وصديقه ، أو بالأصح ناما بالطول عند مدخل القرية وأبيا أن يدخلها سائح واحد ـ قال لى محمد بن عيسى : كنا لا نريد أن نحول أنفسنا وأهل القرية الى قرود فى حديقـة حيوان يتفرج عليها السياحكنا نريد أصيلة لنفسهاولأنفسنا، وقلنا على جثتنا اذا مر سائح واحد .

وفعـلا لم يمر سائح واحد ووصلت المعـركة الى الملك الحسن الثانيفاستقدم هؤلاء الفتية وكان ان عهد الى محمد ابن عيسى بوزارة الثقافة .

والذى حدث ان محمد بن عيسى طور الفكر وتفتح ذهنه عن اقامة مهرجان أصيلة للفنـون والآداب كل عام ،وأقيم المهرجان وأصبحت حديث أوروبا وأمريكا انتقلت من قرية صيادين فى العالم الثالث الى لوحة عالمية يرنو اليهـا أى أوروبى أو غير أوروبى ، يرغب أن يراها رأى العين .

أرأيتم ما أقصده .. ان مجهود فرد واحـد أو فردين مخلصين ممكن أن يحولا قرانا الموحشة الى جنـات .. فقط أين الارادة .

***

أكتب هذا وأنا فى طريقى الى أجادير أو أغادير ، تلك المدينةالبطلة التى وقفت فى وجه الاستعمار، مثل بورسعيد، موقفا بطوليا عظيمـا ، ثم بعد زوال الاستعمار الأسـبانى

والفرنسي ، أصبحت مدينة سياحية عالمية ، وحيث آنهيت أعمال مشاركتي مع المجلس القومي للثقافة في المغرب في اللجنة التحضيرية للمهرجان القومي الثقافي العربي الذى سيعقد في أغادير في آكتوبر القادم باذن الله هاننذا في طريقي لمشاهدة معالم المدينة وقضاء آجازة يومين قبل العودة للقاهرة لكي أشهد أعظم حدث روحي ، حلول رمضان المعظم في قاهرة المعز ٠



رسالة من الجنادرية

لا أعتقد ان الانسان منا يتحكم فى حياته تماما ..
وفى الاسبوع الماضى فتحت موضوعا مهما ـ كان له صداه الغريب لدى القراء ـ وكان مفروضا فى مفكرتى لهذا الاسبوع ان أتابع الموضوع وأخبر القارىء بآخر ما توصلت اليه حياله ، ولكن الأقدار كانت تخبىء لى شيئا آخر ، اذ كان الميعادان قد حلا معا فى وقت متقارب جدا وكنت قد كتبت ووافقت منذ بضعة أشهر على حضور مهرجان الجنادرية الذى يعقد فى الرياض وعلى الاشتراك فى التحضير للمؤتمر الثقافى القومى الذى يعقد فى المغرب فى أكتوبر القادم ان شاء الله ، وبدأت التليفونات والاتصالات والتذاكرالمعدة سلفا وكان لابد أن أسافر وفعلا قررت حضور الجنادرية أولا ثم الطيران رأسا الى المغرب لحضور الاجتماع ولكن طول الوقت كنت مشغولا بقضية الطالب محمد حامد الحمامى ومشكلة فصله من معهد الفنادق فى بور سعيد اثر محاولته تعليق صور للانتفاضة الفلسطينية وها أنذا من الرياض أتابع الاتصال بمكتبى فى الاهرام وعلمت ان الدكتور فتحى سرور قد اتصل بى ووعد بالتحقيق السريع فى القضية ، ثم جاءتنى مكالمة من اللواء زكى بدر وزير الداخلية ولأن

الاتصال لم يحدث والمتصل كان مدير مكتبه فلم أعرف بالضبط ماهية الرسالة كل ما أعرفه ان لدى عودتى القريبة ان شاء الله سأتابع القضية معهما ، لا لكى اطمئن على مصير الطالب محمد حامد الحمامى فقط ولكن لكى نشترك جميعا فى وضع بروتوكول للنشاط السياسى المشروع الذى لابد أن يقوم به الطلبة والشباب ، فالعقل الحاكم الحديث يعتبر أن المظاهرات السياسية والمؤتمرات المنظمة وكافة الأنشطة النقابية والشعبية هى مصدر من مصادر القوة لديه وأمامنا المثل فى اسرائيل تلك التى تلعب هذا الدور بمهارة شديدة فهى تترك فيضان مظاهرات (السلام الآن) تهتف ضد الاحتلال الاسرائيلى للضفة ولغزة فى نفس الوقت الذى تفتح فيه القنابل والرشاشات على الشباب والفتيات العرب المتظاهرين وسماح الحكومة الاسرائيلية لمظاهرات ونشاطات جماعات (السلام الآن) هو خير دعاية – من ناحية أخرى – لديمقراطية الحكومة الاسرائيلية تجاه مواطنيها الاسرائيليين فقط لكى تخفى بهذه الديمقراطية الفاشية التى تعامل بها المواطنين الفلسطينيين العرب ٠

اذن الى الأسابيع القادمة ان شاء الله لكى نناقش هذا الموضوع بعمق أكثر وبفاعلية أرجو أن تكون أكثر بحيث تؤدى الى اتفاق على أسلوب لمعاملة النشاطات الشعبية التى قد يبدو بعضها مخالفا لما تقوله الحكومة ٠ ولكنه – وهذا هو الغريب – يتفق تماما مع التصريحات التى يدلى بها الرئيس حسنى مبارك ٠

★★★

والآن أنا أكتب لكم هذه الكلمة وأنا فى مهرجان الجنادرية وهى منطقة صحراوية تبعد عن الرياض بحوالى

خمسين كيلو مترا وهو مهرجان سـنوى يقيمه (الحـرس الوطنى السعودى) للثقافة والفنون الشعبية وقد يبدو الأمر محيرا قليلا اذ أن الحرس الوطنى نوع من الميليشيا العسكرية المكونة من أبناء جميع القبائل فى المملكة العربية السعودية وذلك حتى (يحرس) وحده شبه الجزيرة العربية • ان مسألة البترول والنقود السعودية الكثيرة والعلاقات المتحسنة قليلا السيئة فى معظم الأحيان قد منعتنـا عن دراسـة ما حـدث ويحدث فى الجزيرة العربية منذ الثـلاثينات والى الآن فى حين ان السعودية واحدة من أهم البلاد العربية بل أهم بلاد العالم كله وعلاقتها بمصر علاقة أزلية مصيرية ، كان الملك عبد العزيز ووالده الملك السابق منفيين فى الـكويت بعد صراع حول الحكم ثم قرر الملك عبد العزيز أن يعود ويفتح الرياض وفعل هذا بسبعة عشر مقاتلا لا غير ، ولأن الرجل كانت له رؤية تاريخية بعيدة فقد أخذ على عاتقـه مهمـة القضاء على الوضع القبلى فى الجزيرة العربية والذى كانت تتحكم فيه قبائل وسلاطين ومحل حروب مستمرة حول المراعى، أنشأ الملك عبد العزيز جيشا وحارب زعماء القبـائل بلا هوادة وبالقوة مرة والزواج مرة وبالسياسة مرة استطاع أن يوحد شبه الجزيرة العربية التى تصل مسـاحتها الى ثلاثة أضعاف مساحة فرنسا وأخيرا تم له فى النهـاية الانتصـار وأصبحت شبه الجزيرة العربية مملكة واحدة وأنجب الملك عبد العزيز أربعين ولدا كان أكبرهم الملك سعود الذى تولى الحكم من بعده ثم فيصل الذى استشهد فى حادث غامض ثم الملك خالد الذى توفى وتولى بعده الملك فهد •

ولابد أن بلاد نبينا العربى محظوظة حقا فمنها خرجت رسالة الاسلام تعيد الايمان الى قلوب كفرت وتمنح الحق

للمؤمنين أصحاب الديانات السماوية الأخرى آن يحيوا فى سلام تحت ظل الدولة الاسلامية الكبرى التى فتحها العرب وامتدت من الأندلس الى ازبكستان الى الهند والصين وأفريقيا ٠

أقول محظوظة لأن البترول بدأ يظهر فى السعودية فى أوائل الثلاثينيات ولو لم يكن الملك عبد العزيز قد (وحد) شبه الجزيرة كلها فى دولة واحدة لو لم يكن هذا قد حدث وظهر البترول فى عهد الانقسامات والقبائل لكانت المملكة العربية السعودية اليوم عشرات من الامارات الصغيرة المتنافرة المتنازعة فاكتشاف البترول اذن بعد قيام الدولة جعل العائد لا يضيع فى منازعات وحروب صغيرة انما تسلمته الدولة السعودية الجديدة وأصبح لها شأنها الكبير الآن ٠

بقيت مسألة الحرس الوطنى والثقافة فالحرس الوطنى أنشىء من كل أبناء القبائل ليحافظ على (الأمن) الداخلى وهو جهة مستقلة تماما لا علاقة لها بالجيش الذى يحافظ على الأمن الخارجي ولا بوزارة الداخلية التى تقوم بأعمال أى وزارة داخلية فى أى بلد آخر ٠

اما أن يتبنى الحرس الوطنى الثقافة ورعايتها فى المملكة ولأنها بدت لى غريبة أن يقوم تنظيم عسكرى بالاشراف على الثقافة فان الشيخ عبد العزيز التويجرى مساعد رئيس الحرس الوطنى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس الوزراء اذ الملك فهد هو رئيس الوزراء ذكر لى الشيخ عبد العزيز ان مهمة الحرس الوطنى أكبر من مجرد المحافظة على الأمن فهو المسئول عن المحافظة على التراث العربى فى شبه الجزيرة وعلى ربط الحاضر بالماضى باستمرار

بحيث لا ينشأ جيل مترف تماما من السعوديين لا يعرفون شيئا من واقعهم في الماضي القريب ولهذا جاءت فكرة اقامة مهرجان الجنادرية والمهرجان يرأسه الأمير عبدالله الذى يحب الموسيقى وله صلات كثيرة بمعظم الموسيقيين فى العالم العـربى فى الحقيقة أن يوم أمس يوم الافتتاح كان حدثا فعلا ، فان تتبنى المملكة العربية السعودية فكرة اقامة مهرجان عن العلاقة بين الموروث الشعبى والابداع الفنى والفكرى شيء يكاد يصل الى المعجزة فكلمة شعبى نفسها كانت لا تذكر قبلا فى المملكة وان تعترف المملكة (بالابداع) الفنى والفكرى شيء خطير يكاد يكون انقلابا فى التفكير ، وأن يدعى الى حضور هـذا المهرجان والاشتراك فى الندوات والمناقشـات كتـاب من أمثالنا وشـعراء ، كانوا موضوعين فى القـائمة السـوداء ومحظورا عليهم دخول المملكة فهو علامة أن المملكة تتطـور بخطوات واسعة الى الامام ليس فقط فى الانشاءات الخرافية والطرق ووسائل الاتصـالات والمواصـلات وانما أيضا فى (التفكير) مع الحفاظ على التقاليد العربية الراسخة وكنت جالسا لمشاهدة المهرجان قريبا من جلسة خادم الحرمين وولى العهد الأمير عبد الله وكان مذهلا تماما أن أرى الأمير بدر واقفا بغير عباءة رهن اشارة الملك وولى العهد مع انه أخوهما بل فى حفل العشاء الذى تلا هذا المهرجان الشعبى ظل الامير جالسا خلف أخيه الملك مباشرة دون أن يسـمح لنفسـه أن يشارك فى تناول العشاء ، الحقيقة أعجبتنى هـذه الطريقة العظيمة فى الولاء بين أطراف العائلة الواحدة بل حتى حين عزمنا الشيخ عبدالعزيز التويجرى وهو فوق انه نائب رئيس الحرس الـوطنى أرى انه من أنبغ المـواهب التى أنجبتهـا صحراء نجد على طول تاريخها فهو بدوى من قمة رأسه الى

أخمص قدمه وهو يكتب على السليقة ، يجلس هائما هكذا ثم يملي وقد قرأت كتاب (رسائل ولدى) وكذلك كتابه الآخر والمهم تماما (رسائل الى المتنبى) ولأول مرة كان كاتبا يأخذنى من يدى ليطلعنى على خفايا ودهاليز وعبقرية المتنبى وهى ليست فقط رسائل للمتنبى ولكنها عملية حوار عظيمة بين بدوى كاتب وبدوى شاعر تكاد تتلمس فيها كيف تنطق صحراء نجد حكمة وتفانين وصورا شعرية أخاذة وفلسفة كليهما الابى المتواضع آشد ما يكون تواضعا اعتزازا بالذات وبما تنطوى عليه من مزايا ومن خير ..

أما كتاب عبد العزيز التويجرى الأخير عن (حاطب ليل شجر) ذلك الذى كتب مقدمته الدكتور زكى نجيب محمود فهو فى رأيى تمثل قانتا آضجره العيش الرضى وبات يحن الى الحياة الصحراوية فى بدايتها الأولى والغريب ان هذا الحنين من القوة بحيث ان كل الصور الشعبية والفلسفية الواردة فيه مأخوذة عن حياة البادية وطقوسها وراعيها وحتى شياهها .

حين عزمنا الشيخ عبد العزيز على العشاء فوجئت ان الذى يخدم علينا هم آبناؤه ان الانسان منا فى مصر يكاد يقبل يد ابنه ليحضر مجرد حفل عشاء يقيمه لأصدقاء فما بالك وهؤلاء لا يحضرون فقط بل زيادة فى الاعزاز والتكريم يتولون هم وليس آحدا غيرهم ، مهمة القيام على راحة الضيوف مع أن آكبر أبناء الشيخ هو الشيخ عبد المحسن التويجرى رئيس ديوان ولى العهد بنفسه يحضر لك الماء ويعزم عليك ويعتنى بكل ضيف عناية خاصة .

★★★

فى المهرجان أخذنى الأمير بدر من يدى وتوجهنا معا الى حيث الملك فهد وولى العهد وباعزاز صافحنى خادم الحرمين وولى العهد وكنت أتصوره سلاما مجرد سلام لكن الملك قال لى : نحن معتزون وممتنون للـرئيس حسنى مبـارك عـلى تصريحاته بمناسبة تهديدات شامير ٠

تهديدات شامير بضرب قواعد الصواريخ فى المملكة ، ان هذا الموقف ليس جديدا على وعلى الرئيس حسنى مبارك فقد تعودنا منه الشهامة والرجولة حين يجد الجد ٠

قلت له : حبذا أن نسمع هذه الاشادة فى القاهرة ٠

قال : أنا قادم الى القاهرة ان شـاء الله بعـد العيـد مباشرة ٠

قلت : مرحبا بك فالشوق مزدوج وكبير أترككم الآن اذ أنا فى الطريق الى قاعة المناقشـات فى الجنادرية لمناقشـة موضوع هام تماما هـو التراث الشـعبى وعلاقته بالقضية العربية الحديثة ٠

أترككم ومعى وفد مصرى كبير يناهز الأربعين كاتبـا وشاعرا وناقدا ودارسا ، أكبر وفد اذ حجمه حجم كل الوفود العربية والأجنبية المجتمعين ٠

وكل الوفد محـل حفـاوة الداعين ورعايتهم وبالذات الدكتـور أحمد هيـكل وزير الثقـافة السابق والدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى والدكتور عبد القادر القط والشاعر فاروق شوشة والناقد رجاء النقاش والروائى

الشاب صنع الله ابراهيم ومعنا ايضا الشاعر محمد الفيتورى والقاص السورى زكريا تامر والروائى السودانى الـكبير الطيب صالح ووزير الثقافة المغربى والكاتب د. عبدالكريم غلاب عدد لا يحصى من المبدعين والنقاد العرب .



في المانيا

كنا ديكور عدالة وكان علينا أن نخاطب أدمغة محصنة ضد أى نفاذ

كانت الأقدار لى بالمرصـــاد ، فقبل زيارتى لليابان ، زرت ألمانيا الغربية ، بدعوة غريبة فى أسبابها وظروفها ، وجعلتنى ظروف زيارتى لهذين الشـــعبين الخطـــيرين أومن باعتقاد راسخ ، ان محور « ألمانيا ــ اليابان » الذى حدث فى الحرب العالمية الثانية لم يقم صدفة أبدا ٠

أبدا ليس صدفة ٠

ولم يتحالف الجرمان مع الأقزام ضد الانجلو ساكســـون والسلوفاك عبثا ٠

بل الحقيقة تكاد تتضح لعينى الآن ، انه تحالف المتطرفين ضد أوروبا السوية ، وكان طبيعيا جدا وقد قفزت الى قمة الوجود شخصية متطرفة أخرى ، أميركية هذه المرة، أن يحدث هذا التلاقى بين الثلاثة ويصبح محور « أميركا ــ ألمانيا ــ اليابان » أعتى معاقل الرأسمالية فى كل تاريخها ، عـــلى استعداد لمواجهة العالم كله ٠

ولقد استعملت التطرف هنا بهـــدف التخفيف ، فالواقع انه ليس تطرفا ، فلقـــد ذكرت ان هـــذه الأنـــواع البشرية

موجودة فى حالة كونهم أصحاء عقليا ، اذا تكاتفت الظروف واحتدت وبدأت الشخصية تمرض مرضها المقابل المحدد ، فالشـيزودية تصاب بالشيزوفرينيا أو مرض انفصام الشخصية ، والبارانودية تصاب بجنون الفكرة النابتة وهكذا .

وبكل المقاييس العلمية اذا طبقناها فلا يمكن اعتبار الشخصية الشيزودية اليابانية والقهرية الألمانية شخصيات عادية ، لقد تأمرت ظروف كل منهما الخاصة لتدفع بمؤشر التوازن كثيرا أو قليلا تجاه المرض ، هناك شعوب أخرى تنضوى تحت بند الشخصية القهرية ، وكذلك الشيزودية ، ولكنها أبدا لا يمكن أن يبلغ بها الأمر هذا الحد غير العادى الذى وصلت اليه اليابان .

ظروف العزلة فى اليابان ، والاحساس انهم الأقل قامة وشكلا وحضارة من آسيا والصين ، ظروف ألمانيا التى مكنتها شخصيتها من أن تتفوق دائما وتحاول التسيد على القارة أو العالم ، بحيث يتكتل الجميع ، أكثر من مرة ، ضدها .. بهذه الظروف كلها لم تعد الشخصية اليابانية مجرد شخصية شيزودية ، ولا الألمانية مجرد نمط قهرى، لقد نما الازدواج فى اليابانية حتى بلغ مرحلة الاحساس الخطير بمركب النقص الذى يكاد يدفعها الى الانتحار عملا وقوة طلبا للتفوق ، وبلغ مرحلة الاحساس الخطير بمركب الكمال فى ألمانيا النازية الى حد الايمان الأعمى بالنفس ، والكفر الأعمى بالآخرين ، الى مرحلة المرض ، والغريب انه ، وكلاهما على طرفى نقيض ، هذا يريد الانتحار تفوقا أو التفوق انتحارا وهذا يريد الانتحار كمالا يلتقيان لقاء مروعا مخيفا ، لقاء المرض بالنقص مع المرض بالكمال ، لقاء الحساسية بالسيادة

على الدنيا فعلا بأولئك المتطلعين الى هذا الاحساس المعانين من مركب النقص ٠

لقاء دائما تترتب عليه أوخم العواقب ، حتى الهزيمة العسكرية الساحقة لاتكفى لكسر المحرك المخيف المريض الذى يلهب كيان الشخصية كلها فتكاد تصوم عن الحياة ، وتعمى عن أى مما فيها الا عن هدف اثبات التفوق أو فرضه فرضا، تهزم الدنيا عسكرية وتنزع من أياديهم المريضة لعبة السلاح التى كلفت عالمنا ٤٠ مليونا من الضحايا ، فيوافقون وهم يخفون الابتسامة فى الأكمام ٠٠ فاذا كنا انهزمنا فى مباراة القوة فتعالوا لتلبس قوتنا ثوب التمدين وتتبارز رأسماليا وصناعيا ، وينهار المتسابقون واحدا اثر الآخر ، ولا يبقى فى الساحة الا ذوو الدوافع غير البشرية ، غير السوية ، غير العاقلة ، للتفوق والانتاج ، أميركا وألمانيا واليابان بل حتى ليبدأ التسابق المخيف الآخــر بين المرضى أنفسهم ، تســابق أنانى شرير هدفه انفرادالواحد منهم بسيادة البشرية جمعاء، ومع هذا ، ولأن هناك معسكرا اشتراكيا آخر ، بنظام آخر، فالرغبة فى الانفراد لا تمنع تكاتف الجميع ، والرأســمال اليــابانى نافذ عــلى الالمــانى ، والاثنــان كتلة واحدة مع الاميركى ، السمة الرأسمالية واحدة ، ولــكن الضحية هى شعوب هذه البلاد ٠٠ التى يصرعها ويجردها من انسانيتها وينمى فيها الاثرة والأنانية والعداء للآخرين ، هذه الآلة الرأسمالية الجهنمية وهى تعمل وبمعدل مخيف ٠٠

وبالعلم والعلماء قد اشتروهم تماما يسخرون لهم كل حقائق العلم الانســانى ، كل آفاقه ، كل انتصار على قوى الطبيعة ، يسخرون لهم هذا كله ليغذى هذا الجــوع المرض

الشهوانى لامتلاك العالم فى قبضة يد وتحت تصرف ضغطة اصبع اصبعى . أحرك الدنيا بسبابتى آنا . حتى لو كانت الحركة الى الجحيم ٠

آلا يكون من نعمة الله على بشره ان العالم ليس ساحة خالية يرقص فيها المجانين الثلاثة رقصة الحياة ـ الموت ـ الجنون ٠ وأن هناك معسكرا آخر نشأ لكنه ، انسانيا جاء ، وانسانيا يعمل ، الصين قادمة ، وآلمانيـة الديمقراطيـة ، تشيكوسلوفاكيا ، يوغسلافيا ، الاتحاد السوفياتى الثانى فى الانتاج ٠٠ الصناعة الانسانية أيضا تمضى ، تقف ، تلاحق خطو المجانين ، بيدها تأخذ بيد العالم الثالث ، علمهـا غير أنانى ، اكتشافاتها لا يحتكرها بيت عريق فى عدائه للانسان ٠٠ انما هى ملك لنا ولهم وللدنيا لو أرادت ٠

ضاع الأمان

فى ألمانيا ٠٠

فجأة أحسست انى فى فيلم من آفلام الجاسوسية وجيمس بوند ٠٠ فقدت الأمن ٠٠ وأغـرب الاجابات جاءتنى حين سـألت الهرميشلر مدير الأكاديميـة الانجيلية (وهى شىء كالجامعة الأزهرية الدينية عندنا) لماذا دعانى ودعا وفدا مصريا ثقافيا لألمانيا ؟ لم تأتنى اجابة شافية واحدة ، كل مرة كانت الاجابة مختلفة ، هـذه المرة قال : بصراحة أنا لا أفعل هذا حبا فى مصر والعرب فقط ، انى ، انما أقوم به محافظة على اليهود آنفسهم انى فيما آرى انهم اعتمدوا عـلى القـوة فقط كى يفرضوا وجـودهم فالمحتم آن يصمد العرب ، بالغريزة حتى الى القوة وقد يطول الزمن ولـكن

النتيجة أن يهزم اليهـود فى النهـاية ويؤدى فرض الوجود هكذا الى استئصال الوجود ، أنا اذن من أنصار التعـايش والتفاهم مع العرب ٠

ولأنى لم أجد فى ملامحه الطيبة أو التى تبدو كذلك أى أشارة تؤكد صدقه أو تنفيه فقد سكت ، ولم آشأ ان أجادل ٠

نحن اذن كوفد ثقافى عربى ، لسنا فقط ديكور عدالة

ولكن نجىء لأن مصلحة اليهود فى المدى الطويل تقتضى هذا المجىء ٠

وهكذا عرفت حقيقة أخرى عن الشخصية الألمانية ، ان تركيب الشخصية القهرية يحتم أن يكون ايمان الشـخص كاملا بالجهاز الذى يحركه وبالبروغرامالذى يغذيه ، وايمان الشخصية الألمانية بقدرتها ايمان يبلغ حد العبط أحيانا ، أو بالضبط حد الغباء ان الغباء الالمانى المشهور ليس هو الغباء نتيجة قلة الذكاء أو الحيلة ؟ ولكنه نتيجة لتولى الشـخصية الألمانية نفسها مهمة الغاء كل قدرات العقل التلقائية عـلى التصرف ٠٠ فهم لا يعترفون أبدا بما يسمى لدينـا فكرة اللحظة أو وحى الساعة ، ما لم تكن الفكرة قد نشأت ونوقشت واطمأن الشخص تماما الى سلامتها بحيث يركبها فى عقله وتصبح جزءا من برنامج هذا الجهاز العقـلى الالكترونى ، فانه أبدا لا يمكن أن يحفل بها أو ينفذها ، لقد اختصروا وظائف كثيرة من وظائف العقل بحيث لم يعد له الا وظيفة أن يناقش ويقتنع أو يقنع ، وحاولوا بالنظام المطبق والقانون أن يجنبوا انسانهم حاجته الى التصرف الفردى أو المبتكر أو التلقائى وهكذا فانه رغم دقة نظام المرور مثـلا وصرامته

فحوادث المرور هناك فى ألمانيا أكثر منها فى بلادنا العربية،
السائق العربى باستطاعته اذا لمح الخطر أن يتصرف ، ربما
حسبما تعلم أو تعود وربما يبتكر التصرف نفسه ابتكارا ٠
السائق الألمانى اذا رأى الخطر ماثلا ولم يكن لديه فيما يعرفه
من نظام وقوانين للطريقة التى لابد عليه اتباعها لمواجهة
ذلك الخطر فانه لا يقدم على أى تصرف بالمرة ، ويظل ماضيا
الى الخطر حتى الكارثة ٠٠ كأنه بطل تراجيدى وليس انسانا
من أهم ملكاته قدرته على التصرف اللحظى المبتكر ٠

★★★

ذلك الاختناق

وجاءت ليلة الندوة الثقافية التى كنا قد دعينا اليها فى
برلين ، وكان على بعد قراءة أعمالى أن ألقى كلمة ٠

كنت أعلم انى هنا فى فم الأسد ، وانه نفس الجمهور
الذى أحاط بنا من أول لحظة لوصولنا وكأنما ليكون حزاما
أو حائطا آخر لبرلين ، ازداد عدده حتى قارب المائة هذا
صحيح ،ولكن النوع أبدا لم يتغير ، أنه جمهور مختار ومنتقى
بعناية بحيث كلماتنا ان نفذت فانما تنفذ الى ادمغة مطعمة
تماما ضد أى نفاذ ، أو تنفذ الى ادمغة نحن بغير حاجة اليها
لانها ادمغة غير محايدة ٠

ومع هذا فقد كان لابد ان اواجههم بالحقيقة ، كيف
يصنعون بمجيئنا مسرحية جيدة الاخراج كعادة الالمان ،
مختارة الجمهور بحيث ينتقى دور الجمهور ، عرضها يتم
سرا حتى لا يتسرب خبرها الى المواطن الالمانى العادى ، ونحن
لانعرف أيضا كيف تتسرب ، فجمهورنا هو حراسنا ، واختلط

الحابل بالنابل ، والمعالم تاهت ، الالمانى الانجيلى البروتستانتى يحدثك وكأنه مصرى، والمصرى وكانه انجيلى، والعرب كل فى طريقه ، وكل فقد الثقة فى الآخر ، وكل يكيل الاتهامات للآخر ، وعليك فى النهاية أن تختار حزبا من أحزاب ، أو أى مخابرات تشاء ، وتتهم به غيرك أو يتهمك غيرك به ٠

قلت الحقيقة هذا صحيح ، كل الحقيقة ، بادئا بأنى لم أقبل المجىء الا بناء على الخطاب الذى أرسله الطلبة المصريون ولولاه ما جئنا ٠

قلت كيف أحس لأول مرة فى حياتى انى أختنق اختناقا حقيقيا فى برلين « الحرة » وان دكتاتورية اكسل شبرنجر (أكبر صحفى المانى صهيونى) آبشع ألف مرة من دكتاتورية الساذج الجعجاع عويلز ٠٠ حتى يسارك يا « برلين » لا يثلج القلب٠٠(٣٣) منظمة يسارية تتطاحن وتتحارب ، ما أسعد اليمين بهذا اليسار اذن ٠٠ وما أذكى المخابرات الامريكية وهى بعد لم تعد تتنكر فى أحزاب الرجعية والعمالة المكشوفة ولكن مادام اليسار هو المودة بعد ثورة الشباب عام ٦٨». فليكن التنكر يساريا متقنا ، وليكن داعرا أيضا ، ولتقم جامعة برلين « الحرة » معرضا هدفه اقناعك بالماركسية والشيوعية بالصورة واللوحة والتجسيم٠٠ معرضا لا يزوره أحد ، ولتمول حكومة برلين مسرحا يعرض أعمال «برخت» و « جوركى » لتبدو زاهية المكانة ، وليتولى العمال دور الرجعية بحيث ــ كما ذكر لى طالب يسارى حين سألته ما رأى العمال حين يذهبون اليهم ليعلموهم الماركسية ــ نظرية الطبقة العاملة ذاتها ــ يضربون هؤلاء الطلبة وبعنف يلعنونهم،

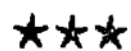
اذ نقنتهم صحافة شبرنجرأن الشيوعية اذا جاءت ستجردهم من كل « المكاسب » أو التأمينات والتوابل الرأسمالية ٠

الحكام الرجعيون اذن هم الذين يعرضون لافتات الشيوعية وصورها ويدعون لمبادئها ، والعمال ، التقدميون هكذا مفروض ، هم الذين يقومون للرجعية بدور كلب الحراسة بحيث يقطعون دابر أى شيوعى يحاول خرق النظام والتسلل ٠



تحدثنا فى الأسبوع الماضى عن الندوة الثقافية التى كنا دعينا اليها فى برلين ، وقلت كنا محاطين بنوع من الجمهور جرى اختياره وانتقاؤه بعناية بحيث كلماتنا آن نفذت فانما تنفذ الى أدمغة مطعمة ضد أى نفاذ ، أو تنفذ الى أدمغة نحن بغير حاجة اليها لأنها أدمغة غير محايدة ٠

وقلت انه كان على آن آواجههم بالحقيقة ، ثم تحدثت عن اليسار فى برلين ٠٠ واليوم أتابع مختتما الرحلة :



أذكى غباء

بعــد كلمتى ، حل عــلى القاعة وجوم هائل ، الذين أخرجوا الرواية لم يحسبوا حساب هذه المفاجآة ، ولــكن ، ما أهميــة أن أصرخ ملء صــوتى بالحقيقة وآنا فى حضرة جمهور محسوب ومختار ؟ ما الأهمية والحقيقة خنقها ســهل ولقد خنقوها وخنقونا معها ، وجاءوا بنا علنا آمام أنفسهم سرا وبتكتم شديد بعيدا عن أى رآى عام المانى محايد ، أو

حتى رأى معاد ، ليتسنى لهم تغذية العقول الألمانية بمزيد ذكى جديد من أقوال ورؤى ووجهات نظر اسرائيل ؟

واكتشفت حقيقة آخرى جديدة غريبة عن تلك الشخصية الألمانية المفرطة فى خصائصها وغناها .

اكتشفت انه ، رغم ايمانها المطلق بتفوقها الكامل فهى تكاد تكون أعبط شخصية من شخصيات الشعوب .

والالمانى الغربى ليس أبدا عبيطا بالوراثة أو بانعدام الذكاء .. انه عبيط بالعمد وبالحساب المدبر وكالعادة بخطة كاملة الاتقان ، فمن طبيعة الشخصية القهرية الالمانية أيضا قابليتها للتمسك بايمانهـا بالأشياء ومقاومتهـا أى ايمان جديد .. باختصار اذا كنا نسمى أجهزة الدعاية وصناعة الكتاب والفيلم والصورة أجهزة صناعة العقول ، فان العقل الالمانى من أسهل عقول الدنيا قابلية للصناعة والتشكيل ، ذلك انه ، بحكم تكوينه أيضا ، شعب غير شكاك .

انه يقبل منك ما تقوله ويظل يصدق حتى يثبت له أو تثبت له الظروف كذبه وحينئذ لا يعود يصدقك أبدا حتى لو كانت كذبتك الأولى والاخيرة ، الناس عنده اما كذابون تماما أو صادقون تماما ، وهو يأخـذ كلامك من معانيـه الأولى المباشرة ، فطبيعة الشخصية القهرية أيضا انها لا تعمل الخيال كثيرا الخيال ذاتى وكذاب ويدعو أحيانا لاعادة النظر ، ولهذا تغذى عقلها بأى برنامج تقبله العقول حتى تمضى كالقطار اذا وضع فوق القضبان ، همها أن تبلغ بحركتها أقصى سرعة وتحقق الأهداف .

★★★

وعن عمد تدار صناعة العقول فى آلمانيا ٠

بعد عصر الثقافة الالمانية الذهبى ، بظهور الرأسماليين وبيوت الاحتكار ، بدأ عصر صناعة العقل الالمانى بطريقة تخدم تماما هؤلاء السادة الجدد ، ولكى تصنع العقـل عـلى هواك لابد أولا أن تعزله عن العالم ، وهـكذا نشأت بدعة احتقار لغات الآخرين والاصرار على الالمانيـة ، ثم تطعيم الشعب ضد الثقافة ، وهـكذا نشأت أيضـا بدعة تحسس المسدس اذا ذكرت الثقافة وبدعة حرق الكتب ، فى الواقع بدعة اخفاء الحقائق عن الشعب يدركون جيدا انه مولع بها وانها ان وجدت لن يصدق غيرها ٠

اخفاء الحقائق من ناحية وادخال صناعة جديدة اسمها صناعة صنع الحقائق ٠

والأمر ليس مجرد ألفاظ ، والمسائل هناك لا يأخذونها هزلا ، ان تصنيع الحقائق شىء مختلف تماما عما تعودناه من « فبركتها » هنـا ، آن نصنع حقيقة كاللؤلؤة الصناعيـة مستحيل أن يميزها عن الطبيعية الا انسان ذو مستوى خاص، عمل صعب ، واذا عدنا لتاريخ صنع « حقيقة صـناعية » كحكاية سيادة الجنس الآرى لوجدنا آن الاتقان فى تزييفها بلغ درجة تكاد ترفعها الى مستوى الحقائق العلمية ، واليهود أعرف النـاس بالألمان ، واليهود كانوا قد وضعوا عيونهم على آلمانيا ما بعد هتلر ، ان الالمان فى نظرهم الشعب المثالى لتحقيق أهدافهم هم من آلمانيا ، الالمانى مثالى لأن قدرته على العمل وجنونه باتقانه تحتم نجاح آى صناعة آو نظام يقوم

على أرض ألمانيا . الألمانى مثالى لأنه ينتمى لشعب خرج من الحرب بمخ مغســول من آثار الثقــافة آى الحقيقة الحقة . أصلح تربة لتربية الحقائق المصنوعة ، بل حتى صالح أيضا لتربية العقد ومركبات الذنب الصناعية .

كان مطلوبا أن تصنع تركيبة نفسية تجعل شعبا بأكمله يحيا أعواما طويلة ولا يزال يحيا ، وقد استولت عليه تماما عقدة انه أذنب ، وقد عولج ضميره بحيث آصبح لا يرضى أبدا الا اذا كان ارضاؤه على هيئة نقود آو صناعة آو آى شىء يقدم لاسرائيل .

ولكى تنجح الخطة كان لابد من « كادر » يهودى كامل ينفذها .. كان لابد من امساك كل الخيــوط التى تحرك الرأى العام وتصنعه بأيديهم هم .

وكانت الحكومة الالمانية تدفع لكل يهودى آلمانى يعود الى ألمانيا بعد الحرب كذا آلف مارك تعويضا له ، غيرالتعويض الهائل الذى رصدته الحكومة لاسرائيل .

ونما الرأسمال الالمانى فى أحضان رأســماليين عتاة يهود ، خبرة الالمان وطاقاتهم ودولارات آميركا وناب اليهود الذكى الأزرق . . .

وبينما اليابان تنمو وتتوســع ، كانت آلمانيا أيضــا وبسرعة مذهلة تمضى حتى لتصل الى درجة آصبحت البنوك الالمانية ترفض أن تودع فيهــا النقــود كدولارات ، انما تشترط أن تكون العملة المودعة بالمارك .

اذا المــارك أصبح آكثر قوة من الدولار ، وفى نفس الوقت كانت الجمارك الاميركية تفرض ضريبة تلو الضريبة

تحمى صناعتها «الوطنية» من صناعات اليابان وهى تغزوها فى عقر دارها ·

كان الانسان القهرى والانسان الانفصالى قد انتصرا ذلك ان الشعب المتجانس حتى فى مرضه أو فى صحته ، أكثر اثارة للرعب ، ومرعب أن تحيا هناك . فى ألمانيا أو اليابان الغربة تطاردك وتطردك ·· غريب مع المتعالى هنا ، غريب مع المنطوى المؤدب الشاعر بمركب النقص هناك ، غير ان المدهش من هذا الصراع المجانينى هذا؟ هو أيهما يعمر أكثر·

المريض بمركب النقص ·

أم المريض بمركب الكمال والسمو والتفوق ·

أنا شخصيا أعتقد ان اليابانى سيكسب ، ليس فقط لأن حالته أشد ، وانما لأن مركب النقص يزود الشخصية بفجوة أبدية لا تشبع ولا ترتوى ·· ولا تؤمن مهما فعلت انها أصبحت سيدة الآخرين أو انها وصلت ، أما الألمان فاعتقادى انهم بالتوحيد اذا توحدوا ، وبالانقسام اذا ظلوا هكذا فانهم قادمون على كارثة لم يهيئوا أنفسهم لها أبدا ، ان يبدأ العالم الذى احتقروه طويلا واحدا اثر الآخر يسبقهم . مشدوهين هم حيارى ، يجدون أنفسهم مطالبين بأن يشكوا فى شىء لم يكن ليقترب منه الشك مهما طغى ، فى تفوق العقل والطريقة والقدرة الألمانية ·

لقد كانت ألمانيا بصناعاتها ومؤسساتها تبهرنى وأرى فيها صورة الاعجاز الأوروبى الصناعى ·

بعد زيارتى لليابان ، بدت ألمانيا كالقرية ، فما يصنعه الأقزام السمر فى ركن الدنيا الشرقى شىء هائل مخيف لن يصدقه العالم حتى بعد وقوعه ·

والذكاء دائما وليد الشك فى الذكاء ·

والغباء نتيجة حتمية للايمان المطلق بالذكاء ·

وهكذا غباء ألمانيا ·

ويا له من غباء ··

اذ فى النهـاية يتضح السبب فى حماس الأكاديميـة لتوجيه دعوة ثقافية أنا رئيسها لمصر :

فلقد قامت السلطات المصرية بالقبض على أحدالمصريين من أصدقاء الهر ميشلر والأكاديميـة كان يقيم فى ألمانيـا الغربية وعاد الى مصر وبدأ التحقيق معه فى التهم المنسوبة اليه ، وهنا فقط تحرك الهرميشلر لانقاذ صديقه وعرض أن يقيم أسبوعا ثقافيا لمصر فى ألمانيا مقـابل اطـلاق سراح الصديق ، هى صفقة اذن لعلها أغرب صفقة فى التاريخ ، هكذا فى النهاية يتضح السبب الحقيقى وراء الدعوة ويتضح سر الحماس ويتبدى للشخصية الالمانية جانب جديد آخر ، انى كنت على صواب فى اعتقادى أن المسائل لا تبدو طبيعية بالمرة ، لقد أحطنا فى برلين بذلك التكتم الشديد ، فلو تمت زيارة حقيقية ووصلنا الى حد مخاطبة الرأى العام هنـاك والالتقاء مباشرة مع جمهور المثقفين ·· لو وصل صوتنا فعلا للرأى العام واستطعنا النفاذ من حاجز الـكلمة والصـوت والصورة وتعدينا لبحر الأكاذيب التى تروج هنـا لغضبت اسرائيل ولثارت ركائزها فى ألمانيا واعتبرتها ان ما حدث جريمة ارتكبتها الأكاديمية وارتكبها ميشلر ·· ولعاقبتهم العقاب الوخيم ، وهكذا اتضح بعد آخر للشخصية الالمانية ماركة شيرنجروشتراوس ، وكول ·· انها شخصية لا تقدم

على عمل الا اذا كان يخدم أهدافها أولا وأخيرا ، حتى الملايين التى تدفعها لاسرائيل هى فى حقيقة أمرها أولا لصالح ألمانيا ، لصالح بقاءالتخلف جاثما على أنفاس شرقنا العربى! وحتى ولو كان لصالح اليهود فالموقف الآن يخدم اسرائيل ويخدم ألمانيا الغربية وأمريكا وكل معاقل الرأسمال ، والتناقض ان وجد فهو ليس الرئيسى اذ التناقض الأول ما عدا هذا فهو فرعى ولا أهمية خطيرة له ٠

أجل لقد خرجت من رحلتى الى اليابان وألمانيا ان (المتعوس) الخطير قد التقى (بخائب الرجا) الأخطر كما تقول فى أمثالنا العامية وهو لقاء يا ويل العالم منه ٠



لشعبنا خاصية غريبة لم أكن أتصورها ، كنت أناقش ذات يوم فى لندن اخصائيا كبيرا فى اختبارات الذكاء بمستشفى « هامر سميث » حيث كان طفل مصرى يفحص من اصابة ، وحين أجريت عليه اختبارات الذكاء كانت نسبة درجاته أعلى بكثير من المعتاد فى هذه السن ، حسبت الطفل نابغة أو فلتة ، ولكن فوجئت بالاخصائى يقول ان هذا ليس أول طفل من بلادكم آجرى له الاختبار ، هذا فى الواقع الطفل العاشر ، وهو ليس أول الحاصلين على هذه النسبة ، انه السابع .. واعتمادا على خبرتى استطيع أن أقول ان هذه ربما أعلى نسبة للذكاء بين أطفال العالم .

وأحسست بفرحة حقيقية ، كان كلامه كالخبر المفرح المفاجىء ، وقبل أن أعلق كان هو يهز رأسه آسفا ليقول : ولكن الغريب ان أطفالكم يظلون كذلك الى حوالى الخامسة ثم تبدأ نسبة ذكائهم فى الهبوط بينما تأخذ نسبة قرنائهم الانجليز أو غيرهم فى الارتفاع بحيث يتفوقون عليهم بمراحل .

وتراجعت فرحتي واحترت ، واحتار معي هو الآخر ، ولكنا بالنقاش وصلنا الى ما يمكن أن يكون السبب ، فحتى هذه السن يكون ذكاء الطفل مستمدا من مخزونه الوراثي من الذكاء ، ولكنه بعدها يعتمد ذكاؤه على مدى تفاعل ذكائه الموروث مع بيئته وعلى مدى أثر البيئة في تنمية الذكاء . تماما كأى عضلة تولد بقوة معينة ولكن قوتها تبدأ تعتمد على التدريب والتمارين التى تزاولها .

أنحن اذن نولد أذكى ؟

هذه حقيقة ...

الحقيقة الأخرى لمستها في تجوالى بين حضارات آسيا ، كثيرا ما سمعت ذلك التعبير يرن في أذنى ألا تعرف انك من مصر موطن أول الحضارات ؟

وهذه حقيقة أخرى ..

والمسألة أبدا بعد هذا ليست صدفة ، وليس معنى زوال الحضارة عن شعب وتسليمها لشعب آخر انه يرتد الى الوراء مثلا أو يبدأ يصبح أقل حضارة ، ان زوال معالم الحضارة عن البلاد لا يعنى أبدا زوالها من الانسان نفسه ، واذا كان الذكاء المصرى هو الذى أحدث في العالم القديم ما يشبه ثورة الصناعة والتكنولوجيا في العصر الحديث باكتشافه لأول ثورة في العالم وأول تكنولوجيا : الزراعة وآلات الزراعة ، اذا كان ذكاؤنا هو أول من بدأ يمثل الذكاء البشرى ، فمعنى هذا انه الآن أعرق ذكاء وأخصبه وأطوله عمرا .

كل ما فى الأمر أن الذكاء كى يصبح فعالا لا يكفى أن يكون صفة موروثة أو مكتسبة ، انما التحضر والتقدم يصنعه الذكاء الجماعى لا التفوق الفردى .

نحن اذن أول « مجتمع » ذكى عرفه الانسان ، كل مافى الأمر ان عمر هذا المجتمع الذكى لم يدم طويلا ، وما لبث النظام الذى كان يتيح استثمار الذكاء جماعيا ان توقف عن التطور وانفرط عقده ، وأصبحنا ومنذ تلك اللحظة وإلى الآن أفرادا أذكياء تماما فى مجتمع لم ينجح فى تجميع هذا الذكاء واستثماره ، أو بالأصح فى مجتمع غبى متخلف . أطفالنا يولدون عباقرة بالقياس الى أطفال العالم، ومفروض أن يتسلمهم نظام حياة ينمى هذا الذكاء الفردى ويربيه على تكوين مجتمع ذكى يعمل طول الوقت ، ويطور نفسه بحيث يستطيع باستمرارأن يستوعب ذكاءأفراده ، وبذكائهم الجماعى يحيا ويتقدم وينتج ، ولكن ، لأن عكس هذا ربما هو الذى يحدث ، بحيث يجد الفرد الذكى نفسه فى حالة صدام مع مجتمع قاصر عن استيعاب ذكائهم ، بحيث يتحول بذكائه لخدمة ذاته أو بالأصح الدفاع عن ذاته وهكذا .

ميزة الذكاء الآسيوى

ولم ألمس هذه الحقيقة الغريبة بقدر ما لمستها فى آسيا .

ان الفرد المصرى أو العربى أذكى ، ولكن ميزة الذكاء الاسيوى المتوسط انه موجود فى مجتمع ذكى ، مجتمع يعرف قيمة الذكاء .. ويهيىء له كل السبب ويعرف كيف يخلق النظام الذى يتيح لأذكياء كثيرين أن يعملوا معا ، أن يحدث

هذا التعاون الذكائي الكامل ، ذلك الذى يصنع فى الحقيقة أى حضارة أو صناعة أو حتى فن ، وبالتالى يصنع الانسان ويدربه ليكون أذكى ، بحيث يعوض بالارادة ما أفتقده بالوراثة ، بحيث يصبح ذكاء المرء محسوبا له ، وليس كالحال هنا محسوبا عليه ، بحيث يكتشف فى كل فرد مكمن طاقته وتفرده وقدراته ، وفى مكانها الصحيح يجيد استخدامها .

★★★

ذلك فى رأيى سر أى مجتمع ناجح ، سر أى تقدم علمى أو صناعى أو حضارى أو ثقافى وفنى ، خاصة ونحن لم نعد فى عصر الفلتات الفردية .. نحن فى عصر المجتمعات الذكية ، وكما بدأ العالم ينقسم الى أغنياء وفقراء ، فكذلك بدأ ينقسم الى مجتمعات أذكى ومجتمعات أقل ذكاء أو أغبى ، والهوة بينهما أيضا تتسع ، فالذكاء ثروة ذكاء ، حتى القوة الفيصل فيها هو الذكاء ، والجيش الأقوى اليوم هو الجيش الأذكى .

بل ان التعليم ذاته لا يحل المشكلة .

وجيش الفيتناميين مكون من فلاحين بعضهم أمى ، ومع ذلك ولأنه الاذكى فان فرق الجيش الاميركى الاكثر تعليما تتساقط فى كمائنه كما يتساقط الذباب .

ولكن الذكاء وحده ليس كل شىء ..

فبجانب الذكاء لابد من أشياء أخرى .

فلكى تلوى عنق التاريخ لابد من عمل شاق .

والتصدى للعمل الشاق طموح انسانى مشروع ٠

ولكن الطموح فى حاجة الى قوة وقدرة ورصيد ٠

★★★

أنا لم أكن بالطبع أنوى اكتشاف قارة ، أو حتى اكتشاف طريقة مختلفة للحياة ، كان كل طموحى أن أنجح فى اكتشاف سر الانسان يلوى عنق التاريخ ويقاوم ، والأنظمة فى آسيا تختلف من الشيوعية ـ وهى فى قمتها فى الصين مثلا ـ الى الرأسمالية فى أوجها فى اليابان ٠٠ ولكن مقاومة الانسان لا ترتبط بالنظام الذى يعيش فى ظله ، اذ انه اذا أراد المقاومة يقاوم سواء قاوم النظام الذى يحيا فى ظله ليعيش أو تضامن مع النظام ليقاوم شرا خارجيا يهدد بقاءه ، ان الأصل من الانسان ، صحيح ان للنظام الأثر الأكبر فى نتيجة مقاومته ولكن ما فائدة النظام اذا قاوم الانسان وحده بلا انسان ؟

الأصل هو الانسان ٠

وآسيا بلاد شاسعة وأهلها كثيرون ، وليس كل شعب فيها يلوى عنق التاريخ ويقاوم ، ويعيش كل نظام فيها متحالف مع الانسان فى مقاومته ٠

ولكن الشىء الذى لا يمكن انكاره ان المقاومة هناك معدية ، وانها تتكاثر ، وانها خطيرة الى درجة اننا سنجد أميركا بعد قليل اذا أرادت أن تستمر تعمل ضد الانسان الاسيوى فعليها أن تجند الشعب الاميركى كله وتسخر امكانياتها الصناعية كلها وترصد كل مخزونها من الرأسمال ٠

والانسان لا يولد يقاوم ·· انه يولد كالصفحة البيضاء التى يتولى المجتمع ملئها بالمضمون ، وحسب المجتمع يصبح الانسان . فاذا ولد فى مجتمع يقاوم نشأ مقاوما ، واذا ولد فى مجتمع راضخ نشأ كذلك ، المجتمع القوى المقاوم اذن هو ذلك الذى يستطيع أن يصنع من أفراده مجتمعا قويا مقاوما مثلما يصنع المجتمع الذكى بأذكيائه ··

وهذا هو سر آسيا الأكبر ! انها قارة المجتمعات ··· مجتمعات متباينة متأرجحة بين القمة والسفح ولكنها باستمرار ؟ حتى التفرد والفردية ليست وليدة انفصال عن المجتمع بقدر ما هى وليدة استخدام واستعمال لهذا المجتمع·

وانسانها جاد لأن مجتمعاتها جادة ·

والهند خير مثال على هذا ·

فالهند ليست دولة واحدة ، انها قارة بمفردها ، وليس هناك ما يمكن أن يسمى بالمجتمع الهندى ، فهو مجتمع مكون من عديد من المجتمعات ·· كل لغة تكون مجتمعا ، كل دين يكون آخر ، كل طائفة ، كل وحدة جغرافية ، كل درجة من درجات الفقر أو الغنى ، ان الهند على عكسنا تماما هنا ، فاذا كان مجتمعنا و مجتمع التوحد والتوحيد ، فمجتمع الهند هو مجتمع التعدد والاختلاف ·

وقد يظن البعض ان التعدد يؤدى الى مجتمع ضعيف ، وان التوحيد يؤدى الى مجتمع واحد قوى ، ربما العكس هو الصحيح ، ان التوحيد التام يؤدى الى فقدان الخصائص المتفردة ، نفس الخصائص التى يؤدى وجودها وتأكيدها الى

قوة المجتمع الأكبر ، فى حين ان الغاءها فى سبيل التوحيد يؤدى الى طمس معالم التفرد والامتياز ، وبالتالى الى وحدة كوحدة المتشابهين ٠٠ كوحدة الاصفار ٠

★★★

ولهذا فالمجتمع الذكى لابد آن يكون نابعا من وحدات أصغر ومن مجتمعات صغيرة كثيرة ذكية ، كذلك المجتمع المقاوم هو أيضا مكون من مجتمعات كثيرة صغيرة مقاومة ٠

ودائما يكمن عيب آى مجتمع فى هذه النقطة البسيطة المحددة ٠

تلك المجتمعات الصغيرة التى منها ينشأ الفرد الواحد ومنها أيضا وبتلاحمها ينشأ المجتمع الكبير ٠

وهنا فى بلادنا تستطيع أن تضع يديك على الداء بسهولة ٠٠ فى قرانا نحن نكون المجتمعات الصغرى هذه وننشأ منها ، وبها ننشىء المجتمع الأكبر ٠

كذلك كانت مدننا فى العصور الوسطى مكونة من آزقة وحوار تكون حيا ، والأحياء مدينة ، والمدن تكون دولة ، فى العصر الحديث وحين حدثت الهجرة الهائلة من القرية الى المدينة ، ومن الزراعة والتجارة الى الصناعة ، فقد انساننا القادم قدرته على تكوين المجتمعات الأصغر ، امتلأت مدننا بآلاف العائلات آو حتى الأفراد الذين لا يربطهم رابط ولا يسألون أمام مجموعة ولا يحسون بالانتماء ، ومن السهل أن يبدأ الانسان يفقد كثيرا من خصائصه الاصلية حين ينفرط عقده ويصبح وحده يفكر ، ووحده يصنع لنفسه القيم التى تلائمه ، ان من يفقد الانتماء يفقد الأصالة ،

والفرد حين يفقد خصائص مجتمعه الاصغر يفقد تماما خصائص المجتمع الأكبر ٠

هكذا نشأ لدينا المجتمع الغريب الفريد من نوعه ، المكون من أفراد لا يجمعهم الا العمل مرة ، أو القهوة ، أو أحيانا السكن فى مكان واحد -

ينجبون أبناء ينشئون أفرادا هم الآخرون ٠٠ والنتيجة ان الكتلة بدلا من تكون بناء قويا تتفتت وتتسطح ، ويصبح فى مكان البناء سطح من الرمال الصغيرة المتراكمة ، بل حتى الأشكال الحديثة للمجتمع مثل النقابات والنوادى والجمعيات نشأت فى ظل الاستعمار لوثها عن عمد ، وأخمد فيها الروح، وتحولت من مجتمعات جديدة مفروض أن تكون فيها الروح وتحولت من مجتمعات جديدة مفروض أن تكون أداة الوجود والمقاومة ، الى أشكال من التجمع وظيفتها كبح جماح أفرادها واحتوائهم وتقييد حركتهم وشلها ليس الا ٠

الداء واضح وظاهر

الداء واضح وظاهر ٠٠ لا يمكن أن يوجد شعب وحدته الفرد ، ان الشعب ليوجد ـ أى الشعب ـ وحدته مجتمع أصغر ، وما لم يكون أفراده منظمين بطريقة أو بأخرى فى هذه المجتمعات الاصغر ، فالنتيجة ان شعبا كهذا ممكن أن يكون تعداده مائة مليون فى حين ان حاصل قوته تقل بكثير جدا عن مجموعه ، بينما شعب آخر تعداده عشرة ملايين من الأفراد يكونون مجتمعاتهم المختارة الاصغر لتكون بدورها المجتمع الواحد الأكبر ، تكون حاصل قوته أكثر بكثير جدا

من الملايين العشرة ، فالعمل كمجتمع لا تكون نتيجته حاصل جمع مجهودات أفراده ، ولكن العمل كجماعة يكاد يكـون حاصل ضرب مجهود الواحد فى الآخرين ، وليس حاصل جمع أو أحيانا قسمة ، الداء واضـح وظاهـر ٠٠٠ الدولة من المجتمعات الأخرى نشأت كظاهرة اجتماعية لتنظيم العلاقة بين المجتمعات الاصغر ، الدولة عندما نشـأت من الخارج ؟ من المستعمر ، من أصول لا علاقة لها بالشعب أو وحداته، نشأت لتفتت الشعب فى الحقيقة وتكبته ٠

ان الروتين والقوانين واللوائح التى تحفل بها حياتنا ولا يوجد لها نظير فى أى بلاد آخرى سببه ان الدول جاءت أجنبية ، كما كان العرض أجنبيا ٠٠٠ وانها تعامل الشعب كما لو كان عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ٠

وقد كان هدفها على الدوام آيضا أن تحول بين الشعب وبين تحـوله الى مجتمع ، أى تحـول دون قيـام التنظيـم والمجتمعات الأصغر . ليبقى الفرد من آبناء الشعب وحـده بمفرده أمام جهاز الدولة الرهيب ٠

كيف بامكان مجتمع كهذا آن تنفجر طاقاته ويعمل وينتج وينمو ، والدولة تتولى بتر آى صلات تنشآ داخله لتحوله الى جسد حى كبير منتج ، وتضع ما شاء لها من قوانين كلها ليس فيها قانون واحد يحمي المواطنين ، انما كلها قوانين لحماية العقار أو الارض أو الملكية آو السيادة كلهـا قوانين ليس هدفها فقط تفتيت الشعب انما آيضا احالة آفراده الى عبيد فرادى ؟

ولكن تلك قصة أخرى ٠



الفهرس

مدينة الملائكة ٥
افصلونى أرجوكم ـ معه !! ١٧
الضحك حتى البكاء ٢٧
الخروج الى الشمال ٣٧
اننا نختنق .. نختنق ٤٧
خطاب من راكبة أتوبيس ٥٧
فلنكتشف أنفسنا ٦١
التليفزيون ٧٣
الشعب القوى هو الذى يغير ٨٣
وداعا أيها المجلس والى غير لقاء ٩١
المندوب الغائب ١٠٣
اللص ذو الأقدام الكبيرة ١٢١
عبقرية المعارف ١٤٩
مركز الدائرة ١٥٧
وذهبت للدعوة الغامضة ١٦٧
أحفادك يا طه ١٧٩
أجادير فى عينيك ١٨٩
رسالة من الجنادرية ١٩٧
فى ألمانيا كنا ديكور عدالة وكان علينا أن نخاطب أدمغة محصنة
ضد أى نفاذ ٢٠٥
مركب النقص وركب العظمة ٢١٣
المجتمعات الوسط ٢٢١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٥٦/١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢٢١٢ - ٢

● الكاتب روحه معلقة بروح شعبه ، فى مشنقة واحدة ، أو فى باقة حرية واحدة .

● الكاتب هو أول من يبادر وآخر من ينكص .

● الكاتب ظاهرة اجتماعية بيولوجية ، قبل أن يكون ظاهرة فردية ، هدفها ذاتى محض .

● تلك بعض كلمات يوسف ادريس فى هذا الكتاب « مدينة الملائكة » إنها رحلة فى ضمير ووعى كاتب يخوض غمار الكلمة ، فنا كانت ، أو فى مجالات الثقافة والسياسة والحياة اليومية رحلة تبدأ دائما من القاهرة لتحيط بأقباس من عالمنا العربى ومن أمريكا وأوروبا وآسيا .

٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب